

شعراء أعلام

أبو القاسم الشابي

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي



الأكاديمية

أبو القاسم الشابي

حياته وشعره



الأهلية للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأول (التوزيع)

المملكة الأردنية الهاشمية ، عمان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12
هاتف 00962 6 4638688 ، فاكس 00962 6 4657445

الفرع الثاني (المكتبة)

عمان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزي ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

مكتب بيروت

لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 00961 1 824203 ، مقسم 19

أبو القاسم الشابي حياته وشعره

إعداد: يوسف عطا الطريفي

الطبعة الأولى ، 2009
حقوق الطبع محفوظة

الغلاف : علي الحسيني 00962 7 99782270 ، عمان ، الأردن

الصف الضروني : إيمان زكريا - 079/5349156

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

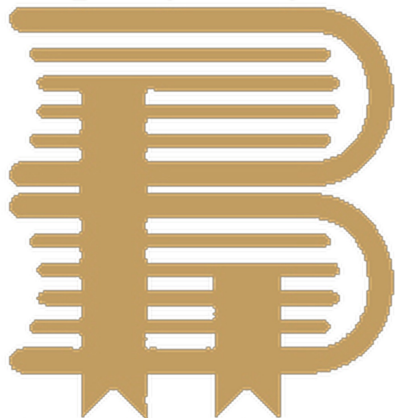
جميع الحقوق محفوظة. لا يسمع بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

أبو القاسم الشابي

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

عندما شرعت بالكتابة عن أبي القاسم الشابي، كنت أعرف، أن عدداً من الكُتّاب والمؤلفين والباحثين كتبوا عنه، وبجدية عالية، ولكنني عندما راجعت هذه المؤلفات وتمعنت فيها وجدت أن كل واحد تخصص في جانب معين، فبحث فيه واستقصاه قدر استطاعته وإمكانياته، ورأيت حينها أن القارئ بحاجة إلى كتاب يجمع بين دفتيه جوانب متعددة من حياة أبي القاسم وبيئته وشعره والمجتمع الذي عاش فيه، والدراسات التي أجريت حوله والتعرف على آثاره.

لم يعيش أبو القاسم الشابي طويلاً، لكنه ترك آثاراً عظيمة من النثر والشعر، فهو أحد الشعراء الثلاثة الذين قضوا قبل الثلاثين، فكان طرفة بن العبد أولهم ثم أبو فراس ثانيهم. وكان آخرهم أبا القاسم الشابي الذي مات عن خمس وعشرين سنة، وقد فاق غيره، حين أبدع وحلق في نزعة الرومانطيقية ربما بحكم سنّه أو بحكم شاعريته، أو بحكم عصره. وقد سار في إبداعه مع طبيعة الشباب المندفع فأصغى إلى قلبه ووجدانه، وعبر عن بيئته وعصره أجمل تعبير.

ورغم قصر مدة حياته، فقد حفل أدبه بألوان من التجارب لم تتح لغيره فأثار النفوس إلى أدبه، سواءً كانت هذه النفوس معه في فلسفته أو كانت ناقدة له، صور من خلال نظرته الأدبية مجتمعه فكان كالأسي يعالج ما أفسد الدهر عليه من حياته، بعد أن اجتمعت في شخصيته صفات الفنان الثائر المتمرد الذي عرف الداء، فقدم الدواء بها أمكنه في حياته القصيرة ووسط بيئة جميلة أخاذاً.

فقرّبه «توزر» أو منطقة الجريد والنخيل، تلفت الأنظار وتستهوي الأفتدة وعاصمة بلاده تونس الخضراء، على ساحل البحر، والقطر التونسي بمجمله كان مقصد

الرحالة والأدباء ومضرب المثل، وصفه القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد»، وقد أفاض في وصف هوائها وطيب مائها وكثرة خيراتها، وعدد ثمارها، كما وصف شطئانها وأنواع الأسماك فيها ومنه سمك «البقونس» الذي يضرب فيه المثل بقولهم «لولا البقونس لم تخالف أهل تونس...» كما ركز على شجرة الزيتون فيها، ثم عدد واحات تونس وما فيها من خيرات عميمة وقال: «ومياها رية وفيرة، ترد من ينبيع سائغة يعمل بها فلاحون يسمون بـ «المخمسين» لأنهم حينذاك كانوا يأخذون خمس الإنتاج».

وتاريخ تونس مثله مثل غيره من البلاد العربية من المحيط إلى الخليج، قد أصابه ما أصاب الجسد الكبير من وقوعه تحت الاحتلال أو الاستعمار أو الانتداب من قِبَل العالم الغربي. فقد احتلت فرنسا تونس عام 1881، ورزحت تحت هذا الاحتلال رداً من الزمن، وتعاقب عليه «البايات» فزادوا الظلم على الشعب الذي كان يعاني من ظلم واضطهاد المحتل، حتى أعلن استقلال البلاد سنة 1956، وأعلنت الجمهورية وطرد المحتل وخلق آخر «البايات» بعد تلك السيطرة على مقدرات تونس واقتصادها وثقافتها وعلى فكر أبنائها.

وفي هذا الجو المؤلم، ووسط الفساد المستشري، وبين أحضان تلك الطبيعة الخلابية، وتلك المقدرات الكبيرة، وُلد أبو القاسم الشابي حيث بدأت ملامح الشفق تظهر وبزوغ الفجر الجديد يسطع، بتوالد الأفكار الثورية والتحررية لتصنع تونس مستقبلاً زاهراً، يربط الناس بحياة عصرية بعيدة عن الجمود والبدع والخرافات التي سادت فترة الاحتلال. وكان لجامع الزيتونة أثره الكبير والعظيم في إحياء الفكر والتجديد والكفاح لتجسيد روح الحضارة ونفض غبار الظلمة والفساد. فظهرت جمعيات فكرية وأدبية، كان من أهمها «جمعية قدماء الصادقية» وهي جمعية تضم الشبان من خريجي الزيتونة، وكان الشابي واحداً من أعضائها الفاعلين، فألقى المحاضرات والندوات وأبدى رأيه بصراحة ليكون عاملاً قوياً مؤثراً ليوظ شعبه ومجتمعه من غفلتهم. كما نظم الأشعار ليعبر عما في صدره من شكوى وألم وقدم الحكمة ووصف الطبيعة ووحدها وبينها وبين الإنسان ليصل بفلسفته إلى عقل مجتمعه ووجدانه.

ولعلني قصدت من هذا الكتاب توضيح جوانب حياة الشاعر أبي القاسم الشابي ودراسته وثقافته ونشأته ورحلاته مع والده في أرجاء تونس ثم مرضه إلى أن وصلت إلى

وفاته، وخلال ذلك بينت المؤثرات في حياته وشخصيته، كما عرجت على فنونه وأغراضه
وإلى الصورة الفنية في شعره وفلسفته في حياته، ثم وضحت مذهبه الأدبي، وشاعريته
وبينت خصائصه الفنية. ووضعت في الكتاب شرحاً لبعض قصائده لتكون نماذج على
فكره وفلسفته.

ثم بينت علاقته مع غيره من أقرانه وأهل عصره من الشعراء والأدباء، ولزيادة
الفائدة فقد أثبتت بعض الدراسات الأدبية والمجالات النقدية التي ألفت عنه، وفي نهاية
الكتاب أثبت ما استطعت جمعه من أشعاره ورتبتها حسب الترتيب الزمني لنظمها.

وقد اعتمدت في كتابي هذا مراجع متنوعة ومتعددة، لكنني لم أتطرق إلى نشره، لأن
عنوان الكتاب خاص بحياته وشعره، مع أنني أوضحت رأيه في مسامرته عن الخيال
الشعري عند العرب وما دار حولها من آراء. راجياً أن أكون قد وفقت لما خططت له من
إحياء شعر أبي القاسم الشابي، ومعتزلاً إذا تبين فيه نقص، داعياً المولى عز وجل أن يكون
في هذا الكتاب الفائدة المرجوة والمؤملة للدارسين والباحثين، وأن يكون الكتاب علماً
نافعاً، والله ولي التوفيق.

يوسف عطا الطريفي

11 رمضان 1429 هـ / 11 أيلول 2008 م

القسم الاول

حياة الشاعر

في قرية الشابية، إحدى ضواحي توزر كبرى بلاد الجريد بالجنوب التونسي، حيث المناظر الخلابة والبلاد الجميلة، وبساتين البرتقال الفواحة ووسط الواحات الشاسعة والمياه الوفيرة والطبيعة الهادئة الحاملة بالآمال العريضة. ولد أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن إبراهيم الشابي في شهر آذار (مارس) سنة 1909⁽¹⁾ من أسرة عريقة ذات مجد عرفت في التاريخ التونسي منذ القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة.

وُلد هذا الشاعر بكر أبيه الشيخ محمد بن بلقاسم، والذي تخرج من الأزهر وأقام في مصر أوائل القرن العشرين سبع سنوات ثم عاد إلى تونس ليدرس في جامع الزيتونة حتى حاز على «التطويح»⁽²⁾ وهي شهادة نهاية تحصيله العلمي، ليسمى بعد ذلك قاضياً شرعياً بعد سنة من ولادة ابنه البكر أبي القاسم، حيث استوجه عمله التنقل بين أماكن متعددة، مصطحباً معه ولده الذي أتبح له التعرف على طبيعة تونس الجميلة وعلى طبائع مختلفة للناس في تونس.

وهكذا بدأت رحلة أبي القاسم مع العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره، فلم ينشأ في مسقط رأسه، وإنما نشأ خارج الشابية، حين أحلقه والده بالمدارس التقليدية «الكُتّاب» وهو في الخامسة من عمره، وقد حرص على تحفيظه القرآن الكريم، ولعل حرصه هذا بأمل أن يكون ولده البكر رجل دين مثله، فأنتم حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وفي عام 1920 حين كان في بداية الثانية عشرة من عمره أدخله والده إلى جامع الزيتونة بتونس ليكمل دراسة العلوم الدينية واللغوية فأمضى فيه ما يقارب تسع سنين ليتخرج عام 1928 وقد حاز على شهادة «التطويح» مثل والده، وكانت هذه الشهادة من أرفع الشهادات في ذلك الحين. وربما كانت هذه الرحلة في تونس ودراسته في جامع الزيتونة

(1) هذه كانت أقرب الآراء للتاريخ المرجح لمولده. فقد ذهب الكاتب الجزائري ابن أبي شنب إلى أنه وُلد سنة 1910، وجاء في الأعلام للزركلي أنه وُلد عام 1906 ثم صحح في الحاشية أنه وُلد عام 1909 وذهب آخرون أنه وُلد عام 1908 أما صديق الشاعر المحقق المشهور الأستاذ محمد الصالح المهدي فقال أنه في 3 صفر 1327هـ / 25-2-1909. أما أبو القاسم محمد كزو فيقول إن أسرة الشابي أخبرته بأنه قد يكون حوالي عام 1327 هجري الموافق 3/4/1909.

(2) إجازة نهاية الدراسة بكلية الزيتونة في عصره.

من المحطات الهامة في حياة الشابي التي تعتبر نقطة تحول هامة في حياته، حيث تم له التعليم العصري ثم الانطلاق والحرية في الاطلاع على النشاطات الأدبية دون قيود أو رقابة. وجد الشابي في نفسه ميلاً إلى الأدب بما يتناسب مع ميوله وأحاسيسه وشعوره، فلم يتجه إلى العمل في القضاء، وإنما اتجه إلى كتب المهجريين كجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي، فتناولها بنهم شديد وتأثر بها كثيراً وهذا ما سوف نلمسه جلياً في شعره، ثم اطلع على ما وقع بين يديه من كتب قديمة مما يعتبر من أمهات الكتب كالأغاني، وصبح الأعشى، ونفح الطيب، والكمال، والأماي، والعمدة، والمثل السائر، وكتاب الصناعتين وغيرها من النفائس القديمة، كما اطلع على ما طبع من الدواوين قديمها وحديثها.

ثم قرأ ما ترجم من اللغات الأجنبية لأنه كان يجهلها، وقد أعجب بكتب «لامارتين» و«جوتة» كإعجابه بالمعري وابن الفارض، إضافة إلى قراءته لما كان يصدر من مجلات عربية كالهلال والمقتطف وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن أبا القاسم قد التحق بعد تخرجه من جامع الزيتونة عام 1928 بمدرسة الحقوق التونسية، فتمخرج سنة 1930. وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته أبدى نشاطاً أدبياً واجتماعياً كبيراً، تمثل في ترأسه حركة طلابية تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم بما يتناسب وروحه الوطنية كما أسس جمعية «الشبان المسلمين» وساهم في تأسيس «النادي الأدبي» بتونس العاصمة و«نادي الطلاب» بتوزر، فكان عضواً فعالاً في أعمالها.

مؤثرات في حياته

ظهر نبوغ الشابي مبكراً، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين وظهر ميله للأدب والشعر في لحظات مبكرة فكانت قصيدته الأولى وهو في سن الرابعة عشرة، حين نظم قصيدة (يا حب) عام 1923، وكانت أول نشراته في صفحة «النهضة» الأدبية عام 1926. ثم ظهر شعره في السنة التالية. ولكن إذا سرّه الدهر يوماً، فقد كدره القدر أياماً، فكانت فاجعته الأولى بموت حبيبته في أول شبابه، قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فأذكى موتها في نفسه الأسى والنقمة من حوادث الدهر، وظل يذكر هذا الحب مدة طويلة، حتى حمل نفسه على نسيانه: ويرى «زين العابدين السنوسي» أن حبه لهذه الفتاة

كان حباً عذرياً، قبل أن يأتي إلى تونس العاصمة، فخلقت له بوفاتها حزناً شديداً ومرضاً أنطقه شعراً كثيراً، كما علق «محمد الحليوي» على هذا الحب المبكر، ومن ضمن ما قاله: «أن هاته الفتاة هي التي تحدث عنها في أوائل شعره حديثاً ساذجاً ونظم فيها أولى قصائده.. ومن المؤكد عندي أن الشابي لم تكن له حياة قلبية غير تلك الفتاة التي أحبها وهو في سن الخامسة عشرة»⁽¹⁾.

وربما كانت هذه الفتاة هي التي كان يلقاها ويتفصح معها في بعض المنتزهات، حيث يقول فيها:

أيها الحب أنت سر بلائسي وهمومي وروعتي وعنائني
ونحوولي وأدمعني وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائي
وستجد القصيدة كاملة بين أشعاره في نهاية الكتاب.

كان الموت من أهم تجارب الشابي في حياته، ففي بواكيره فجعه حين نفذ إليه بحبيته التي ماتت وهي برعم لم يتفتح بعد على الحياة، ماتت وهو يشاق إلى التمتع بظلمها، فتفجرت في حناياه بواعث الموت، وانطوى قلبه أسى عليها، فخلف عنده الفراغ والظلام والاكنتاب، وليست هذه تجربة سهلة في حياة الشابي، فهو ما زال يافعاً حساساً وقلبه مفعم بالطموحات لمستقبل كان يأمل أن يعيش ليراه، وما أظن هذه التجربة إلا كمثّل تجربة الشاعر محمد مهدي الجواهري، عندما أحب وهو صغير فتاة حين نزل أهله على أطراف الكوفة مصطافين، أو كتجربة إبراهيم طوقان حين أحب فتاة «كفر كنا» وإن كان أكبر سناً، أو تجربة السياب، فهي تجارب يمر بها الشاب أو اليافع ولكن لها أثر كبير في نفسية الشاعر أكثر من غيره، ولذلك طفق الشابي يتبرم لهذه الشائبة فقال:

بالأمس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة
قد كان لي ما بين أحلامي الجميلة جدول
يجري بهاماء المحبة طاهراً بتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي

(1) الشابي شاعر الحب والحياة، عمر فروخ، ص 96.

أجفان فاتنة ارتتيها الحياة لشقوتي
أجفان فاتنة تراءت لي على فجر الشباب
كعروسة من غايات الشعر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السحاب وراء هاتيك الغيوم
حيث العذارى الخالدات يمسن ما بين النجوم
ثم اختفت آواه! طائفة بأجنحة المنون
نحو السماء وها أنا في الأرض تمثال الشجون

ولو لم تكن هذه الأبيات أماننا لقلنا بأن الشاعر الفتى يفكر بصوت مسموع أو يحلم أحلام يقظة يحدث نفسه عن فتاته التي عشقها وأحبها لكنها كانت محنة اضطر أهله أن يزوجه عله ينسى أو ينشغل عن حبه الذي أورثه أول حزن في حياته. ومع ذلك فقد قبل هذا الزواج وفي سن مبكرة على عادة أهل جنوب تونس الذين كانوا يرغبون بتزويج أبنائهم صغاراً، أو لنقل هكذا كان تفكير والده الشيخ ليبقى نسله على الأرض أو لعل الابن البكر يسلو آلامه وعذاباته.

ثم جاءت الرزية الثانية، قبل أن تستريح نفسه من العناء الأول بفقد أبيه، وتتحول تبعات العائلة على عاتقه ويصبح مسؤولاً عن أسرة وهو ما زال في سن مبكرة. فاعتلت صحته وانتفخ قلبه، وصار ينتقل من طبيب إلى آخر، ولكن عبثاً.

مرض الشابي

كان مرض الشابي يشكل أكبر مأساة له، ويبدو أنه كان يعلم بمرضه لكن أعراض الداء لم تظهر واضحة إلا عام 1929، فكان منذ بداية عمره عليلاً ضعيف البنية نحيلاً، لكن علته لم تظهر آثارها إلا في السنوات الست الأخيرة من حياته، تلك التي كانت ذروة إنتاجه الأدبي.

وعندما عرض عليه والده الزواج لم يجد بداً من مراجعة الطبيب واستشارته فذهب بصحبة صديقه زين العابدين السنوسي إلى الدكتور محمود المطري فوصف الطبيب له حقيقة مرضه، وحذره من عواقب الإجهاد الفكري والبدني، حيث كان الشابي يشكو من انتفاخ في قلبه، وكانت حالة الشابي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، بسبب تقادم المرض عليه، وضعف بنيته، ثم بسبب تقلب أحوال حياته. أضف إلى ذلك إهماله لنصائح الأطباء

باستثناء ترك النشاطات البدنية كالجري والقفز وتسلق الجبال وهذا ما صرح به الشابي نفسه في إحدى يومياته 1930 حين كان يعبر بعض الضواحي: «ها هنا صبية يلعبون بين الحقول، وهناك طائفة من الشباب الزيتوني والمدرسي يرتاضون في الهواء الطلق والسهل الجميل ومن لي بأن أكون مثلهم؟ ولكن آتني لي ذلك، والطبيب «يحذر» علي ذلك لأن بقلبي ضعفاً! آه! يا قلبي! أنت مبعث آلامي ومستودع أحزاني، وأنت ظلمة الأسي التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجية»⁽¹⁾. وهذا القول من الشابي يعني أنه كان على علم بمرض قلبه وكان يتألم من ذلك كثيراً. ثم وصف الدكتور محمد فريد غازي مرض الشابي فقال: «إن صدقنا أطباؤه، قلنا إن الشابي كان يألم من ضيق الأذينة القلبية أي أن دوران دمه الرئوي لم يكن كافياً... ولعل الشابي أصيب بهذا الضيق وهو صغير السن، ضاق قلبه، وضافت رئته، فلم يعد يتنفس تنفساً عادياً» وهذا أيضاً ردّ على من تخيل أن مرض الشابي كان «مرض السل» أو قال إنه كان مصدوراً. وقد شعر الشابي بآثار المرض حين وضح في يومياته ذلك بقوله: «أشعر اليوم - 1930 / 1 / 14 - بفتور في بدني، وتوَعَك في مزاجي لا أدري ماأناه»⁽²⁾.

لقد أشرف على علاج الشابي عدد من الأطباء وكان منهم الطبيب التونسي الدكتور محمود الماطري الذي ذكرناه سابقاً والطبيب الفرنسي الدكتور «كالو» ولمدة طويلة وأثبت سيرته المرضية عندهما، وكان إجماع الأطباء له العيش في مناطق معتدلة ومناطق جبلية، ولذلك وجد نفسه مضطراً إلى التنقل بين مصايف تونس ومشاتها، وقد ذكر محمد الأمين الشابي شقيق الشاعر أن أخاه لم يكن يغادر توزر بعد زواجه واشتداد أعراض مرضه إلا في الصيف لزيارة المصايف الجبلية. ونقل أيضاً صديقه زين العابدين السنوسي عن محمد الأمين الشابي أن نوبة أصابت أبا القاسم في عام 1930 فقال «كان يعتلج من ضائقة صدرية من ذات القلب فزعت لها أمه وزوجه وأخواه عندما كان أبو القاسم (بخزر)⁽³⁾ لهم بعينين لا ترجوان معونة من أحد، إلا من قلبه لو استعاد اتزانه... نوبة دامت ساعتين يقلّب في أثنائها وجهه ولا ينبس إلا بقطرات من العرق... ونحن نشرّب لنغيثه بشيء يطلبه، ولا ندري ما هو، ساعتين من هذا الفرع الجهيد تقريباً... ثم هجعت النوبة... ثم

(1) الشابي، شاعر الحب والحياة، د. عمر فروخ.

(2) مذكرات الشابي، 55.

(3) يفتح عينه ويغمضها بشكل كأنه يرى بمؤخرة عينه.

تكلم منشراً صوته انشراح من حطّ وزره، ونزع الحمل الجهيد وبادرنا للاستجابة لأمره
مغتبتين.

- أعطني ورقاً، والقلم من جيب فرملتي⁽¹⁾، فأخذ يكتب حالاً أذكرها الآن:

يا إله الوجود، هذي جراح في فؤادي تشكو إليك الدواهي⁽²⁾
قضى الشابي صيف عام 1932 في (عين دراهم) مستشفياً برفقة أخيه محمد الأمين
ويبدو أنه زار آنذاك بلدة طبرقة برغم ما كان يعانيه من آلام، وبعد عام، اصطفاف في
المشروحة إحدى ضواحي قسنطينة من أرض الجزائر، ومع حلول الخريف عاد إلى توزر
لقضاء الشتاء فيها. وقد كانت تنقلاته كثيرة فمن بلاد الجريد إلى زغوان، ومن عين دراهم
إلى المشروحة، واستمر في ذلك ثلاث سنوات يعيش بين أشجار تونس وأنهارها، «يتغنى
مع الأطيّار بحبه ويناجي النجوم بأمانيه، ويحنو على الورود والأزهار، ويضطرب لخير المياه
وحفيف الأغصان، وفي هذه الفترة أخرج الشابي أجمل قصائده الخالدة في وصف الطبيعة
والجمال، وسحر الوجود وحب الحياة»⁽³⁾.

ورغم هذا التنقل بين هذه الأشجار وتلك الأنهار، فقد ساءت حاله واشتدت آلامه
وخاصة في أواخر عام 1933، فاضطر إلى ملازمة الفراش حتى مرّ الشتاء برده، وحلّ
الربيع بزهره، فانتقل إلى (حامة توزر) وهو مكان فيه ماء حار يستشفى به المرضى، طالباً
الراحة والشفاء.

وفي شهر آب عام 1934 غادر الشابي توزر إلى العاصمة، وزار خلال إقامته في أحد
أماكن الاستجمام شرق المدينة (حمام الأنف) ثم نصحه الأطباء بالانتقال إلى (أريانا) وهي
ضاحية تقع على نحو خمس كيلومترات إلى الشمال الشرقي من العاصمة وهي موصوفة
بجفاف الهواء، ولكن حال الشابي ما زالت تزيد سوءاً، وقد وصف محمد الفاضل بن
عاشور ما آلت إليه صحة الشابي فقال: «وتداعى كيانه الجسمي بطول الاحتباس،
واستفحال الألم الباطني، فإذا جراثيم السلّ تهجم فتستقر بكلتا رثتيه، وإذا شبح الموت

(1) الفرملة: صدرة أو ثوب يلبس على القسم الأعلى من الجسم، وفي تونس يلبسونه تحت الجبة.

(2) الشابي، شاعر الحب والحياة، د. عمر فروخ.

(3) الشابي، أبو القاسم محمد كزّو.

منتصب أمامه» والحقيقة وإن قالها السيد محمد فاضل فلم أعثر على «جراثيم السل» في موضع آخر، وقد سقنا ما قاله الطبيب المعالج بأنه كان مريضاً بانتفاخ القلب وهو الأرجح. ومع أن الشابي قد أنهكه المرض وأعياه السقم، فقد استمر في إرهاق نفسه، فاشتد به الداء، ونال من العذاب والشقاء أكثر من أي وقت مضى، فأمطر البشرية بسيل جارف من تبرمه وسخطه، حتى بدأ يناشد الموت أن يريجه من هذا الشقاء وطلع علينا بقصائده: «في ظل وادي الموت»، و«زوبعة في الظلام»، و«الجنة الضائعة»، و«قال قلبي للإله»، وغيرها من القصائد، كما عزف «أغاني الرعاة» و«إرادة الحياة» و«قلب الأم»، و«أراك» بهذه القصائد وغيرها، سكب الشاعر فيها عصارة روحه، وعزف للإنسانية على أوتار قلبه المكلوم أشد الألحان وأمرّها. ولكن هل ترد هذه القصائد وتلك المعزوفات قضاءه النافذ أو قدره العاتي؟ لقد نقل بعد هذه الآلام إلى المستشفى الإيطالي بالعاصمة تونس في التاسع من أكتوبر (تشرين الأول) من عام 1934، في الساعة الرابعة من صباح يوم الاثنين لليوم الأول من رجب سنة 1353 هـ لتذوب أنفاس الشاعر الأخيرة، وتلاشى أنغام الحب والجمال، وتغيب ألحان السحر والخيال، وتصعد روح الشاعر إلى عالم البقاء والخلود، ثم ينقل جثمانه في أصيل ذلك اليوم إلى توزر، إلى مسقط رأسه ويدفن ببلدة «الشابية» في مقبرة أسلافه.

تألّفت بعد ذلك لجنة أقامت على قبر الشابي بناءً لائقاً به، أقيمت حوله روضة صغيرة، واحتفل الأدباء والشعراء حول الضريح يوم الجمعة السابع عشر من شهر أيار عام ألف وتسعمائة وستة وأربعين، وقد تسابق المحترفون بتمجيد مآثره وذكر مزاياه مقدرين شاعريته ونبوغه. هذا وقد أثبت الدكتور عمر فروخ إحصائية في بعض جوانب تكريم الشاعر بعد موته وعدّها ومنها:

- حفلة الأربعين في تونس الحاضرة في 13/11/1934.
- عدد خاص من مجلة «العالم العربي» لزين العابدين السنوسي، هو العدد الرابع الصادر في 24/12/1934، وكان خاصاً بها ألقى في حفلة الأربعين.
- حفلة للذكرى الثالثة أقامتها الرابطة القلمية في تونس.
- عدد خاص من مجلة الأفكار التونسية، 1936.
- عدد خاص من مجلة الإمام (الإسكندرية 1936).

- عدد خاص من مجلة المكشوف بيروت بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاته.
- عدد خاص من مجلة الأسبوع (تونس) خاص بالذكرى الثامنة عشرة.
- عدد خاص من مجلة الندوة (تونس) خاص بالذكرى التاسعة عشرة.
- عدد خاص من مجلة الزيتونة (تونس) خاص بالذكرى العشرين.
- عدد من المقالات في مجلة الفكر (تونس) 1956.
- إصدار الأستاذ زين العابدين السنوسي كتاباً اسمه «أبو القاسم الشابي - حياته - أدبه» بمناسبة مرور ثلث قرن على وفاته 1965.
- إحياء ذكرى ولادة الشابي 1959 بإقامة مهرجان في تونس.
- إلقاء الأستاذ الشاذلي بوجيحي 1959 محاضرة في جمعية قدماء الصداقية بعنوان «أبو القاسم الشابي والشاعرية الحق».
- محاضرة للأستاذ الشاعر مصطفى البحري في 12/12/1959 بعنوان «الشعر في شعر الشابي».
- إصدار مجلة الفكر بتونس عدداً من المقالات عن الشابي سمته «أضواء على أبي القاسم الشابي بمناسبة مرور خمسين سنة على ولادته» كانون الأول 1959.

الشيخ محمد الشابي والد أبي القاسم هو عميد أسرة الشابية في تونس، وقد كان لعائلة الشابي مكانة مرموقة، ذات مجد لامع في تاريخ تونس العلمي والسياسي، وخاصة في منطقة الجريد جنوب غرب تونس، التي اشتهر أهلها بالذكاء والفطنة والإقبال على العلوم والمعارف بشتى أنواعها.

وُلد الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي والد الشاعر نحو عام 1296هـ - 1879 ميلادي، وبعد أن أتم تحصيله العلمي المتاح في مسقط رأسه هاجر إلى مصر سنة 1901 ليكمل دراسته في الأزهر الشريف، حيث بقي فيه سبعة أعوام ينهل من علومه، وتشرب مبادئ الإصلاح على يد الإمام محمد عبده. وتأثر بأفكار الشيخ جمال الدين الأفغاني. ثم عاد إلى تونس عام 1326هـ / 1908م وانتسب إلى كلية الزيتونة لمدة سنتين حيث نال جائزة «التطويح» وأثناء دراسته في الزيتونة، تزوج الشيخ وأنجب ابنه البكر أبا القاسم أثناء دراسته في سنة 1909، تخرج بعدها من جامع الزيتونة، وعيّن قاضياً شرعياً ببلدة (سليانة) عام 1910 ثم نقل إلى (قفصة) عام 1911، ومنها نقل إلى (قابس) في بداية عام 1914 حيث بقي فيها ثلاث سنوات، ثم نقل إلى (تالة) في أيار عام 1917، بعدها نقل إلى (مجاز الباب) بقي فيها ست سنوات، بعد ذلك نقل إلى بلدة (رأس الجبل) عام 1924، ثم انتهى به المطاف إلى مدينة (زغوان) الجبلية عام 1927.

وقد عرف الشيخ بصدقه وقوة عقيدته، وغيرته على الدين، وانفعاله لما يجري حوله من أحداث في المغرب العربي وطرابلس الغرب وبلاد الريف أثناء غزو الطليان لليبيا وتعاطفه مع عبدالكريم الخطابي في شهادته. وكان يقضي وقته بين المحكمة والمسجد والمنزل وسط أهله.

نشأ أبو القاسم وسط هذه العائلة الصغيرة متنقلاً حيث تنقل والده فكان يقتبس من علوم والده وأدابه طوال هذه الرحلة العملية والتي استمرت نحو عشرين عاماً بين مشاهد الطبيعة والواحات الخضراء الجميلة، وبين عادات وتقاليد متنوعة. وهذا ما يذكره الشاعر في كتاباته، حيث أهدى أول مطبوعة له (الخيال الشعري عند العرب) إلى والده بعبارة مختصرة جميلة قال فيها: «إلى حضرة الوالد الكريم الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم

الشابي الذي رباني صغيراً وثقفتني كبيراً، وأفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود، أتقدم بهذه الصفحات التي هي أول عمل أخرجته للناس، وأنا أرجو أن أكون قد توخيت فيه صراحة الصدق وجمال الحقيقة».

وهذا الإهداء من الشاعر لوالده يبين بوضوح أثر الوالد الشيخ على ابنه الشاعر، وقد عرف عن الشيخ أنه لا يخاف في الله لومة لائم، فقد ربي ولده وعلمه وأدبه وثقفه على صراحة القول وجمال التعبير، فكان الشابي رائداً من رواد الإصلاح في التعليم، وقد تحدث عن هذا الأستاذ محمد الصالح المهدي وكان معاصراً لحركة طلاب الزيتونة وزميلاً للشاعر فقال: «... لما قام الطلبة يطالبون بالإصلاح الزيتوني، كان الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي عقدت جلستها الأولى في 5 رجب سنة 1347 هـ وهو الذي وضع أول برنامج عمل للمطالبة بالإصلاح، وما زلت أذكر الليلة الأخيرة من شهر ديسمبر (كانون الأول) عام 1928 تلك الليلة التي واصلت فيها لجنة الطلبة العمل إلى الصباح، وذلك إثر إلقاء القبض على بعض الطلبة الذين اتهموا بالتحريض على الاغتصاب، وما أبداه الشابي من الثبات في الموقف والشجاعة المتناهية.

ولما وجهت لجنة الطلبة منشوراً إلى رجال الفكر والرأي المصيب بالقطر التونسي تطلب منهم إمدادها برأيهم في الإصلاح. كان أول جواب تلقته من والد أبي القاسم الذي حرر تقريراً إضافياً احتوى على نحو عشرين صفحة، ضمنه آراءه في الإصلاح، أردفه بمكتوب لطيف يعتذر فيه عن التقصير لكثرة أشغاله حيث كان قاضياً على زغوان»⁽¹⁾.

وهذا يدل أيضاً على أن الشابي قد تأثر بحياة والده الوطنية والسياسية والأدبية عندما كان يتطوف معه بين مدن تونس أثناء عمله قاضياً، ويظهر هذا أن الشابي كان يشجع ابنه على ذلك مؤثراً فيه بشكل كبير.

وفي أواسط عام 1929 مرض الشيخ الوالد، ورجب بالعودة إلى بلده ومسقط رأسه، فرافقه ولده الذي سهر عليه في أيامه الأخيرة وفي ساعات احتضاره، وقد شاهد والده وهو يتألم آلامه الأخيرة التي عصرت قلب الشاعر وخياله ودموعه، فقد تحدث عن

(1) أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره عن مجلة الأفكار التونسية 1/12/1936.

هذه المشاهد بألم دام وحسرة، كما تحدث عن هذه اللحظات حتى بعد موت والده، وقد وضح ذلك في رسالة أرسلها لصديقه الأستاذ محمد الخليوي مليئة باللوعة والتفجع فقال:

أخي الفاضل:

تحية وشكراً

وبعد، فإنني أود أن أحدثك وأناجيك، وأصعب لأن أرافقك وأماشيك في تلك السبل التي جال فيها يراعك، ولكن بماذا؟ أهبذا القلب الذي كسرته صخور الحياة؟ أم بهذه النفس التي مزقتها أعاصير الوجود؟ أم بهذا الفكر الواهن المخبول؟ أم بهذا الوجدان التائه في شعاب الغد الغامض المريب؟

والرسالة طويلة تعبر عن أوجاع وآلام الشاعر، فقد بدأها بالتقدير والاحترام ثم بعدد من الأسئلة فيها وجع وأعاصير وخمول وتوقع للغد ثم ينتقل إلى الآهات وأهوال الحياة وإلى القدر الذي يعبت بالبشر ثم إلى ضيق الشاعر بالحياة محالاً أن يبين لصاحبه مقدار ألمه وهمومه ثم يشرح حالة أبيه الذي علا الشحوب وجهه بسبب المرض بعد أن عهده قوياً متماسكاً وهو الآن ضعيف خائر القوى أمام أنات القهر، متمنياً على صديقه أن يدعو الله وأن يصلي له بأن لا يفجعه بوالده وان يشفيه من أسقامه بروح مؤمنة بالله وبقدره، وفي نهاية الرسالة الطويلة والتي بإمكان القارئ أن يعود إليها في كتاب المحقق الأستاذ أبو القاسم محمد كزّو (الشابي حياته وشعره) ص 66-70 عاد الشاعر يغني أغنية الحيرة والحنين فقال:

يا بنبي أمي ترى أين الصباح	قد تولى العمر والفجر بعيد
وطغى الوادي بمشبوب النواح	وانقضت أنشودة الفصل السعيد
أين نايمي هل ترامته الرياح	أين غابي أين محراب السجود
يا بنات الليل، قد غاض الصداح	منذ طاشت نشوة العيش الحميد
يا بنبي أمي ترى أين الصباح	وراء البحر أم خلف الوجود
يا بنبي أمي ترى أين الصباح	

وإن بدا الشاعر في رسالته أسيفاً ضعيفاً، إلا أن بحثه عن الصباح فيه أمل، ومع أنه سوف يبقى ناثراً في الحقول الجرداء العارية بذور الأسى إلا أنه ينتظر الصباح ليرى تفتح الأكمام عن الورود الجميلة، ويسمع تغريد البلبل وراء الزهور وإن كانت

إن الدهور البـواكي غنيمة عن دمـوعـي

فراحة الليل مليئة بالدموع، وكان الشاعر يتمنى لو يسمع صديقه أغاني المسرة بدلاً من الألحان المؤلمة ولكن ماذا يصنع أمام المريض الذي لا يخرج منه إلا الأين والجرح لا يرشح بغير الدماء، ويظهر الشاعر في نهاية رسالته شاكياً متبرماً بانساً متشائماً حين يقول: «أما الغاب وأسراره والجبل وأصدائه والشحورر وألحانه العذبة الحبيبة، فإن عهدي بها بعيد، وأن تلك السعادة الإلهية الطاهرة وتلك المباحج والمناظر والأغاني لا تنعم بها إلا الأبصار الطافحة بالأشعة المكحولة بالبسمات، أما الأجفان التي قرحها الدمع وأذواها الألم فإنها قصية عن تلك المناظر، منفية في سجون الحياة».

فالتضرعات ترد الأقدار، ولا ترحم الصغار ولا توقف كلوم الكبار، فقد انتقلت روح الشيخ الوالد إلى السماء في 8/9/1929 وتجرع الشاعر غصص المتاعب، ولم يكن بعد قد دخل تجربة الحياة، وهذا الذي زاد محنة الشاعر وضاعف من عذابه، وهذا ما جعل الشاعر يتخيل دائماً روح والده حائمة حوله كل ليلة، وفي ليلة 12/1/1930 خلا إلى نفسه ليبين كم هي المصيبة كبيرة وآثارها عليه واضحة، فقد حضر طيف أبيه فسطر يقول: «ليس لدي ما أكتبه اليوم عن نهاري هذا، ولعلي خير لي أن أذهب إلى فراشي وأنام لأنسى ما في عالم الأحلام... وسأرى أبي. آه! نعم ذلك الأب الذي قد شق له الناس قبره وسووا التراب عليه وبقيت بعده في الحياة ألم وألذ وأسرُّ وأحزن! أجل سأراه كما قد رأيت في ليالي الخالية حينما ينظف السراج ويشمل الغرفة ظلام الدجى...».

وإنني وأنا أكتب هذه العبارات وغيرها من الشر، أرى الشاعر يرثي والده بل يندبه ويتحسر ويتألم، فهل رثاه شعراً؟

يقول بعض النقاد إنهم لم يجدوا رثاءً في شعر الشابي، ولم يرث أحداً، لأنه وصف في ذكرياته حبه الميت، وهي كثيرة، غير أنني مع الأستاذ أبي القاسم محمد كرو، فقد تبين أنه رثي والده بقصيدة واحدة بعنوان «يا موت» فور وفاة والده ودفنه، وإن كانت القصيدة متواضعة في فنها وشعورها، وهي أقرب إلى النواح وقد مهد لها بقوله: «هي صرخة من صرخات نفسي المملوءة بالأحزان والذكريات، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة، قلتها في أيام الأسى التي نكبتني بوفاة الوالد رحمه الله».

والآن نقتطف منها بعض الأبيات، لنثبتها كاملة مع أشعاره.

يا موت! قد مزقت صدري وقصمت بالأرزاء ظهري
ورميتني من حالي، وسخرت مني أي سُخر
فلبثت مرضوض الفؤاد، أجرُّ أجنحتي بذعر...
وقسوت إذ أبقيتني في الكبون أذرعُ كلِّ وعر
وفجعنتني فيمن أحب، ومن إليه أبث سري
وأعدده فجري الجميل، إذا ادلهم عليّ دهري
وأعدده وردي ومزماري وكاساتي وخمري
وأعدده غايي ومحرابي وأغنيتي وفجري...

عجيب ما قاله البعض: إن الشاعر لم يرث أحداً، أليس هذا بوح للنفس وهو يخاطب الموت، صحيح أن القصيدة نذب ونوح وصرخة، أوليس كل هذا الألم فاجعة في الرثاء، ومن كان يعني بأبياته، فالحزن يزداد تدرجاً مع القصيدة باندفاع الأسى في مشهد كبير أفقرت فيه عرصات صدره، ومشى مطرقاً لثقل الأفكار، ومثلت نفسه الدنيا وينتظر هو نفسه دوره، وها هو يجالذ الحياة ليضمن لأسرته عيشاً هادئاً في حياة الكفاف، لأنه لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية وهذا ما عناه البعض حين قالوا: «كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه».

والشاعر مثل غيره من البشر، فربما تزاممت الهموم، لكنه يعيش في عالم زاخر بالألحان والأضواء والمرح والسرور، وها هو يقول:

وما كنت أحسب بعد موتك يا أبي	ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة وأحتسي	من كأسها التوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق	للحب والأفراح والألحان
ولكل ما في الكون من صور المنى	وغرائب الأهواء والأشجان
فإذا أنا طفل الحياة المنتشي	شوقاً إلى الأضواء والألوان
إن ابن آدم في قرارة نفسه	عبد الحياة الصادق الإيمان

أثر الأدب المهجري في شعر الشابي

أعجب الشابي بشعراء المهجر أمثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي، وقد ظهر أثر هؤلاء المهجريين في تفكير الشابي وأدبه، منذ دراسته الأولى، فقد أكثر من قراءة أدبهم وحفظ أشعارهم وربما كان إعجابه نابع من ترسم صور وجدانية وفكرية لهذه الآداب في حداثة سنّه، وكأنه طبع على ذلك وهو دون الخامسة عشرة من عمره، فتزاحمت العمليات الذهنية عنده، ولذلك نراه يجيد في تصوير ألوان رائعة من الخيالات والأحلام، فقلدهم في آدابهم وفي سلوكياتهم وربما فاق الشابي على رأي أبي القاسم محمد كرو من تأثر بهم حيث يقول: «غير أن الشابي كان أعمق من جبران واصدق تصويراً»⁽¹⁾.

ومن المعروف أن الأدب المهجري له ميزات كثيرة، ومنها أنه يمتاز بتبرمه الناعم وثورته الجارحة، وصوفيته الحاملة، وقد يصل إلى مثالية مجنحة في الحب والحياة والآمال، وهذه الأفكار ربما قد جذبت نفس الشابي في بداياته أو كما يسميها الأستاذ «محمد كرو» في طوره الأول وهو يرى حال تونس حين كانت ترزح تحت وطأة الفقر والظلم. وليعيش من أجل بلده، راح يبحث شعبه على الرقي والنهوض، وهنا نرى الشابي يلجأ إلى الطبيعة وسحرها حيث أسمعته أغانيها الحلوة، وكشفت له عن مواطن الجمال، وأسكرته برحيق الأزهار، فهام بحب الحياة، فرتل أغانيها بوجدانياته الساحرة وردد أنغامها، فجاءت أشعاره أناشيد ساحرة خالدة.

غير أننا نجد في الوقت نفسه في شعره السياسي متشائماً مع آلامه وكانت كما وصف أبو القاسم محمد كرو «إلا آلام شعب كامل وجراح أمة بأسرها» كما ذهب إلى ذلك أيضاً محسن بن حميدة «الشاعر الذي كان يعيش مأساة شعبه ويحاول أن يبعث في شعبه روح الثورة على الموت والإيمان الصادق بانتصار الحياة» أما الشاذلي بو يحيى فكان تقديره للموقف «شاعر تونس في فترة من حياتها، هي تلك الفترة التي عاشها، فكان صوت تونس في أنينها وندائها وفخرها، فهو شاعرها بلا منازع».

(1) الشابي، عمر فروخ، ص 130.

وعلى كل حال فإن الشابي، صدق مع نفسه حين وصف حال الشعب في فترة حياته القصيرة، ولا ندري لو طال له الحياة ماذا سيكون بعدها ولذلك أسمعنا «إرادة الحياة» وانطلقت معها أهازيج تثور على قيود الأسر متأهبة لخوض معركة حاسمة مع تلك القيود الظالمة. فكانت أشعاره تتقد وتثير مسالك الحياة إلى الثائرين والناقمين والطامعين لبناء مجد فتي وأدب خالد.

ونجد إلى جانب هذا أيضاً عوامل أخرى مؤثرة في أدب الشابي، كالأدب المترجم عن الآداب الغربية أو تأثره بالعقاد أو طه حسين أو تأثره بالأدب العربي القديم. وقد أعجب بـ «جوتة» الألماني و«لامارتين» الفرنسي وهذا ما حمله على الغلو في إنكار «الخيال الشعري عند العرب»، وهذا أيضاً ربما تأتي من تأثره بالدكتور طه حسين في التفكير والأسلوب. مما يقودنا إلى التعرف على ما جاء في «الخيال الشعري عند العرب».

الخيال الشعري عند العرب

صدر أبو القاسم كتابه بإهداء لوالده الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي معترفاً له بجميل التربية صغيراً وتثقيفه له كبيراً، وإفهامه معاني الرحمة والحنان وتعليمه الحق في هذا العالم، متوخياً في كتابه صراحة الصدق وجمال الحقيقة.

وتلا هذا الإهداء كلمة المؤلف وهو نفسه حيث أنه اعتبرها مسامرة ألقاها في قاعة «الخلدونية» في العشرين من شعبان 1348 هـ (1929 م) وقدمها للطباعة دون تنقيح، ثم جاءت مقدمة الأستاذ زين العابدين السنوسي وهو صديق الشاعر وقد تحدث فيها عن نهضة أدبية في أواخر القرن التاسع عشر، وجاءت هذه المقدمة في نحو سبع صفحات تحدث فيها عن الكتاب ثم عالج قضية النقاد الذين تعرضوا إلى الأدب القديم وأخيراً تحدث عن المحاضرة التي ألقاها أبو القاسم والتي أطلق عليها «المسامرة لأول مرة» والتي ظهرت فيها جرأة أبي القاسم الذي كان أول خطيب يُسمع تونس مثل هذه اللهجة - الجرأة - على منبر عمومي تحضره طبقات مختلفة من الثقافات والمدارك المتباينة وصارح الحضور بنقد الأدب العربي.

وكان الفصل الأول من الكتاب عن الخيال. نشأته في الفكر البشري وانقسامه، وقد ذكر صاحب الكتاب أنه تلبية لطلب من جمعية قدماء الصادقية، وقد صادف من نفسه هوى نازعته إليه، ومما جاء فيه رأيه في الخيال فتحدث عن ثلاث نقاط:

أولها: كان الخيال للإنسان ضرورياً كالنور والهواء والماء والسماء، ضروري لروح الإنسان ولقلبه ولعقله ولشعوره وان هذا الخيال نشأ في النفس بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان وبدافع الطبع والغريزة وما دام هو كذلك فهو حي خالد.

أما الثانية: تحدث فيها عن الخيال عند الإنسان الأول واستعمالاته، بعيداً عن المجاز. وضرب لذلك أمثلة كقولهم: «ماتت الريح» أو «أقبل الليل» ووضح كلامه عن هذه المسألة بأن الإنسان الأول كان يعتقد أن الريح ماتت فعلاً وأن الليل قد أقبل حقاً بألف قدم وألف جناح وهذا ما جاء في أساطير الأولين بأنهم كانوا يؤمنون بألوهية الريح والليل.

أما النقطة الثالثة: فقد قسم فيها الخيال إلى قسمين:

قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعايير الحياة، وقسم اتخذها لإظهار ما في نفسه من معنى، ومن هذا القسم تولد قسم آخر ولدته الحضارة في النفوس وارتقاء الإنسان وهذا ما سماه الخيال اللفظي الذي يراد به تجميل العبارة. لكن القسم الأول في رأيه هو الأقدم نشوءاً في النفس.

وقد وضع رأيه بأن الإنسان شاعر بطبعه لأنه يحتاج عند المنظر الساحر والمشهد الخلاب، وإن كان ذلك يتفاوت بين الناس بتفاوت إدراك الجمال والشعور به. وقدم أمثلة ببعض الكلمات على غريزة الإنسان في ذلك لتكون دليلاً على حديثه، لأن الخيال في نظره يعتبر حقيقة في بدايته ثم تطورت النظرة إليه بتطور النظرة إلى الحياة.

ثم أصبح الإنسان بحاجة إليه لأنه وإن احتكم إلى العقل فإنه يحتكم إلى الشعور وسيظل كذلك لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، فهو النهر الجميل المتدفق في صدر الإنسانية منذ القدم. ومن هذا النهر تتولد خرائد الفكر وبنات الخيال كما نشأت «فينيس» من أمواج البحار وعلى ضفافيه يرتلن للبشر ترانيم الحياة.

وكذلك فإن اللغة بحاجة إليه مهما قويت، لأنها لن تستطيع النهوض دون الخيال الذي يرهقها به الإنسان، وأنه يمد هذه اللغة بالقوة التي ما كانت تجدها لولاه. ومن وراء الخيال نلمح فلسفة الفكر وهدير الحياة، وهو الذي تندمج فيه الفلسفة بالشعر ويزدوج فيه الفكر بالخيال، ومنه ألفت فيه كتب البلاغة على اختلافها وهذا ما سماه (بالخيال الفني) الذي تنطبع فيه النظرة الفنية التي يلقيها الإنسان على العالم الكبير، وكذلك هناك ما سماه (الخيال الشعري) لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور. ثم هناك ما سماه (الخيال الصناعي) لأنه ضرب من الصناعات اللفظية وهذا ما سماه (الخيال المجازي).

الفصل الثاني وعنوانه: الخيال الشعري والأساطير العربية.

تحدث في بداية هذا الفصل عن تاريخ الخيال الشعري في الأساطير العربية وأوضح أن هذا التاريخ لم يحفظ إلا شيئاً يسيراً من الأساطير العربية لا يستطيع الباحث أن يطمئن إليه بمفرده، ولم يجمع في كتاب خاص كما هو في أساطير الأمم الأخرى، وهو عبارة عن نبذ متفرقة بعضه متصل بعقائد العرب قبل الإسلام وبعضه متصل بعاداتهم وبعضه متصل بتاريخهم القديم. وبين أن الرواة لا يحملون وزر هذا. وأن العرب لم يقيموا لهذا

الفن وزناً، وقد تغنى به شعراء الجاهلية في أشعارهم كما تغنى به شعراء اليونان والرومان قبل مجيء المسيحية.

وقد قسم الشابي هذا التاريخ إلى قسمين:

القسم الأول: الأساطير الدينية، ويندرج تحته ما كان من عادات العرب وهي عقائد متحجرة بمفعول الزمن، وهو ما اقتصر الحديث عنه، ذلك أنه يتحرى الخيال الذي يتعرف به على حقائق الكون الكبرى، ولأنه يتحرى معرفة حظها من الخيال الشعري، وهذا غير متوفر في الأساطير التاريخية الذي يندرج تحت القسم الثاني الذي يرتبط بالتاريخ العربي القديم. ولذلك لم يتعرض لأخبار عمرو بن عددي وشق وسطيح وطسم وجديس، ولكنه بحث في الأساطير الدينية وما مت إليها بسبب متين.

أما الأساطير الدينية عند العرب، فقد قدم رأيه فيه بأن لها وضاعة الفن وإشراق الحياة، فمن المحال أن يجد الباحث فيها ما يقع عليه في أساطير اليونان والرومان من خصب الخيال الجميل ومن تلك العذوبة الشعرية التي تنفجر منها الفلسفة الغضة الناعمة، فالآلهة العربية لا تنطوي على شيء من الفكر والخيال أو تمثل عاطفة من عواطف الإنسان، وإنما هي أنصاب بسيطة ساذجة شبيهة بلعب الصبية وعرائس الأطفال، وهي لا ترمز لمعنى من المعاني السامية وإنما هو أقرب إلى الوهم.

فقد عبد العرب أرباباً متفرقة، وآلهة كثيرة، ولم يعبدوها بعد تفكير عميق وإنما عبدوها لأحد أمرين: إما تأليه الأجداد أو تقليد غيرهم من الأمم وبعبارة علمية أنهم عبدوها لا لتشخيص ما فعلوا وإنما كانت عبادة الأموات على الأكثر ولذلك خلت أساطيرهم من الخيال الشعري باستثناء أسطورة النجوم فإن عليها شيئاً من وضاعة الشعر ونضارة الخيال.

عبد العرب أساف وناثلة واللات والعزى ومناة ويغوث ويعوق وسواع ونصرا، وكانت لهم فيها نظرات خاصة ومختلفة وقد نصبوها حول الكعبة لقوم من صلحائهم بعد موتهم على سبيل الذكرى فانقلبت الذكرى إلى عبادة بطول الزمن.

كما عبدوا الشمس فقالوا عبد شمس وعبدوا المشتري فقالوا عبد المشتري وسموها آلهة وزعموا أنها تهب الإنسان جمالاً وحسناً، وأنهم أخذوها عن الآشوريين كما أخذوا

عبادة ثالب وأضر وهبتون وعشتر. وكان إذا أنغر صبيتهم أخذ سنه بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس قائلاً يا شمس بدليني بسن أحسن ولن تجر في ظلمها آياتك. قال طرفة:
أسفته إياة الشمس إلا لثاته أسفاً ولم تكدم عليه بأثمـد
وقال غيره:

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الأشـر
ثم تحدث الشابي عن أساطير العرب التي آمنوا بصحتها، مثل: الغول وهي حيوان خرافي يزعمون أنه كربه المنظر شنيع الخلقة يضل الناس ويلهو بالجهاجم. وقد ادعى أباطهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها، وقد أولع تأبط شراً بوصفها في شعره فقال:

وإني قد لقيت الغول تهوي يسهب كالصحيفة صحـصـحان
فقلت لها: كلانا نضوآين أخو سفر فخلي لي مكاني
فشددت شدة نحوي فأهوى لها كف بمصقول يمانـي
فاضربها بلا دهش فخرت صريعاً للـيـدين وللجـران
ومن أساطيرهم أيضاً: الصدى أو الهامة وهي طائر خرافي زعموا أنه يخرج من رأس القتيل الذي طلّ دمه ويقف على قبره هاتفاً: «اسقوني فيني صدية» وما يزال حتى يؤخذ بثأر القتيل فيختفي هذا الطائر فقال الشاعر:

له هامة تدعو إذا الليل جنها بني عامر هل للهلاي نائر
وكان منها شياطين الشعراء، حيث كان الاعتقاد أن لكل شاعر شيطانه الذي يوحى له بالشعر، فكان صاحب امرئ القيس لافظ بن لاحظ، وصاحب عبيد بن الأبرص هبيد ابن الصلادم، وصاحب الأعشى مسحل السكران بن جندل... وهكذا يعدد بعض الشعراء ويعدد معهم أصحابهم - شياطينهم - .

ومنها أيضاً أسطورة النجوم، وهم على خلاف فيها، ومؤداها أن «سهيلاً» انحدر إلى ناحية اليمن بعد أن خاض نهر المجردة فتبعته إحدى أختيه فسميت «العبور» وبقيت الأخرى مكانها فبكت لفراق أختها حتى غمضت فسميت «غميضاء» ومنهم من فسّر الأمر على نحو آخر فقال: بأن سهيلاً، كان فارساً جميلاً ساحراً، فخانه الحظ فسقط صريعاً

وراء المجرة فراع منظر الدماء أخته، فعبرت إليه إحداهما، وظلت الأخرى واجمة فسميت الأولى «عبوراً» والثاني «غميضاً».

ثم أكمل حديثه هذا فجاء على أساطير الأمم الأخرى كما حددها الشابي فكانت على خلاف أساطير العرب، لأنها كانت مشبعة بالروح الشعرية الجميلة زاخرة بفلسفة الحياة الفنية الراقصة في ظل الخيال.

وقد أخذ اليونانيون أساطيرهم عن الآشوريين مثل العرب، ولكنهم طبعوها بطابع حياتهم فكانت رشيقة ساحرة وضرب الشابي أمثلة فتحدث عن «عشتروت» التي أخذها العرب فعاملوها معاملة أنصابهم التي لا ترمز إلى فكر ولا تمثل عاطفة، في حين أن اليونان اتخذوا لها اسماً آخر هو: «أفروديت» وزعموا أنها خلقت من أمواج البحار، واتخذوا لها ابناً هو «إيروس» وتخيلوا أن له جناحين ذهبين، وأنه يحمل دائماً سهاماً حادة ومشاعل تلتهب، فكان إلهاً للحب عندهم.

وراح يسرد في محاضراته عن آلهة اليونان وأساطيرهم بما يتعاقب فيها الفكر والجمال ويصف أفروديت وطفلها، وقدم تساؤلات كثيرة حتى وصل إلى أن كل آلهة رمز لفكرة أو عاطفة أو قوة من قوات الوجود، فجعلوا للحب إلهاً وللجمال آلهة كما جعلوا للحكمة آلهة وللشعر والموسيقى إلهاً ولمظاهر الكون أرواحاً وحياتة تحس وتشعر، بمعنى أنهم ينظرون إلى الوجود من خلال أساطيرهم نظرة فنية تحس بتيار الحياة. ومما اعتقدوه أن الصدى جنية من بنات الجبال والأودية، فمرت بها يوماً «هيرا» زوجة «زفس» التي كانت ذاهبة لتفاجئ زوجها مع بعض عشيقاته، فاستهواها صوتها وفاتت عليها فرصة المفاجأة، فغضبت وسلبتها قوة الكلام إلا إعادة ما تسمع. وهكذا كانت أسطورة اليونان عن الصدى، أما العرب، فإنهم لم يألفوا ذلك رغم أنهم سمو الصدى «ابنة الجبل».

أما أساطير الإسكانيين (سكان جزيرة سيلاند الأقدمون) فكانت الحياة عندهم شجرة راسخة تضرب بعروقها في مملكة الموت وتنتشر فروعها في آفاق السماء، وعند أصلها في مملكة الموت يجلس الأمس واليوم والغد، يروون جذورها من البئر المقدسة، فتورق دائماً وتزهر ثم تثمر، ثم يهوي ما عليها إلى مملكة الموت عندما يجف ما عليها، حيث يجلس الأمس واليوم والغد. فهل نظم الشعراء وكتب الكاتبون أعمق خيالاً وأصدق تصويراً للحياة من هذه الأسطورة.

الفصل الثالث: الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي:

علق الشابي في هذا الفصل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: أثر الطبيعة في الإنسان والأمة، وقد قدم عدة تساؤلات عن الخروج في أيام الربيع إلى بعض ضواحي المدينة حيث البرية والغابات الجميلة الغناء، وقد تنقل البلبل الأنيق بين أغصان الأشجار بأغاريد الشجيرة، وكذلك القبرة المتخطرة بين الأشجار ومسارب الحقول بأناشيدها العذبة، أو تلك الفراشة وهي ترفرف في ضحوة النهار حول الأعشاب البليلة أو تلك النحلة المهاجرة بين الزهور السكرى، أو تلك النسيات الوادعة في ظلام الغاب.

كما تساءل عن الذي حرك هذه كلها، ويجيب نفسه، أليست هي الروح الإلهي الذي يبصره الإنسان في السماء والماء والنور والفضاء؟ أليس هو الجمال الخالد الذي أحس به أهل بابل في عثروت أو ما شعر به اليونان فقدسوه في أفروديت، واستفز قلوب الرومانيين في فينيس؟

وأكد بأن الجمال هو الذي نبه الطائر وأيقظ الفراش واستخف النحلة وهو أيضاً نفسه الذي أنطق الشعراء بأناشيدهم الخالدة وهو أيضاً الذي مهد للإنسانية هذا السبيل ولولاه لاتخذت الإنسانية سبيلاً آخر حرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول.

هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي توزن به نفسيات الأمم وشاعريات الشعوب، ليعلم ما هي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد وأن الوسط الطبيعي هو الذي يؤدي إلى شاعرية خصبة في الأمة، لأن الجو العبوس المتجهم لا ينتج إلا الكثر اليابس. وأن للوسط الطبيعي أثره في تكوين نفسيات الأمم، وطبعها على غرارها.

كما بين أن الأمة العربية عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال، لا يعترض النظر إلا إلى الموامي المقفرة الموحشة والصحاري الضامية المترامية، ولذلك جاءت شاعريتها قريبة من هذه الأرض، ومع ذلك فقد عرفت هذه الأرض أدواراً أربعة هي: الجاهلي والأموي والعباسي والأندلسي، مما أدى إلى تغير في الطبيعة وبالتالي شاعرية الأمة الدارجة عليها.

المحور الثاني: ويتمثل هذا المحور في أدوار الأدب العربي التي قررها الشابي.

1- الدور الجاهلي والدور الأموي: يبين الشابي بأن هذين الدورين كانا خاليين أو كالخاليين من هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتيح الوجود إلا القليل منه، الذي أشعل خيالاً وحساً لأنه أتى به ماء السيل وفيض الكلام المستطرد وسوق الحديث وإلا لما ذكر. ثم قدم أمثلة على ذلك فقال:

الأعشى استعار الطبيعة لوصف محبوبته في قوله:

ما روضة من رياض الحسن معشبة خضراء، جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزراً من عميم النبت مكتهل⁽¹⁾
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل
أو كثر عزة حين قال:

فما روضة، زهراء طيبة الثرى يمخ الندى جثجاها وعرارها⁽²⁾
بأطيب من أردان عزة موهناً إذا أوقدت بالندل الرطب نارها
كما أورد أبياتاً لعنترة في ملاهي الربيع في قوله:

ولقد مررت بدار عبلة بعدما لعب الريح بربعها المتوسم
جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً بكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
أو قول ابن أبي ربيعة:

قالت لجارتها عشاء إذ رأت نزه المكان وغيبة الأعداء
في روضة يممناها مولية ميثاء راوية بعيد سماء⁽³⁾
في ظل دانية الغصون وريقة نبتت بأبطح طيب الثراء

ومع ذلك فهذه الصور وغيرها من صور البرق والرعد والسحاب لا نحس فيه روح الشاعر الملتذذة المعجبة وإنما هي صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضاً أميناً. وقد فعل مثل هذا امرؤ القيس في قوله:

(1) يريد بالكوكب هنا: النبات الطويل، والمؤزر: الملف كامل الطول.

(2) الجثجات والعرار: نباتان بريان مهران.

(3) المولية: المطورة غب المطر، والميثاء اللينة غير الرملية.

ديمة هطلاء فيها وطف طبقت الأرض تحمري وتدر
والأبيات طويلة ومثل ذلك في قول أوس بن حجر أو كما يقول ملحمة الجرمي:

أرقت وطال الليل للبارق الومض حيا سرى مجتاب أرض إلى أرض
فالطبيعة مع هؤلاء ليست موضوعاً للشغف والخشوع بل مادة للقصّ، وما يُرى
يُنقل من دون أن يخلع عليه الشاعر حلّة من شعوره، والسبب أن أرضهم المجدبة لم تحرك
في قلوبهم وشائج الحسّ أو تفتحها لتذوّق ألوان الجمال.

هذا ما قاله الشابي عن هذين الدورين، ولكن الحقيقة في رأيي غير ذلك وأنا أقدر
أدب الشاعر والأديب، فالشاعر في هذين العصرين قد تملكه شعور الحياة والطبيعة،
فجادت قرائحهم بهذه الأشعار، وإلا فكيف كان وصفهم إلا إذا كانوا يرونه بعيونهم؟
وتتجلى لهم في العقول وتأخذهم القلوب؟ ونحن نرى أنهم يصفون حالة واقعة بينهم،
وقد جاء الشابي بالرد على هذين الدورين من أشعارهم وأثبتها في محاضراته.

2- الدور العباسي: اصطبغت الحياة الإسلامية بصبغة قوية مشتركة من حضارات
عديدة متباينة، تكونت منها حضارة جديدة مهلهلة ناعمة بتجمع الفرس والروم
والمسلمين، فكان لذلك أثر غير يسير على النزعة العربية الجافية. ثم سكن نبغاء العرب
العواصم فعاشوا في أوساط جميلة غير تلك الصحارى. فنظموا الشعر بأمزجة غير الأمزجة
العربية وأذواق غريبة. وفي هذا الوسط نشأ أبو تمام الذي يقول في بعض قصائده:

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنها هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر
مصفرة محمرة فكأنها عصب تيمن في الوغى وتمضر
في فاقع غض الشباب كأنه درر تشقق قبل ثم ترعفر
أو ساطع في حمرة فكأنها يدنو إليه في الهواء معصفر

ونجد البحترى يقول: والقول أيضاً للشابي في محاضراته:

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غلس الدجى أوائل ورد كُنَّ بالأمس نوما

يفتقها ببرد الندى فكأنه
ومن شجر رد الربيع لباسه
ينث حديثاً كان قبل مکتها
عليه كما نشرت وشياً منمنما
ومثل ذلك قول ابن الرومي:

إذا شئت حيتني بساتين جنة
على سوقها في كل حين تنفس
ويكمل الشابي سرد الأبيات وهي كثيرة يعاين فيها جزئيات الجمال في النور
والضياء والنسيم، كما أورد من أشعار ابن الرومي روائع ولوحات تنهض من خلالها
الطبيعة بكل إنسانٍ ساحر.

هذا ما أورده الشابي في محاضراته عن العصر العباسي، والواقع أن الأبيات التي
أوردها ترد عليه، فقد عرفوا البساتين والرياض والأزهار وعيون النور والندى وغناء
الطير وريح الصبا وانعكاس الشمس على الورد، كما عرفوا فضل الربيع وترقق المياه
بعد فصل الشتاء، أليس هذا كله كافياً أن يكون من إنتاج الخيال الشعري والطبيعة في
الأدب العربي. نحن نعرف أن الشابي عاش في تونس ولم ينتقل في دمشق وضواحيها أو
بغداد وما حولها، فكان يرى بيئة تونس ويتحفنا بخياله في طبيعة تونس، لكن شعراء
المشرق أيضاً أحسوا بالطبيعة من حولهم، فجادت قرائحهم بما شاهدوه وما أحسوه
ليصوروا بخيالهم الطبيعة التي عاشوا فيها. والشعراء في هذا العصر هم امتداد للشعراء
الذين سبقوهم وما جادت به قرائحهم.

3- الدور الأندلسي: تفسى هذا الأدب الطبيعي في البلاد الأندلسية تفسياً عظيماً
حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر.

غير أن لي - القول للشابي - في الأدب الأندلسي وبالأخص في الطبيعي منه رأياً
جديداً ربما لا توافقونني عليه ولكنني قائله لكم:

(لكن الأدب العباسي في الطبيعة أبعد نظراً وأعمق خيالاً وأدق شعوراً منه في
الأدب الأندلسي، رغمًا عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من الأدب العباسي
وغيره، ورغمًا عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوباً وأدق تصويراً، ورغمًا
عن أن البلاد الأندلسية أشد جمالاً وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنبت ذلك
الأدب العباسي الجميل).

والسبب انغماس النفوس في الأندلس بحمأة الشهوات انغماساً ألمات بها العواطف الهائجة، فجاء الشعر الأندلسي رقيقاً، لكنه قليل الحظ من عمق الشعور.

وهنا يعود الشابي إلى قول أبي تمام والبحري في شعورهم الصادق الذي يحس بروح الحياة السارية في عروق الكون. ويقرر في أبياتها عمق الخيال ودقة الإحساس ما لم يظفر بمثله في الأدب الأندلسي ثم يقول:

وقد صدمتني هاته الحقيقة لأول وهلة.. كادت تززع إيماني بصحة تلك النظرية التي قلتها من قبل: نظرية (الوسط الطبيعي) ثم قدم أمثلة على الأدب الأندلسي حيث يقول ابن خفاجة:

الله نهر سأل في بطحاء أشهى وروداً من لى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه مجر سماء
قدرق حتى ظن قرطاً مفرغاً من فضة في برودة خضراء
والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء
ويقول:

وصقيلة الأنوار تلوي عطفها ريح تلف فروعها معطار
عاطى بها الصهباء أحوى أحور سحاب أذبال الصبا سحر
والنور، عقد والغصون سواف والجزع زند والخليج سوار
بحديقة ظل اللمى ظلاً بها وتطلعت شنبها الأنوار

«على هذا النحو كل ما قاله ابن خفاجة في جمال الطبيعة، براعة في الوصف وجمال في الأسلوب، دون أن تجد خيلاً قوياً أو شعوراً دقيقاً، وإن أعجب فلطائفه تسمى ابن خفاجة شعر الطبيعة...» ويرى الشابي أن في نفسه ميلاً إلى الطبيعة شغلته اللذة واللهو عن الإفصاح عنه وأن في قلبه شغفاً بالوجود كفكفه المجون.

وابن زيدون، ذكر الحبيبة وهو في مدينة الزهراء وسط الرياض فاستعاد بالذكرى أيام وصاله المنصرفه، هذا وقد تمثل الشابي بأبيات ابن زيدون حين يقول:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم العليل في أصائله كأنها رق لي فاعتل إشفاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم كما حللت عن اللبات أطواقا
وشاعرة أندلسية وهي الشاعرة حمدة بنت زياد⁽¹⁾ في وإد ترى حذب الدوح كحنو
المرضعات على الفطيم فتقول:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحننا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على خمأ زلالاً ألد من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب الدر النظيم

ثم ابن سهل الأشبيلي ينتهب في الوسط الطبيعي لحظته العابرة مقبلاً على الدنيا قبل
الرحيل الأخير، وقد استشهد الشابي بأبيات منها:

اغنم زمان الوصل قبل الذهاب
فالروض قد وافاه دمع السحاب
وقد بدا في الروض سر عجيب

ورد ونسرين وزهر الأقاح
كالمسك ففاح
والطير شاد باختلاف النواح

وعلى هذه السنّة التي رأيتموها يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة
وتعابير عذبة ناصعة ووصف دقيق جميل، لكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس
عميق⁽²⁾.

المحور الثالث: وهذا محور مقارنة بين العرب والفرنجة لتوضيح الفرق بين الرنة
العربية والرنة الغربية العميقة الداوية. وقد أثبت الشابي على مسامع الحاضرين كلمتين
الأولى لـ «لامارتين» الشاعر الفرنسي والثانية لـ «جيتي» الشاعر الألماني ليبين ما يريد
توضيحه عما يجب أن يكون عليه وصف الطبيعة والخيال الشعري الحقيقي.

(1) يوسف الطريفي، شعراء المغرب والأندلس، ص 339، وأثبت هذا لأن الشابي لم يذكر اسمها.
(2) وضعت هذا موجزاً عن هذه الأدوار، وبإمكان الباحث العودة إلى كتاب الخيال الشعري عند
العرب لأبي القاسم الشابي ليرى الصورة كاملة كما وضعها الشابي.

يقول لامرتين: «إن الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهـر مصوريه وأقدر شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفراف الهيكل الدارس، وفي أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشراع وأنين الأمواج وغناء الصيادين، وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينثر ورقها على القبور وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير، تجد في كل هذا من التقى والروعة والتأثير ما كان في هذا الدير منه وهو في إبان عهده وعنفوان مجده!».

ويقول جيت: «أرى كل شيء حولي ينبت ويزهر، وحينما كنت أبصر هذه الجبال مغطاة بأشجار الدوم من أسفلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظلمة مجانيها بالغايات الأنيقة، وذلك النهر ينساب هادئاً بين نغمت القصب المهترزة، وتترآى في جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء، وأسمع الأطيـار تحيي بأغاريدها موات الغابة جمعاء، وخشارمة الذباب ترقص طربة مرحة على أشعة الشمس الغاربة، وأرملق الأرض ببصري فأرى الأشنان يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة، والرتم ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل فيكشفان لي عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية في باطن الطبيعة، أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الأشياء أشعر كأن قلبي يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة، وكنت أشعر أني أقرب ما أكون إلى التآله بما يفيض في قلبي من الشعور والحس ويخيل إلي أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك في نفسي فتملؤها حياة جديدة.

... آه كم تمنيت في ذلك الزمن أن أقطع أجواز الفضاء على جناحي ذلك الكركي الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل ذلك البحر الأعظم الذي لما ينكشف سره للإنسان لأشرب من اللاتهاية كأساً دهاقاً تبسط القلوب وتنعش المشاعر!

وأشعر لحظة واحدة، على قصوري وضعفي، بنقطة تجري في دمي من سعادة ذلك الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته بذاته».

ثم يتساءل الشابي عن أي النظرتين إلى الطبيعة أعمق؟ وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة؟

ثم يتحدث عن كلمة جيت فيقول: هي الأغنية الخالدة التي ترددها النفوس الشاعرة في أعماقها كلما شاهدت بهجة الكون وجلال الوجود.

ثم يردف إلى أن يقول: أما شعراء العربية فلم يعبروا عن مثل هاته الإحساسات الشعرية العميقة لأنهم لم ينظروا إلى الطبيعة نظرة الحي الخاشع إلى الحي الجليل، وإنما كانوا ينظرون إليها نظرهم إلى رداء منمق وطرز جميل ولم ينتهوا لتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة، ولذلك خلا شعرهم من الخيال الشعري الجميل.

الفصل الرابع: الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي

وهذا النوع هو (المرأة) هو هذا اللغز الجميل الذي يفتننا بسحره ويختلبننا بجماله.

ثم تحدث عن النفس الإنسانية، وماهيتها وجمالها إلى أن يصل إلى قوله:

... أما العرب فقد حرموا هذا الجمال الساوي الذي يجد عنده القلب لذة الحس وسعادة الشعور، ولم يكن لديهم من مظاهر الجمال على اختلاف فنونه غير فن واحد هو «المرأة»، وفي المرأة وحدها استطاعوا أن يجدوا ذلك الينبوع السحري المتفجر من قلب الحياة...، وكان حديثه هذا رداً على تساؤلاته عن رأي الفلاسفة بأن النفس البشرية جبلت من عنصر الحسن ولذلك تشعر بلذة سامية كلما شاهدت مرآى جميلاً، فالنفس فلذة خالدة من هذا الجمال العبقري الذي يتفجر من قلب الحياة.

ثم يستمر في قوله: المرأة هي النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسيل المحبة، وهي الطيف الساوي الذي هبط الأرض ليؤجج نيران الشباب ويعلم البشرية طهارة النفس وجمال الحنان.

لكن العرب تجاوزوا في التغني بالمرأة كل حد، حتى أصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد، وهي الكلمة السحرية التي تفتح لها كنوز الشعر، حتى أصبحت عندهم كآلهة الشعر عند قدماء اليونان. ومع ذلك لم يبوؤا المرأة منزلة سامية إلا لتحدث عن ملهارة ساحرة بجسدها، أو للتفاخر على تصبى قلوب النساء والعبث بهن ليس غير! فجاءت نظرهم ذنيئة منحطة إلى أقصى قرار من المادة. ولم تزودج نظرهم إلى ذلك الشغف التي تعتبر سمة الفن عند الشعراء الآريين.

والشاعر العربي في رأي الشابي لم يحاول أن يحس بما وراء الجسد عند المرأة من روح جميلة ساحرة تحمل بين جنبهيا سعادة الحب ومعنى الأمومة وهما أقدس ما في هذا الوجود، بل تحدث عن هذا الجمال المتهدل (الذي يوزن بالرطل والقنطار من الشحم

واللحم) كأنها الجمال جسد ومادة. لم يتحدث عنها كما يقول تاغور، واستثنى الشابي من ذلك ابن الرومي ومن لف لفه وهو نفر قليل، لأن ابن الرومي في رأيه تحدث عن جمال المرأة كشيء مستقل عن الجسد مصدره النفس الخالدة كما في قوله:

ليت شعري - إذا أدام إليها كسرة الطرف مبدئٍ ومعيد -
أهي شيء لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد؟
بل هي العيش لا يزال متى استحـ حدث يبدي غرائباً ويفيد

لقد تحدث الشاعر العربي وأجاد عن قَدِّ المرأة المشوق وعن طرفها اللامع الوسنان وعن وجهها المتورد وعن غير ذلك من أوصاف مادية يراها الجميع، ويحس بها كل الناس، تحدث عنها بإحساس لا تظهر معه مزية على غيره في الالتفات إلى رصانة التعبير وجمال الديباجة وخلابة الأسلوب، وهل هذه وظيفة الشاعر وغايته في الحياة؟ ليست رسالة الشاعر ألفاظاً منمقة وعبارات مرصعة وكلاماً مرصوفاً.

وقد يكون من الغريب أن بعضاً من هؤلاء الشعراء يؤمنون بالحب إيماناً سامياً ويضمرون عنه في نفوسهم، حتى إذا أرادوا التحدث عن المرأة لم يتحدثوا إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من تلك الأوصاف الجسدية السافلة.

وظلت النظرة إلى المرأة في الأدب العربي بسيطة، لم تتأثر بما اعتور الحياة الإسلامية من جزر ومد، ومن نور وظلمة، وسبب بقاء هذه النظرة تدور حول ما يلي:

أولاً: فكرة جائزة استحوذت على العالم العربي كله، مفاده أن المرأة مثل الغدر واللؤم وخساسة الطبع... والفكر الذي يعتقد ذلك في المرأة لا يمكنه أن يبصر وراء جسدها من عذوبة وسحر وعالم شعري جميل.

ثانياً: المرأة لم تنل في جميع الأعصر العربية قسطاً من الحرية الحقة تتمكن معه إظهار مواهبها التي تجبر الرجل على أن يحترمها ويبدل فيها رأيه، فيطلع على ما خلف الجسد من لعج زاخر وبحر عميق، ثم يبين: أن هذه الحرية الموهومة التي نسمع عنها ليست هي الحرية الحقة لأنها ضرب من الحرية متهتك خليع، يعبت بالفضيلة، ويسخر بكل شيء، وما أجدره أن يسمى انحطاطاً خلقياً، فيدنس هذه الكلمة الإلهية الظاهرة. ومن تمتع بهذه الحرية هو قسم من الإماء المتجنيات على الرجال المتهافتات على اللذة المتهالكات على

الفجور، تهاكأ يآباه الدين والعقل. هذا الضرب الذي يتحدث عنه أبو نواس، وهو ما نجده عند خلعاء الأندلس ومجانها.

ثم قدم شواهد على رأيه من قول امرئ القيس في قوله:

ويارُبَّ يوم قد (لهوت) وليلة بأنسة كأنها خط تمثال
ويقول:

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الرزق ولم أقلل لخيلي (كري كرة) بعد إجفال
ويقول:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها (تمتعت) من (لهو) بها غير معجل
ثم استشهد أيضاً بقول طرفة بن العبد:

ولولا ثلاث، هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبق العاذلات بشربة كमित متى ما تعجل بالماء تبرد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب يبهكنة تحت الخباء الممدد⁽¹⁾

ومن ذلك ما استشهد به من قول أوس بن حجر:

وهل (لهوت) بمثل الرثم أنسة تصبي الحلیم، عروب غير مكلاح
ثم قول عبدالله بن عجلان النهدي قتيل الصبابة:

وحقة مسك، من نساء لبستها شبابي وكأس باكرتني شمولها
جديدة، سربال الشباب كأنها سقية بردي نمتها غيولها
ويتابع الشابي حديثه مما قاله الشعراء، وهذا أبو نواس يقول:

(أله) بالبيض الملاح وبقينات، وراح
لا يي صدنك لاح هو عن سكرك صاح

ثم قول أبي تمام:

(1) البهكنة: الشابة الغضة الشباب.

ذوب الغمام فمنهل ومنسكب⁽¹⁾
وقد ينفس عن جد الفتى اللغب

من كل ممكورة ذاب النعيم لها
كانت لنا (ملعباً) (نلهو) (بزخرفة)
ثم قول البحري:

على الشباب فتصيني وأصبيها
علقت بالراح أسقاها وأسقيها
شربت من يدها خمراً ومن فيها

قد أطرق الغادة الهيفاء مقتدراً
في ليلة ما ينال الصبح آخرها
عاطيتها غضة الأطراف مرهفة

وقد عقد من خلال نقده مقارنة بين هذه الأقوال: ففي شعر طرفه وسيلة لتقصير يوم الدجن، وعند ابن عجلان خلية فراش وساقية وعند أبي نواس جليسة غناء وخمرة، ولدى أبي تمام وسيلة أو أداة لعب وترويح وعبث ومثل ذلك كان عند البحري.

كما تحدث الشابي في كتابه ومحاضراته عن أوصاف المرأة عند العرب، وبأي تعبير يعبرون عنها.

ففي الجاهلية وصدر الإسلام، وصفها امرؤ القيس ببيضاء غير مسترخية اللحم، تتقن أساليب الإغراء، لها جيد كجيد الرثم وشعر كقنو النخلة. وكشح مخصر وساق كقصب البردي ورائحة مسكية، وقد استشهد بأبيات شعرية يدل بها على نظرتة:

ترائبها مصقولة كالسجنجل⁽²⁾
بناظرة من وحش وجرة مطفل
إذا هي نصته ولا بمعطل
أثيث كقنو النخلة المتعكل⁽³⁾
وساق كأنبوب السقي المذل
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل⁽⁴⁾
إذا ما أسبكرت بين درع ومجول⁽⁵⁾

مهفهفة بيضاء غير مفاضة
تصد وتبدي عن أسيل وتقي
وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش
وفرع يغشي المتن أسود فاحم
وكشح لطيف كالجديل مخصر
وتضحى فتيت المسك تحت فراشها
إلى مثلها يرنو الحلليم صباة

(1) ممكورة: مملوءة الساق.

(2) السجنجل: المرأة.

(3) أثيث: كثيف، قنو النخلة: أول طلعه، متعكل: مضموم إلى بعضه مرتباً.

(4) نؤوم الضحى: كناية عن الترف والنعيم.

(5) أسبكرت: استقامت في مشيتها، المجول: الدرع الصغير.

وهذا الأعشى يتغنى بعشيقته فيصفها بأنها بيضاء طويلة الشعر تترفق في مشيتها، مرتجة الأرداف، ممتلئة الجسم، يمشي معها المسك.

غراء، فرعاء، مصقول عوارضها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل
كأن مشيتها في بيت جارتها
مر السحابة لا ريث ولا عجل
إذا تقوم يوضع المسك أصورة
والزنبق الورد في أردانها شمل⁽¹⁾
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مؤزر بعميم النسبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

أما طرفة فقد وصفها بأنها غزال متخلف عن قطيعه، وثغرها كالأقحوان المنير، وأضاءت عندما ألتقت الشمس رداءها على وجهها:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن
مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
خذول تراعي ربرياً بخميلة
تناول أطراف البرير وترتدي
ووجه كأن الشمس ألتقت رداءها
عليه نقى اللون لم يتخدد

أما كعب فقد وصف سعاد، عُنَّة هيفاء، جميلة (حلو) الثغر:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة، عجزاء مدبرة
لا يشتكي قصر منها ولا طول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه
من صوب غادية بيض يعاليل

وعلى مثل هذه السنة كان النابغة، وعنترة وليد وعمرو بن كلثوم وأوس بن حجر والمرقس وزهير وغيرهم من شعراء الجاهلية الذين لم يختلفوا إلا في كيفية التعبير.

أما في العصر الأموي فقد قدم أمثلة على شعر عمر بن أبي ربيعة في قوله:

خود تضيء ظلام البيت صورتها
كما يضيء ظلام الحندس القمر⁽²⁾
مجدولة الخلق لم توضع مناكبها
ملء العناق، ألوف جيها عطر
مكورة الساق مقصوم خلاخلها
فمشيع نشب منها ومنكسر
هيفاء لفاء مصقول عوارضها
تكاد من ثقل الأرداف تنبتر

(1) أصورة: وعاء المسك.

(2) خود: الصبية.

تفتّر عن واضح الأنياب متسق عذب المقبل مصقول له أشرف
 كالمسك شيب بذوب النحل يخلطه ثلج بصهباء مما عتقت جذر
 وصفها بأنها فتاة تضيء الظلام، غير مسترخية اللحم، مكتنزة هيفاء، ضخمة
 الفخذين، منيرة الثغر، ثقيلة الأرداف وبرائحة المسك.

ثم يقول: لعلكم تقولون: إنه فاسق يأخذ من المرأة ما هو أقرب إلى حسه، فماذا
 تصنعون مع المجنون الذي يقول:

ومن أين للشمس المنيرة بالضحي بمكحولة العينين في طرفها فتر
 وأنسى لها من دل ليلي إذا انثنت بعين مهاة الرمل قد مسها العذر
 تبسم ليلي عن ثنايا كأنها أقحاح بجرعاء المراصين أودر
 منعمة لو باشر الذر جلسدها لأثر منها في ترائبها الذر
 إذا أقبلت تمشي تقارب خطوها إلى الأقرب الأذنى تقسمها البهر

وهو لا يخالف في هذه الأبيات عمر بن أبي ربيعة، ومثل ذلك قال جميل الذي لم
 يشك أحد في وجوده وقد رأى قوام بثينة قناة من المران أو غزالاً بمقلتها والجيد،
 وكشحا السابري، وحدثها فدرّ فضلاً عن جال ساقها وضمور بطنها:

قناة من المران ما فوق حقوها وما تحته منها نقى يتقصف
 لها مقلتا ريم وجيد جداية وكشح كطي السابرية أهيف
 ولم يكن العصر العباسي غير ما سبقه فهذا أبو نواس يقول:

سربلها الدل ثوب بهجته أزرها الشكل ثم رداها
 للدعص من ردفها تراكمه وللقضيب الرطيب أعلاها
 فالسحر والغنج في محاجرها والحسن وقف على مجياها
 فالمرأة عنده ذو دلال وغنج، ورفها كتيب الرمل وجسدها كالسيف أو الغض
 اللدن.

أما عند أبي تمام فهي مكتنزة الساقين، وخذ كالورد وهي ناعمة ومع أنها مهاة فإنها
 لا تصيد إلا الصيادين:

وهي كالظبية النوار، لكن ربما أمكنت جناة السحوق

أو قوله:

بيضاء يصرعها الصبا من نعمة وحشية ترمي القلوب إذا اغتدت
 خود كخوط البانة الأملود⁽¹⁾ وسنى فما تصطاد غير الصيد
 ويكمل الشابي: ثم اسمعوا ما يقوله المتنبي:

كل خصانة أرق من الخمر ذات فرع كأنها ضرب العنب
 حالك كالغداف جثل دجوج تحمل المسك من غدائرها
 سر بقلب أقسى من الجلمود سر فيه بسماء ورد وعود
 سي، أثيث جعد بلا تجعيد تريح وتفتر عن شتيت برود
 فهي عند المتنبي أرق من الخمر، هيفاء بقلب أقسى من الصخر، تنتشر منها رائحة العنبر والورد.

أما البحرني فالمرأة عنده:

بيضاء أوقد خديها الصبا وسقا في حمرة الورد من تلهبها
 وأجفانها من مدام الراح ساقها وللقضيب نصيب من تثنيتها
 ويقول مهيار الديلمي:

سقى بالحمى الأعين النابلات وحيها الحيا أوجهاً لا تغش
 وما نظفة حضنتها السماء ولا مسكة طاف عطارها
 من دم أحشاي ما تشرب لجين الجمال بها مذهب
 بأرعن مرقاه مستصعب بدارين ينخل ما يجلب
 سحوراً بلى فمها أطيب بأطيب من فم ذات الوشاح

ويعلق الشابي: فهل رأيتم من تطور بين العصر العباسي والعصرين قبله من حيث نظر الشعر إلى المرأة ومنزلتها منه، أليست المرأة التي تحدث عنها شعراء العصر الجاهلي وما تلاه هي نفس المرأة التي تحدث عنها شعراء العصر العباسي، وإذا كان هذا في هذه العصور فكيف كان في العصر الأندلسي؟ يتساءل الشابي: هل أثرت عظمة الطبيعة واختلاف التربة والوسط والمناخ على النظرة الشعرية إلى المرأة؟

(1) الأملود: الناعم اللين.

في فرع أسحلة تميد شباباً⁽¹⁾
وتوردت أطرافها عناباً
وظفابه الدر النفيس حباباً

فتق الشباب بوجنتيها وردة
وضحت سوافل جيدها سوسانة
بيضاء فاض الحسن ماء فوقها
ويقول أيضاً:

مراضاً وجيداً أتلعاً ونفارا
ولفت على ظهر الكثيب أزارا

هي الطبي طرفاً أحوراً وملاحظا
أفاضت على عطف القضيب ملاءة

ولابن خاتمة دمّ في خدها، وريق أو رحيق في ثغرها وأقاح في ابتسامها وضيء وخر

في لحاظها:

وريق ما بثغرك أم رحيق؟
ويكفها شفاه أم شقيق؟
جفونك أم هي الخمر العتيق؟
وقلبي سكرة ما أن يفيق
وكأسي مقلتي فمتى أفيق؟

دماء فوق خدك خلوق
وما ابتسمت ثغور أم أقاح
وتلك سنة قوم ما تعاطت
لقد أعدت معاطفك انثناء
جمالك خمرتي وهواك راحي

أما ابن سهل فالمرأة عنده ثغر نضده أقحوان لا يفيق من سكرته، وشعر فاحم

وشفاه معسولة وغنج ساخر ووجه يخذل الشمس مبتسماً:

أقحوان عصرت منه رحيق
وهو من سكرته ما أن يفيق
ساخر الغنج شهبي اللعس
وهسو من إعراضه في عبس

ما رأينا قط ثغراً نضده
أخذت عيناه منه العريده
فاحم اللمة معسول اللمي
وجهه يتلو الضحى مبتسماً

ويعلق الشابي على كل ما سبق من شعر النوايع، ويؤكد أنه لم يتحدث عما وراء جسد

امرأة من شعور سماوي رقيق وعاطفة ندية ساجية وأحلام عذبة مستحبة، ولم يتغن أحد
من هؤلاء بحنو المرأة، وهي معبد الحب في هذا الوجود كما يتحدث الخاشع المتعبد عن

(1) أسحلة: نوع من الشجر يستاك به كالأراك.

بيت من بيوت الله، كما يتحدث مثلاً جبران خليل جبران في أجنحته المتكسرة.. فقد كان إحساس الشاعر قاصراً وخياله محدود لا يتجاوز الظواهر ولا يطمع في ما وراء المرئيات.

ويلخص في نهاية فصله: إن المرأة في الأدب العربي لم تظفر بنصيب من الخيال الشعري ولو كان يسيراً، لأن النظرة لا تتعدى النظرة المادية التي لا عمق فيها ولا ضياء. وأما الفارق بين العصور، فقد كان الشاعر في العصرين الجاهلي والأموي صادقاً في ميله إلى المرأة وشغفه بها وإن لم يتحدث عنها إلا من الوجهة الجسدية، أما الشاعر العباسي والأندلسي فقد قضت المدنية الفاجرة على منبع الرجولة فيه فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى بالرغم عن أنه جميل الرنة، خلاب النسق.

الفصل الخامس: الخيال الشعري والقصة في الأدب العربي

لا يعجز الباحث في الآداب العربية أن يجد شيئاً من القصص الرائع الفخم الجميل، وأن يجد في تلك القصص خيلاً عذباً مشرقاً بالروح والحياة. وخاصة ما نسب إلى ابن أبي ربيعة شاعر الشبيبة الغزلة والجمال المدل. وكذلك امرؤ القيس ذلك الشاعر الشقي بشعره المضحك الفروح، وهذا لا ينكره أحد.

ولكن هل نجد في تراث العرب قصصاً حقيقياً يجدر تسميته قصصاً كفن مستقل؟ هل نجد هذا القصص الذي يسبر جراح النفس البشرية؟ وهل نجد في الأدب العربي شيئاً من هذا القصص الذي يتصل بالخيال الشعري؟

ثم طرح سؤالين هما: هل القصص العربي مستقل بنفسه؟ وهل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص ويسبر ويحلل؟ والجواب عن السؤال الأول: أن الشعر العربي لم يستقل بنفسه استقلالاً يؤهله لمنزلة القصص الحقيقي أو ما يقاربه إلا في شعر عمر بن أبي ربيعة، وكذلك يوجد عند غير ابن أبي ربيعة ولكنه غير مستقل بنفسه، فقد نجد للمنخل الشكري هذا القصص الصغير الجميل الذي يصف موقفاً من مواقف الحب كقوله:

ولقد دخلت على الفتى	ساعة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تـرر	فـل في الـدمقس وفي الحـريـر
فـدفعـتها، فـتـدافعت	مـشي القطـاة إلى الغـدير
ولثمتها فتنفتست	كـتـنفس الطـبي الغـريـر

ودنت فقالت: يا منخداً ————— ل! ما بجسمك من حرور
 ما شفّ جسمي غير حب ————— لك فاهداً أي عني وسيري
 وهذا قصص لكنه جزء من قصيدة فخر للشاعر، وقد نجد مثل هذا عند امرئ
 القيس في معلقته حين يقول:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ————— تمتعت من لهوها غير معجل
 وقد سبق أن تحدثنا عن القصيدة في فصل سابق، وبإمكانك الرجوع إليها، والشابي
 يقول إن الشاعر لم يزد على صاحبه وإن تصرف فيها كثيراً.

كما يذكر الشابي أننا نجد مثل هذا عند النابغة في قصيدته (يا دارمية) وفي معلقته،
 ونجده عند شعراء عرب غيرهم. ولكننا لا نجد مستقلاً وربما هذا ما كان في العصر
 الجاهلي، لكن خير من يمثل نظرة الشابي في هذا الفصل عمر بن أبي ربيعة في العصر
 الأموي، الذي قال عنه جميل بن معمر: «هيهاث يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا
 سجيس الليل، والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد».

ثم سرد الشابي قصيدة عمر بن أبي ربيعة ليوضح طريقة السرد القصصي كمثال
 لاستهواء العذارى والشباب حتى حرّم الكبراء رواية شعره على فتيانهم والقصيدة طويلة
 بإمكانك الرجوع إليها ومطلعها:

راح صحبي ولم أحسي النوارا ————— وقليل لو عرجوا أن تزارا
 ويقوله الشابي إنها نوع من القصص لا عهد للأدب العربي بمثله قبل ابن أبي ربيعة، لا
 عند امرئ القيس ولا النابغة ولا الأعشى، وابن أبي ربيعة جدير بأن يسمى أبا الشعر القصصي.

أما في النثر العربي فقد ظفر القصص إلى حد ما بما لم يظفر به في الشعر من
 الاستقلال والحياة، لكنه لم يظهر في العصر الجاهلي لندرة النثر، ولأنه كان قاصراً على
 الخطب والمحادثات، ولم يدون منه إلا اليسير. ولم يعرف النثر إلا في أواخر العصر الأموي
 عندما ترجمت قصص (ألف ليلة وليلة) ومع ذلك لم يبعث هذا الكتاب شيئاً من الحياة
 القصصية في النثر العربي فظل على حاله الأولى.

ثم كان فجر العصر العباسي، وإذ ذاك ترجم ابن المقفع بعض كتب قصصية عن
 الفارسية، فكانت فتحاً جديداً في النثر العربي والتي كان منها «كليلة ودمنة» والتي بعثت

روحاً قصصية لم تكن في الأدب العربي من قبل ثم نشطت أقلام بعض الكتّاب كان منهم ابن فارس الذي ألف المقامات ثم جاءت مقامات الهمداني والحريري لينحط بعدها هذا الفن. ثم جاء بعد ذلك المعري برسالته «رسالة الغفران» وفيها يجد الباحث ما لا يجده في غيرها من الصور الشعرية والجمال الفني.

وجواباً عن السؤال الثاني: أن القصص العربي لم يكن من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص وإنما كان أحد أنواع ثلاثة: إما قصص يقصد به اللذة والإمتاع وهذا ما نجده عند ابن أبي ربيعة، وإنما قصص يراد منه الحكمة وضرب المثل وهذا ما يمثله «كليلة ودمنة» وإما قصص يقصد للنكتة الأدبية والنادرة اللغوية ويمثل هذا فن المقامات.

وخلاصة حديثة، فإنه لم يكن نصيب للقصص العربي من الخيال الشعري، لأن الخيال الشعري لا يضطر إليه إلا من أراد خوض ظلمات الحياة، وإنفاقها، واستطلاع ما في خفايا النفوس من صور ورسوم، والقصص العربي لم يجشم نفسه ركوب هذه السبل الغامضة المتعرجة، بل اتباع تلك الطريق المنبسطة الواضحة، تلك الطريق اللاحقة العارية التي سارت عليها أساطير العرب وآدابهم.

الفصل السادس: فكرة عامة عن الأدب العربي

قدم الشاعر لهذا الفصل بقوله: قد انتهى بي البحث في الأدب العربي وتتبع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، والباحث لا يسمع فيه إلا هدير العواطف بين جنبيه، وخرير المياه في عروق الكون، فيعييه البحث ويطلحه السعي ثم لا يجني من وراء ذلك غير الألم المرهق واليأس العميق.

وهو لا ينكر أن الأدب العربي قد أجاد فيما تخصص فيه من وصف المظاهر البادية وما بينهما من تحالف أو تشابه أو تنافر، بل ربما فاق كثيراً الآداب الأخرى في هذا الصدد، والأدب العربي ليس جامداً ميتاً، بل كان في كل العصور حياً صحيحاً فياضاً بكل ما تصبو إليه آمال الشعوب من صور الحياة ومثلها المختلفة.

فكان في الأدب الجاهلي بدوياً محضاً تسمع فيه رنة الصوت البدوي الأجرش بكل ما فيه من عزة وادعاء، وكان في الأدب الأموي على قسمين: الأول يصور الحياة العابثة

المخلّة إلى البطالة واللهم، والثاني قسم يمثل الحياة الجادة العابسة التي تتلقفها الأهواء السياسية والدعوات الحزبية المتباينة. أما الأدب العباسي فكان لاهياً ماجناً خليعاً في عنفوان المجد العباسي، ثم حائراً متشككاً مضطرباً في أواخر القرن الثالث وما بعده. وكان الأدب الأندلسي مستهتراً مسرفاً في اللذة والمجون، لأن الأمة الأندلسية كانت صبية لاعبة ترح بين الرياض والجداول.

وهذه الصفات تلائم الأذواق في عصورها، ولكنه لا يلائم روحنا الحاضرة ومزاجنا الحالي وרגائنا في هذه الحياة وما نريده الآن، أدب قوي عميق يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة، بما فيها من شوق وأمل.. ولهذا فلا ينبغي لنا إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعهده كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها، وأن لا نعجب به إلى درجة التقديس، والعبادة، لأن لكل عصر حياته، ولكل حياة أدها. وعلينا أن نتخذ لنا أدباً قوياً فيه الحياة الحاضرة بما فيه من عمق الفكرة وسعة الخيال ودقة الشعور، أما أن نتخذ الأدب العربي الذي عرفنا خلوه من هاته الأمور فذلك هو الخمول وذلك هو الموت الزؤام.

لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت، وانضاء القبور الساخرة.

ولا خير في أمة عارية تكتم فقرها، ولا خير في شعب جائع يظهر الشبع، وشر من كل ذلك أمة تقتني أثوابها من مغاور الموت ثم تخرج في نور النهار متبجحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور..!

إن الشابي في حديثه هذا جريء، أعلن رأيه بكل صراحة وجرأة وهو رأي خاص به، ومهما كان لنا من تحفظات على رأيه، فإنه يعلن بعد ذلك أنه لا يغض من هذا الأدب الذي لم يخلق لنا والحديث يوجهه الشابي «منا معشر التونسيين» ولم نخلق له غذاء لأرواحنا وحريقاً لقلوبنا لا نترشف غيره، وهو يقول ذلك ويعلم أنه سيغضب طائفة كبيرة ممن يؤثرون الحياة في أكناف الدهور الغابرة. ويعلن أيضاً أن حسبه يعلن هذا وقد أرضى نفسه به، ويطلب أن يخبره الغاضبون من حدثهم عن تلك المعاني العميقة من تلك

الأعمق من الموت والأشد سعة من الحياة، كما يتساءل: هل تجدون في العربية من يستطيع أن يحدثكم عن هذه العواطف العنيفة التي تهز أسس الحياة هزاً؟ أو أي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً مغرباً جميلاً عن الحب؟

وأي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً صادقاً عن نشوة الحب وسكرة المشاعر؟ أو أي شاعر يحدث عن الأمل؟ وأي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً مغرباً جميلاً عن الحب؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يصور معنى الأمومة الحانية الرؤوم؟ وبعد أن طرح تساؤلاته يجيب: كلا، لأن الأدب العربي أدب مادي محض لا يعرف من عالم الخيال إلا أضواءه الأولى وغيومه الناشئة.

ثم قدم الشابي شواهد من آداب الأمم الأخرى وأشار بمثال عن «لامارتن» وهو يتحدث عن نشوة الحب الشاملة، وتغمره سعادة الحب وغبطة القلب مما جعله يستغرق في هذا العالم الرائع استغرق الصوفي الصميم في ربه، ثم يقارن بينه وبين شعراء العرب أمثال المجنون أو قيس بن ذريح أو جميل أو عمر بن أبي ربيعة وغيرهم من الشعراء، مع أنهم تذوقوا الحب كما تذوقه لامارتن، ولكن الروح العربية روح مادية تقنعها النظرة العجلى التي تعلق بالسطح دون الجوهر واللباب، والأدب العربي يتحدث عن الحب من خلال أغراضه ولوازمه وتحدث بوهم عن الأمل، وقدم شاهداً في قول الشاعر:

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة وحر على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين يا مبيُّ كما بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

كما مثل على ذلك من شعر ابن الفارض الذي سار على سنة الأقدمين في قوله:

هو الحب فاسلم بالحشا والهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل
وعن الأمل في قول الطغرائي:

أعلل النفس بالآمال أرقبها «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل»

وعلق على القول: إن الطغرائي تحدث عن أثر الأمل ولم يتحدث عن الأمل نفسه وكان الشاعر العربي في كل ما تحدث عنه استفز شعوره فعمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله وشبهه بالمصور الفوتوغرافي ولا يهيمه إلا التقاط الصور وإظهارها كما هي، تاركاً للمشاهد وحده أن يثير في نفس الناظر ما يثير.

أما الشاعر الغربي فإنه يفتح أمام القارئ مغاليق نفسه ليريه ما أهاجه من المنظر من عاطفة راكدة ووجدان كمين، ويجعله يلمس بقلبه ذلك الوتر الذي اهتز في أعماق نفسه بعد أن وصف المنظر، وسبغ عليه من الخيال الجميل حلة ضافية مشبوبة متأججة، وهذا الذي يجعلنا أن نحس من الصوت الغربي قوة وبعد رنين أقوى من الصوت العربي الخافت الضعيف لأن مصدر هذا الصوت هو الشكل واللون والوضع.

ويستمر الشابي في مقارناته فيؤكد: أن الشاعر العربي يسط الفكرة في بيت فرد أو جملة واحدة ثم يتابع أفكاره بحيث تتكون القصيدة من كل لون أو وصف ومن كل فئة وقبيل، فتنبت الأفكار في صعيد واحد متماسك. أما الشاعر الغربي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي تحرك في النفس ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية ثم يلقها في حلة ضافية من الشعر والخيال.

ويستمر في الدفاع عن وجهة نظره فيوضح الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الإفرنجية في تناول الأشياء والنظر إليها، فيقارن بين قصيدة ابن زريق البغدادي الذي يقول في أولها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
وبين الشاعر الاسكتلندي (أسيان) ليوضح أن ابن زريق يصف بؤسه وشقاءه وقد ركز في القصيدة على يوم الوداع ليبين أن الشاعر العربي يستعيد ذكره الأليمة وهي كل ما بقي له من ماضيه الجميل سواء من الوداع أو تثبت الحبيب به والدموع المنهلة.

أما الشاعر (أسيان) فيصف تلك الذكريات المتفجعة بذكر أمسه الذي تلقى فيه أمضى سهم من سهام القدر وهو يقول على لسان (أزمين) لما تذكر مصرع ولديه، حين ينادي رياح الخريف لتهب وتعصف فوق سهول الخلنج العابسة لتصدم العواطف في رؤوس السنديان في موقف وداعي فيسمع بكلماته النارية زفير القلوب وشهيق الأرواح البائسة على عكس ابن زريق الذي يستقصي كل شيء بينما أسيان يوجز في البيان، وبينما يذهب ابن زريق إلى بث أوجاعه وحسراته هينة كأنفاس طفل نائم تساوره الأحلام المزعجة حتى ينتهي نفس القصيدة في صوت خافت يبعث به اليأس والأمل والموت في مثل قوله:

على الليالي التي ظنت بفرقتنا جسمين تجمعنني يوماً وتجمعه

فإن أسيان يكاد يسمعك صوته من خلال صعقات الحزن وآهات الأسي، فهو يكلم أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل ويلخص قوله في نهاية الفصل بسطرين مفادهما: هكذا كانت الروح العربية متكتمة لا تسمح للنور أن يلامس أحلامها، ولا للظلمة أن تعانق آلامها، وأما الروح الغربية فهي متبسطة تلقي بأفراحها وأتراحها تحت أقدام الليل وفوق أجنحة الرياح ...

الفصل السابع: الروح العربية

إن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره كان على وتيرة واحدة، والروح السائدة في ذلك هي النظرة القصيرة الساذجة التي لا تنفذ إلى جواهر الأشياء وإنما تنصرف إلى الشكل والوضع واللون والقالب. وتحدث عن الطبيعة بألوانها وأشكالها، ولا يهتمها من المرأة إلا الجسد البادي، وهي في القصة لا تتعرف إلى طبائع الإنسان وآلام البشر، أما في الأساطير فلم تعبر عن فكر سام وخيال فياض، هذا ما عرض له الشابي في الفصول السابقة.

والسؤال الآن: ما هذه الروح وما هو طبعها الخاص؟

الروح العربية خطابية مشتعلة ومادية محضة لا تستطيع الإمام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال مع الخيال، ومن هاتين النزعتين، كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحة لا تظمن إلى زهرة حتى تغادرها إلى أخرى، تلك هي الروح العربية وذلك هو طبعها. وكان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف ملكة الخيال الشعري في النفسية العربية، لأن الخيال مصدره الشعور، وكلما كان الشعور دقيقاً، كان الخيال فياضاً قوياً، ولا يمكن أن تجتمع الخطابة ودقة الإحساس في نفس إلا ندوراً، لأن الخطابة تعتمد المزاج الناري والنظرة البسيطة، ودقة الإحساس تستلزم المزاج الهادي والنظرة الطويلة والإحاطة الشاملة ولهذا كان الخطباء المصاقع والفصحاء المصاليات.

وكان لهاتين النزعتين أثر في نظرة العرب إلى الشاعر، حيث كانوا لا يفرقون بينه وبين الخطيب، حتى أنهم جعلوا لشعرائهم أرواحاً تملي عليهم الشعر ليست بأرواح الملائكة أو الآلهة كما كان في أساطير غيرهم، وإنما جعلوها شياطين تصقل لسان الشاعر وتجعله أدنى إلى بلاغة القول وجزالة الخطاب، وما ذلك إلا لأنهم لا يرون في الشاعر إلا خطيباً ينظم ما يقول.

وقدم أمثلة على فكرته حين بين أن من هذه الخطب الشعرية قصائد عمرو بن كلثوم ومجمهرة بشر بن حازم وأمّية بن أبي الصلت وملحمة الفرزدق والأخطل وجريبر والراعي، وهناك أمثلة كثيرة في الشعر العربي الذي لا فرق بينه وبين الخطابة إلا في الوزن والقافية يضيق المقام عن ذكرها في رأيه، ثم قدم مثلاً كشاهد من قصيدة الحارث بن عباد التي قالها لما قتل المهلهل ابنه بحيرا وقال له: «بوء بشسع نعل كليب» يستفز الحمية في قومه لخوضه غمرات الحروب، يقول الحارث بعد أن بكى ابنه وأمر أمه أن تطيل عليه النحيب:

لهف نفسي على بحير إذا ما جالت الخيل يوم حرب عضال
يا بحير الخيرات لا صلح حتى نملاً اليد من رؤوس الرجال
وتقر العيون بعد بكاهها حين تسقي الدما صدور العوالي

ويكمل الشابي في كتابه القصيدة بما فيها من بكاء واستنهاض للهمم والثأر والافتخار بشجاعته وقوته على طريقة بدوية، يدوي فيها الصوت ليظهر براءته ويظهر تغلب بمظهر الباغي، وأنهم إن سكتوا حملوا سبة الدهر وذلة الأبد:

قتلوه بشسع نعل كليب إن قتل الكريم بالشسع غال
حتى إذا تيقن من صبوة قومه إلى الحرد، هدد تغلباً وافتخر بقومه ليؤجج حماسهم وينفخ في قلوبهم روح البطولة صاح قائلاً:

قرباً مربط النعام منسي لقحت حرب وائل عن حيال
وظل هكذا بين رنة الحزن إلى صيحة الانتقام ومن لهجة المسكنة إلى صرخات الجبابرة، فانقلب إلى فارس فاتك يلهج ببأسه:

رب جيش لقيته يمطر الموات ت على هيكل خفيف الجلال
ثم عاد يرتجل أغاني المجد القديم ويعيد أناشيد الفوز والانتصار:

سائلوا كندة الكرام، وبكرا واسألوا مذحجاً وحي هلالا
إذا أتونا بعسكر ذي زهاء مكفهر الأذى، شديد الصيال
فقريناه حين رام قراننا كل ماضي الذباب غصب الصقال

وفي رأي الشابي أن هذه القصيدة إنما هي خطبة رائعة ألقاها خطيب مفوه، وهذه تذكر بخطبة (أنطونيو) التي ألقاها على شعب روما يطالبهم بالانتقام لقيصر.

ثم قال: وكان لكثرة المترادفات في اللغة العربية أثرها الكبير في النزعة الخطابية التي تؤثر الفصاحة على أي شيء آخر، ومن تلك الآثار ميل العرب إلى الإيجاز الذي يعدونه روح البلاغة، وهاتين الخاصيتين - الفصاحة والإيجاز - هي التي فرضت في الشعر العربي وحدة البيت، فكانت القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به من جميع النواحي وإنما هي كون صغير تحشر فيه الأفكار حشراً وترص فيه المعاني رصاً...

وكان سبب هذا، أن العرب نشأوا في رقعة من الأرض ساهمة واجمة لم تجر عليها الطبيعة ريشة الفن، ولا ضربت عليها سحر الجمال، فظلت محرومة من ذلك الجمال الإلهي الذي يغمر النفس بما يفيض عليها من سعادة الحس ونشوة الشعور، فقد شب العرب تحت سماء ضاحية صافية، لا يحجبها سحب مركوم ولا ضباب كثيف، وليس تحتها غير الصحراء الأبدية الصامتة، فكان لهم من ملامح الصحراء الشاحبة ومن طبيعة الأرض القاحلة، هذا النحو من الحياة الذي لا يعرف رغد العيش ولا روح السلام ولا يفقه دعة الحياة ولا غبطة العيش، إنما هو ثورة جامحة كالرياح لا ترتوي ولا تشبع ولا تسكن إلى راحة ولا تتحد إلى سكون. فكان لهم تلك الروح الخطابية الثائرة التي تعصف بكل شيء.

أما المادية فقد تكونت في أنفسهم لأن العرب - كما سبق - لم يكونوا من خفض العيش الجميل وغضارة الحياة الناعمة وطلاقة الطبيعة الفاتنة على شيء يبعث في أنفسهم تلك النزعة المفكرة التي تتوغل في دخائل الأشياء وأسرارها دون ملل أو فتور، وكذلك تكونت المادية في أنفسهم بسبب طبعهم العجول والمتسرع في أرضهم المغبرة الكالحة، وأن من عاش بين مثل هذا الطبع الجموح وتلك الطبيعة العارية بمستغرق في الفكر أو متعمق في الشعور.

وهكذا تضافرت طبيعة الأرض ولون الحياة على خلق الروح العربية مطبوعة بطباع الخطابة، مصبوغة بصبغة مادية خالصة.

ويكمل بحثه بقوله: حرّي بعدئذ أن تقولوا: إن هاته العوامل لا يمكن أن تؤثر إلا في العصر الجاهلي، أما العصر الأموي والعصر العباسي فهي بمعزل عن مثل هاته العوامل التي أُلقت على الروح العربية ذلك الرداء، حيث تغيرت هاته العصور وتغيرت الأوساط التي عاش فيها العرب وألفوها، ثم يتساءل عن السبب الذي ظلت تسود روح واحدة في هاته العصور. ويجيب الشابي نفسه: إن هذه العصور الثلاثة قد أثرت على آدابها عوامل أخرى قربت بينها وبين الأدب الجاهلي في الروح والفكر والخيال وهذه العوامل هي:

أولاً: الوراثة: فقد كان العصر الأموي عصرًا عربيًا في طبعه ومنزعه وشعوره، ولم تختلط فيه الأمة العربية بغيرها، فظلت لذلك حافظة لميراثها الروحي، وظلت آداب هذا العصر شبيهة كل الشبه بآداب الجاهلية الأولى، لا أثر للتجديد فيها إلا في الشعر القصصي الذي انفرد به ابن أبي ربيعة وإلا في الشعر السياسي الذي أدخله الزعماء إدخالاً وأوجدته حال الأمة العربية لأسباب التنافس والأحقاد. على أن هذا الغرض كان موجوداً في العصر الجاهلي ومنشؤه تنازع القبائل على الشهرة بين العرب.

ثم جاء العصر العباسي، واختلطت الأمة العربية بغيرها من الأمم وامتزج الدم العربي بغيره، واستوطن كثير من الأعراب المدن والأمصار فظهرت في الأدب العربي ظاهرة جديدة هي الشعر الطبيعي الذي لم يعرفه الأدب الجاهلي والأدب الأموي إلا قليلاً، لكن المزاج العربي طبع هذا النوع من الأدب بطابعه الخاص المادي فكان حسياً لا يتحدث عن اللون والشكل.

أما الأدب الأندلسي فقد تأثر بذلك المزاج العربي وبالأدبين الأموي والعباسي وخاصة في أول الأمر عند دخول الأندلس، لكن امتزاج هذا الشعب العربي بالعنصر الأندلسي، ودخول هذا العنصر في الإسلام واتخاذ اللغة العربية أداة للتعبير، واختلاف بلاد الأندلس عن جزيرة العرب في الهواء والمشهد وطبيعة الأرض، عملت عملها فأثرت في الأسلوب الأندلسي وطبعته بطابع تلك الأرض الجميلة وصقلته بصيقل ذلك الوسط فأصبح رشيقاً، خاصة عندما ضعف المزاج العربي الموروث أحست الأمة إحساساً غامضاً بالحاجة إلى التعبير عن روحها الأصلية المستوحاة من طبيعة الأندلس فجددوا في الأوزان ولم يجددوا في الروح وتفننوا في الأساليب ولم يتفننوا في الجوهر واللباب.

ثانياً: ما كان يفهم من الأدب عند نَقْدَةِ الإسلام، فإن هؤلاء النقدة كانوا لا يفهمون الأدب على حقيقته من أنه صوت الحياة وبمعنى أوضح، رأوا أن الشعر لا يقصد لنفسه كفن جدي من فنون الحياة له روحه وأطواره ونزعاته، أما القدماء كعمرو بن العلاء وطبقته فقد نظروا إلى لأدب كوسيلة من وسائل الدين، لأنهم درسوه ليفهموا غريب القرآن والسنة وهذا جعلهم لا يفهمون الأدب إلا أنه ألفاظ وتراكيب وجمل وأساليب تساعدهم في فهم إعجاز القرآن، فتعصبوا للشعر الجاهلي، واستشهد دليلاً على ذلك بالأصمعي الذي جالس عمرو بن العلاء ثماني حجج واعتبروا الخير في اتباع العرب

كالاستهلال بالنسيب ووصف الرحلة والأطلال ولو كانوا من سكان الحواضر، وهذا المذهب اللفظي أو الديني الذي انقلب عليه أبو نواس في معظم قصائده واستشهد بقوله:

راح الشقي إلى دار يسائلها
بيكي على طلل الماضين من أسد
ومن تميم؟ ومن بكر سقوا مهلا
لا جف دمع الذي بيكي على حجر
ورحت أسأل عن خمارة البلد
ثكلت أمك قل لي من بنو أسد
ليس الأعراب عند الله من أحد
ولا شفي قلب من يصبو إلى وتد
ويقول:

لا تبك رسماً بجانب السند
ولا تعرج على حمى عرج
وعد عنها إلى دساكركم
ولا تجدد بالدموع للجدد
والنوء كالحوض بالملاجلد
تربط بها خيمة إلى وتد
ومع ذلك فكثيراً ما كان يسترضي السلفين لكي يقبلوا على قصائده.

أما الطائفة الثانية من النقدّة فقد رأت أن الأدب وسيلة من وسائل اللهو وعلى عهدهم انتشرت تلك الأفكار المسمومة التي لا تفهم من الشعر إلا أنه نوع من الشحاذة وضرب من الاستجداء ومن أئمة هذا المذهب ابن رشيق، ومن أثر هؤلاء أصبح لا يعني الأدب العربي إلا باللفظ وما مت إليه من مجاز واستعارة وجناس ومقابلة وإن كثرت ثروته اللفظية وقلت ثروته المعنوية

ثالثاً: لم يطلع العرب في جميع العصور الماضية على آداب الأمم الأخرى، مع أنهم ترجموا من مختلف العلوم العقلية، فترجموا فلسفة اليونان وحكمة فارس وعلومها. أما آداب اليونان والرومان فلم يترجموا منها شيئاً، ظناً منهم أن فيها نزعة وثنية، ويقرر الشابي أن سبب ذلك هو الغرور، فقد كان العرب معتزين بأدهم ويحسبون أنه كل شيء، ولذلك لم يجدوا حاجة تدفعهم إلى ترجمة الآداب الأخرى، وظل المثل الأعلى الذي تحتذيهِ العصور الإسلامية في روحه وأسلوبه هو الشعر الجاهلي.

ولعدم اطلاع العرب على تلك الآداب ظلت آدابهم على حالها في جميع الأجيال زيادة على تلك الدعايات المتكررة التي قام بها طوائف النقدة في جميع العصور. وخلص الشابي في نهاية حديثه إلى القول: تألفت هذه العوامل الثلاثة على إبقاء المزاج العربي

الصميم في نفسيات الأمم الإسلامية وعلى طبع آدابها بالطابع الذي انطبع به الأدب الجاهلي من قبل.

هذا ما قدمه الشابي وباختصار شديد عن الخيال الشعري عند العرب، وقد أثبتته في الكتاب للاطلاع على رأيه ووجهة نظره دون التدخل أو النقد، لأن كتابنا هذا في حياته وشعره، وبإمكان من يريد الاستزادة الرجوع إلى الكتاب بعنوان «الخيال الشعري عند العرب» لأبي القاسم الشابي والاطلاع عليه كاملاً لزيادة المعرفة الكامنة فيه.

شخصية الشابي

عاش الشابي حياة قصيرة من 1909-1934، وعانى من المرض معاناة شديدة، ورغم هذه الحياة القصيرة فقد صدر عدد من الكتب تتحدث عن حياته، وكتبت مقالات عديدة عن أدبه، كما ألقت عناوين متنوعة عنه، فكان شاعر الحب والحياة، وشاعر الحياة والموت وشاعر الحب والثورة، كما صدر ديوان أغاني الحياة، ثم صدرت مؤلفاته عن حياته وعن أدبه، وكثرت الردود على هذه الإصدارات التي تعكس نفسية الكُتّاب والأدباء سواء من كانت تربطهم رابطة القطر والوطن أو من كانت تربطهم به علاقة الشعر والأدب أو من كان لديه حب البحث والعرض، ومن هؤلاء الأدباء من عارض الشابي في فكره ورأيه كما وجد من وافقه وأثنى عليه، ورغم ذلك فإننا نقول إن الشابي كان شاعراً فذاً سواء اتفقنا أو اختلفنا معه، وهذا مما جعلنا نبين عناصر شخصية هذا الشاعر التونسي الذي أصدرت عليه أحكام كثيرة، فما هي هذه العناصر التي كونت شخصية الشابي؟

كان أبو القاسم الشابي منذ صغره ضعيف البنية، نحيف الجسم، مديد القامة، ذكياً حاد الذهن سريع الانفعال، ومع ذلك فقد كان رضيعاً بشوشاً قانعاً متواضعاً خجولاً كثير التسامح، رقيق الطبع لطيف المعشر خافت الصوت قليل التكلف في حياته الخاصة والعامّة⁽¹⁾، وكانت تعلق وجهه دائماً مسحة من الكآبة والوجوم رغم محاولته اصطناع المرح في معظم أوقاته وهذا ما بينه الحليوي أحد أصدقاء الشاعر وكان في زيارة له بينما كان الشابي يصارع الموت: «وهل كان ذلك الذي اقتبلنا هاشاً باشاً حتى جعلنا نُسرُّ من حالته ونحسب شفاءه كأنه أمر محقق، وما درينا أن الرجل يصارع الموت ويغالب آلام النزع ليقوم بواجب ملاطفتنا وإيناس وحشتنا».

ويقول أبو القاسم محمد كرو: «إن حياة الشابي مليئة بالشقاء والألم، عامرة بالأحزان والأتراح، طافحة بالحرمان والتعاسة مغمورة بالكآبة والأسى، ولسنا نعرف شاعراً في مثل بيئة الشابي وأجوائه تجمعت عليه مثل هذه من ضروب العذاب وألوان الشقاء، ففجرت في فؤاده الأغاني، وألهبت قلبه بالحب وقادته إلى حياة صوفية سامية تميزت بتبرمه

(1) عمر فروخ: الشابي شاعر الحب والحياة، ص 116.

العنيف وثورته الجارفة»⁽¹⁾، وليس من شك في أن للبيئة أثراً كبيراً واضحاً في حياته وشعره وتشكيل شخصيته. حيث عاش الرجل في فترة سياسية عصبية، حين كان الوطن العربي يعيش أياماً حالكة السواد تحت ظلم المستعمر الغاشم، ويعاني أهل وطنه فقراً وظلماً وقهراً اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، لأن المحتل لم يكن يحرص على نشر التعليم في البلاد المحتلة حتى لا تتعرض مصالحه للخطر أو المقاومة، وما فعله المحتل للبلاد العربية آنذاك من إرسال البعثات أو فتح مدارس الإرساليات إلا لخدمة أغراضه الخبيثة التي يقصدها، ومع ذلك فقد خرجت مجموعات قليلة عن أطر ما رسمه المحتل فقامت حركات الإصلاح والتجديد واستمدت قوتها من الآداب العربية القديمة، وكان الشابي واحداً من هؤلاء التي تهيأت له الظروف إذا ما عرفنا أنه من أسرة الشابية التي شهد لها سجل تونسي أنها صاحبة باع طويل في القلم والسيوف.

كان والد الشاعر، وهو الشيخ محمد بن بلقاسم عالماً، درس في الأزهر ثم في جامع الزيتونة واشتغل بالقضاء وتنقل في أماكن متعددة مما أتيح للشاعر فرصة التعرف على القطر التونسي من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه ثم ليتعرف على طبائع مختلفة في قطر واحد. فكانت رحلته الأولى في العلم والمعرفة، ثم حفظ القرآن وهو في سنواته الأولى قبل العاشرة من عمره، وكأنه كان يسابق الزمن حتى حصل على شهادة «التطويح» مع أنه مال إلى الأدب والأدباء ولم يعمل قاضياً مثل والده، إلا أنه أظهر عبقرية أصيلة وشاعرية فذة فكانت أولى قصائده وهو في سن الرابعة عشرة، وهذا ينم عن شاعرية مبكرة تظهر نضجاً شديداً تدل على تجارب كثيرة، وإن لم ترَ ضوء النهار، ولم يتذوق حلاوة العيش إلا مدة قصيرة لتقصيفها المنية في بداياتها. ومع ذلك فقد «سجل الشابي في شعره كل همسة بينه وبين نفسه الكبيرة، ولأنه كان صادقاً في شعره، وتحدث عما يشعر به فقد بدت مواقفه متناقضة أحياناً... لأن الحياة نفسها متقلبة كالأنواء»⁽²⁾.

لقد استيقظ الشابي من طفولته الأولى مشدوداً إلى حاجات يومية في حياته، وقد عشق الحياة حراً بدون قيود اجتماعية، فصبا إلى ذلك، ولكنه لم يتحقق، فقد مات والده،

(1) الشابي، أبو القاسم محمد كرو، ص 35.

(2) مع الشابي في ديوانه، حلمي محمد عبد الهادي.

وجعله مضطراً إلى الانغماس في تكاليف الحياة مما حرمه من الراحة والسعادة، فراح يشكو في قصائده قائلاً:

ليت لي أن أعيش في هذه الدنـ يا بوحدتي وانفـرادـي
أصرف العمر في الجبال وفي الغـ بات بين الصنوبر الميـاد
ليس لي من شواغل العيش ما يـصـ ف نفسي عن استماع فـؤادي

هذه أمنيات كان يتمناها الشاعر ويصبو إليها، ولكن هل جاءت من فراغ؟ وهل انبثقت شاعريته من نعيم كان يجياه؟ إن واقع ما قرأناه عن حياته يدلنا على أنه بائس ومتشائم بسبب مرضه الذي رافقه في حياته.

فبعد أن مات والده راح يصارع الحياة ليضمن العيش لأسرته ويرعاها ويدبر شؤونها ليكفيها حياة الكفاف، دون أن يسعى إلى ذلك بشعره، فلم يلج باباً من أبواب الارتزاق من المناصب الحكومية، بل رضي بحياة بسيطة، وهذا ما عناه بعض معارفه: «كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه»⁽¹⁾.

وقد وصف الشابي نفسه وحياته مع أسرته ورعايته لإخوته وأعباء الحياة التي حملها بعد وفاة والده في قصيدة «قيود الأحلام» جاء فيها:

وأود أن أحيـا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
إلا إذا قطعت أسبابي مع الدنيا وعشت لوحدتي وظلامي
وأعيش عيشة زاهدٍ متنسك ما إن تدنسه الحياة بـذام
فأعيش في غايي حياة كلها للفن، للأحلام للإلهام
لكنتني لا أستطيع فإن لي أمأ يصد حنائها أوهامي
وصغار إخوان يرون سلامهم في الكائنات معلقاً بسلامي

فقدوا الأب الحاني فكنت لضعفهم كهفاً يصد عنهم غوائل الأيام.

هذه هي الحياة التي أشغلتها عن دنياه وعن عالمه، وهذه هي الأيام التي حلم أن يعيش فيها حراً، نجده مكبلاً، لأنه ضحى بأحلامه من أجل أسرته التي تركها له والده

(1) الشابي، محمد كرو، ص 76.

إراثاً يحمّله على عاتقيه، فقد هجمت عليه الدنيا بأهوالها، من غير إنذار فتحطمت نفسه على شواطئ رحبة عميقة، وتأججت آلامه، فيقول:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظلماً للحياة وأحتسي من كأسها المتوهج النشوان

أضف إلى ذلك ما عاناه الشابي من المجتمع والبيئة من حوله التي تضافرت عليه قوى الشر من المستعمر الفرنسي، الذي رآه بأم عينه يستغل كل إمكانيات وطنه ويستأثر بها ويسلب خيراته وثماره ويحول بين مجتمع الشاعر وبين كل حركة انطلاق، ليعيش الشعب في الفقر والمرض والجهل، ويقيم العراقيين أمام المخلصين من أبناء وطنه. رأى الشابي كل ذلك مما أثر في شخصيته وولدت عناصر هذه الشخصية.

ومما أثر في شخصيته وشكل عناصرها، مرضه الذي عانى منه والذي كان سبباً في تشكيل اتجاهاته في الحياة وفي شعره، فقد منعه هذا المرض من ملذات الحياة ومسراتها فجاء كثير من شعره متشائماً ناقماً على ما يجري حوله، حيث بدأ تأثيرها على تفكيره وشعره في السنوات الست الأخيرة من عمره وهي السنوات التي أخصبت في إنتاجه الشعري وقد نصحه الأطباء حينذاك بعدم القيام بجهد يتعب الجسم والعقل، فأثر عليه ذلك خاصة عندما استرق همسات أولئك الأصحاب فانفجر بمثل قوله: «سأعيش رغم الداء والأعداء» وقد وضع ذلك الدكتور محمد فريد غازي بقطعة من يوميات الشابي في قوله:

«... ما شرعت أكتب، وكلفت ابن عمي الصغير بأن يسخن سحورنا على البابور حتى اضطربت حركاته وتلعثم لسانه، فلم يستطع أن يبين. فقلت له:

- ماذا؟

- لم أجد بابوراً!

- أنسيته خارج البيت؟

- كلا أدخلته.

- وكيف فقدت إذن؟ أسرقته الشياطين؟ إنك نسيته خارجاً، يا مجنون!

- كلا، بل أدخلته!

- لا تقل أدخلته، يا كلب! وهل سرقته الجن؟ ولو كنت صادقاً اذهب وابحث عنه

خارجاً لعلك تلفيه.

فخرج الصبي، وقد أعمى النوم والخوف بصره، فلم يجده، فعاد والحياة تغشى وجهه. فسألته:

- هل وجدته؟ فقال بانكسار

- كلا، ولكنني أدخلته، والله.

- اسكت، يا كذاب؟

وظل صامتاً وظللتُ أفكر، ثم اندفعت عليه ضرباً وشتماً في ثورة من الغضب العنيف، ثم أفاق أخو الخطيبة فأعطيته حقه من الشتم والتفريع ثم سكت سكوت الغاب بعد العاصفة، وظللت كذلك حيناً.

هذا المقطع من يوميات الشابي يدلنا على أنه كان كئيب النفس وقد صرح بذلك في قوله: «تطغى على نفسي كآبة الملل فأصدف عن الكتب والناس ويوصد قلبي عن جمال الوجوه»⁽¹⁾.

وفي حياته مقالات كثيرة تدل على مثل قوله هذا، فقد تحدث صديقه محمد الحليوي عن ثلاثة أدوار لتشاؤم الشابي، فكان الطور الأول طور التشاؤم القائم، نحى فيه منحى جبران وفي هذا الطور لم يكن سبباً محمداً لتشاؤمه، أما الدور الثاني فكان تشاؤماً مصحوباً بالتعليل والتساؤل: ما نحن؟ ما الحياة؟ ما المهات؟ من أين جئنا وإلى أين نذهب؟ أما طوره الثالث فقد تبدد في كآبة عينيه لتشرق ومضات من الأمل، ويعزى ذلك إلى المناظر الجميلة التي شاهدها في «عين دراهم» التي اصطاف فيها عام 1932 ولأثر شعر «لامارتين».

ومن هذه المؤثرات التي أثرت في شخصيته وانعكست على شعره، مطالعته الواسعة، وتأثره بما قرأه عن الآداب القديمة وهذا واضح في بعض قصائده التي نظمها على نمط شعراء العصر الجاهلي، وهذا واضح في كتابه «الخيال الشعري» من العصر الجاهلي إلى العصر الأندلسي، فقد صرح الشاذلي بو يحيى عنه فقال: «إذا رنت قيثارته أتناك منها أنين اللزوميات للمعري». كما أننا نلمح عنده شيئاً من آراء محيي الدين بن عربي حين قال مقطوعته «قلب شاعر».

(1) هذا المقطع من كلام الشابي في إحدى رسائله إلى محمد الحليوي.

كل ما هبّ ودبّ وما
من طيور وزهور وشذا
وبحرار وكهوف وذرى
وضيياء وظلال ودُجى
كلها تحيياً بقلبي حرة
قام أوجام على هذا الوجود
وينابيع وأغصان تميد
وديار وبراكين وبيد
وفصول وغيوم ورعود
غضة السحر كأطفال الخلود

كما تأثر تأثراً عميقاً بالأدب المهجري، ومن الترجمات العربية عن غيرها من اللغات لأنه لم يكن يحسن لغة غير العربية، كما تأثر برباعيات الخيام «التي شقت أمامه طريق التنوع في القافية وعدد الأسطر، إلا أن يكون قد تأثر في ذلك أيضاً بالموشحات الأندلسية»⁽¹⁾.

وقد أوضح أبو القاسم محمد كرو أن الشابي قد تأثر كثيراً بالأدب المهجري، حيث ملك عليه تفكيره وأدبه، فقد أكثر من القراءة لأدباء شعراء المهجر وحفظ كثيراً من نثرهم وشعرهم منذ أيام طفولته. ويقول خليفة التليسي في معرض حديثه عن الشابي وجبران «وينعقد الإجماع على أن الشابي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية» وقد عقد التليسي فصلاً كاملاً بعنوان «الشابي وجبران». ومن قصائده الخالدة في ذلك قصيدة «إرادة الحياة» التي مطلعها:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
وإذا كان هذا التأثير بحماسة شعراء الجاهلية أو بالمتنبي أو بالأدب المهجري أو بما قرأه من الآداب المترجمة عن الفرنسية والأمريكية وربما اليونانية فإنها كان لها تأثير في تشكيل عناصر شخصيته والتي ظهرت واضحة في أشعاره. لكن مرضه ووفاته والده وفقدانه لحنه الأول بموت حبيبته وحياته المادية، كلها تضافرت معاً لتجعل من هذه الشخصية قصيرة العمر شخصية فذة، أنتجت شعراً وأدباً لم تنتج أعمار طويلة، شكلت عبقرية رجل قوي الشخصية، تصرف ذهن الباحث عن تأثره إلى ميدانه الشعري.

(1) د. عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، ص 126.

فلسفته وشاعريته

عاش الشاب في فترة كانت تهب رياح التغيير على الفكر والآداب العربية، حيث بدأت تظهر في عالمنا العربي الحركة الرومانطيقية، وقد اطلع الشاب على مؤلفات جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة من أدباء المهجر وعلى مؤلفات العقاد والمازني وأبي شادي من جماعة «أبولو». كما درس المؤلفات الرومانطيقية المترجمة عن الأوروبيين، فكان من الطبيعي أن يتأثر بهذه المؤلفات وأن يخطط لنفسه طريقاً داخل هذا الاتجاه. فدعا إلى التجديد في الشعر العربي وصاغ آراءه في كتابه «الخيال الشعري عند العرب». وقد أقام مقارنة بين الشعر العربي القديم وبين الشعر الأوروبي القديم والحديث حتى خلص إلى قوله: «لقد أصبحنا نتطلب أدباً جديداً نضيراً يجيش بها في أعماقنا من حياة وأمل وشعور».

سيطرت على الشاب مشاعر وأحاسيس كثيرة، ربما تعود إلى مثاليته الروحية التي ترى الحق والصدق أقدس ما في الوجود، فاستعان بالطبيعة ذات المناظر الخلابة من أجل جلاء الصور الشعرية التي تجتمع مع جوهر أفكاره ومشاعره التي يريد التعبير عنها.

فأنت حين تعود إلى قصائده تجد أنه أكثر من التمثل بالطبيعة، فصور الليل قلب ينبض، وجعل للزهر جفن فقال:

فلعل قلب الليل أرحم بالقلوب الباكية
ولعل جفن الزهر أحفظ للدموع الجارية

كما جعل للنهار لساناً، وللزنبقة قلب يخفق، وربما كان كل ذلك رموز يصور بها ظلمة الحياة لبحث بعد ذلك عن الحرية وعن الضياء، فالحرية عنده هي الحياة وهذا مبدأ من مبادئ الرومانتيكية التي تسعى دائماً إلى الغاية المطلقة، يقول الشاب في قصيدة «أراك»:

أراك فتحلوا لسدي الحياة ويملاً نفسي صباح الأمل
وتنمو بصدري ورود عذاب وتحنو على قلبي المشتعل
أراك فأخلق خلقاً جديداً كأنني لم أبُلُ حرب الوجود
ولم أحتمل فيه عبئاً ثقيلاً من الذكريات التي لا تبيد

فهو في أبياته كما نراه يسعى إلى حب مثالي، نحس به، فهي عذابات ربما لا تتحقق وسعاده بعيدة المنال، فأمانيه وزود تخفف الآلام، تنمو في صدره، وتحنو على قلبه

المشتعل، فهو عندما يراها يشرق عليه صباح الأمل، لئسّر دلالة اللفظ مع المعنى الذي يحتاجه، لكنه أمل غير ثابت وغير مستمر، لأنه يسير مع دورة الصباح الذي لا يلبث أن تغيب عنه الشمس حتى يخيم الظلام، فيكني بالأمني التي أحبها بالورود التي تتنامى بالضياء والماء، وتتجدد برؤية الحبيب.

لقد أبدع الشابي صوراً فنانة من خياله وتفكيره وإحساسه، فألف بين الصور المتعددة حتى كوّن إبداعات جديدة تطلع بها إلى درجات سامية كالتي شكلها في قصيدة «صلوات في هيكل الحب» أو «في ظل وادي الموت» وجاء بالمعاني النادرة حين يقول:

أنت ... ما أنت؟ أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وسحر وجمال مقدس معبود
أنت روح الربيع تحتال في الدنيا فتتهز زرائع الورد
وتهب الحياة سكرى من العطر ويدوي الوجود بالتغريد

فالشاعر يخرج إلى الطبيعة، فهي رسم عبقري فيها الغموض والسحر والجمال خاصة عندما تأتي روح الربيع وتمايل الورود الرائعة من تلك النسائم. تشخيص عجيب «روح الربيع» هي روح الشباب ونضارته، فتقدم للحياة عطراً فوّاحاً تتشابك فيه أغاريد الطيور صورة ناصعة، وسريرة بيضاء لا يشوبها أخطار، عالم تفتح أمامه فنظر إليه بعينه، لكن قلبه وفكره سرّبا الصور إلى عقله الباطني، فأخرجها مترجمة برؤيته الشعرية وخياله الفذ وإحساسه المندفع المتدفق، ليكون في النهاية بموهبته التي استغلها قصيدة ترسم صوراً قوية في ذهن السامع أو القارئ:

أنت تيمين في فؤادي ما قد مات في أمسي السعيد الفقيّد
بعد أن عانقت كأبّة أيامي فؤادي وأجمت تغريدي

هذا ما يحس به، شعور لا يستطيع أن يتجاهله لأن شاعريته تكشف عن كوامن

صدره:

في فؤادي الغريب تخلق أكوان من السحر ذات حسن فريد

هذه كلها كامنة أراد أن يخرجها بتلك الشمس الوضاء والنجوم المنتشرة في الفضاء المديد والربيع الذي شخصه كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب، وتلك الرّبة في الحلّك الداجي والطيور المتناغية بالأناشيد الحلوة، كل هذا استمدّه من الطبيعة، التي كان

يلجأ إليها إذا ما ضاق صدره ليعيد البسمة إلى حياته ويشد عزمه ليخرج من تلك الكآبة التي سلطها المرض أو ثقل الحياة عليه.

وهذا هو أيضاً في «ألحاني السكري» تلك القصيدة التي استطاع بها نقل القارئ بقوة الابتكار وروعة التجديد في المعنى، وتلك الرمزية التي طاف بها وهي تدوي بأغاريد الشباب ليصور المحيين كالطائر في الأفق الساجي:

نحن مثل الربيع نمشي على أر ض من الزهر والرؤى والخيال
فوقها يرقص الغرام ويلهو ويغني في نـشوة ودلال
وبينها هو كذلك في أبياته وفي خياله كالروض في شبابه يرقص الغرام ويلهو به
ويغني في مرح وسرور وسعادة ودلال، تأتي روح الثورة والتمرد على كل ما في الوجود
ولكنه تمرد الساخر:

أيها الدهر، أيها الزمن الجاري إلى غير وجهة وقرار
أيها الكون أيها الفلك الدوار رب الفجر والندى والنهار
أيها الموت أيها القدر الأعمى قفوا حيث أنتم أو فسيروا
صرخة مدوية في آذان الدهر، في آذان الكون بل وفي آذان الموت، صيحة هازئة بكل
ما حوله، ولكن لم كانت هذه الصيحة وتلك السخرية، لأنه بجانب حبيته فيقول:

دعونا هنا تغني لنا الأحلام م والحب والوجود الكبير
وإذا ما أبيتم فاحملوها ولهب الغرام في شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر وبالسحر والصبأ في يدنا

في هذه الأبيات تحد قوي وشديد للدهر والكون والموت، ويهتف بهم جميعاً أن يتركوه لتغني الأحلام والحب والوجود، ثم يتراجع تدريجياً ليصرح من جديد إن أبوا أن يتركوه مع الحبيبة في وحدتهما «ولهب الغرام في شفتينا» أو والزهور تعبق بالعطر والسحر والصبأ، لأنه يملكها جميعها في يديه ويرى الغرام أسمى هبة للشاعر.

ثم نراه بعد ذلك يعرض علينا صورة نفسه، وقد رغبت هذه النفس عن المجد وما يشغلها وهو ما زال في أول شبابه ينعم بالرضا والأمل الباسم، ومع ذلك فهو يبكي، ولكن ما الذي أبكاه؟، الشاب نفسه يقدم لنا الجواب فيقول:

إنما أبكيك للحب الذي كان بهما
 يملاً الدنيا فأنى سرت في الدنيا أراه
 فإذا ما لاح فجر كان في الشدو صدها
 وإذا ما ضاع عطر كان في العطر شذاه
 وإذا ما راف زهر كان في الزهر ضياه

هذه هي نظرته إلى الحياة، نظرة فيلسوف يجمع فيها بين اللذة والنوح من الألم، فيهتف من أعماق قلبه مستصرخاً الجراح الدامية، لتكف عن النوح والأين، وهل تسمع هتافه وصرخاته؟ استمع إليه يقول:

اسـكـتـي يا جـرا ح واسـكـنـي يا شـجـون
 مـات عـهـد النـوا ح وزمـان الجـنـون
 وأطـل الصـبا ح مـن ورا القـرو ن

هذه ليست صرخات شاب يافع، إنها صرخات شيخ أكل الدهر عليه وشرب، كأنه عاش دهرًا وتمرغ في التجربة زمنًا، فقد حوى قلبه الخافق بمعاني الحب والجمال، وتفنن في رسم الشباب السعيد والآمال العريضة، أعجبت زينة الماضي فزين يد السحر، فطلب من الجراح أن تهدأ أو تسكت وطلب من الشجن السكون، وتتجلى الصورة عنده بموت عهد النوح، وفوات زمان الجنون، ليطل الصباح ومن أين وكيف؟ يطل الصباح من وراء القرون. هذا هو الشابي وهذا خياله وتفكيره وبالتالي هكذا جاء نظمه، ولكن هل بقيت هذه الصورة الكاملة المتكاملة وهو يقول:

في فـؤادي الرـحـيـب مـعـبـد للـجـمـال
 شـيـدته الحـيـاة بـالرؤى والخـيـال

ومرة أخرى يتحدى الزمن، ويتحدى الدهور، بقلبه العامر بالحياة الذي شيده بالرؤى والخيال، ليعود بالتدرج فيقول:

فـتـلـوت الصـلا ح في خـشـوع الظـلـال
 وحرقت البـخـور وأضـاءت الشـمـوع

صور شكّلها بخياله متشابكة، وكأنه أحس بقدم القدر وقرب المنية، وأن رحلة حياته قد ركبت سفينة أخرى إلى شواطئ أخرى بعيدة فيصفها بألم حاد شديد:

الوداع الوداع يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي في الخضم العظم
ونشرت القلاع فالوداع الوداع

هذا ضرب من الشعر، رثاء للنفس وهذا يذكرني بنهاية حياة إبراهيم طوقان ذلك الشاعر الذي مات شاباً في الثلاثينيات من عمره حين أحس بقرب منيته، فرمى برأسه على صدر أمه، وها هو الشابي يودع الطبيعة حتى في مماته، يرسم صورة الهموم التي علت عمره وكأنها الجبال، ليعود إلى مرضه في ضباب مأسيه وفي فجاج جحيمه، فيلجأ إلى زورقه ويخوض هذا البحر العميق وينشر قلاعه وهو يراها في يديه «الوداع الوداع».

صور كثيرة في شعر الشابي، تنم عن تجربة شعرية عميقة، ينفثها من صدره وخياله في وقتها، وكأنه رسم لنفسه طريقاً لا تنتهي، فهو يتقل من قصيدة إلى أخرى وكأنها تتابع قصص تأتي الواحدة تلو الأخرى فهذه قصيدة «قلب الأم» التي تمتلئ بالعاطفة الجياشة المتفجرة في رثاء طفل صغير يبكي مصرع الإنسانية، حين تركه أقرانه وقفلوا إلى لهوهم فتلاشت ذكراه وأسدلت الستائر عليه، لكن قلباً واحداً لم ينسدل عنه ولم يستطع أن ينساه، إنه قلب الأم. هذا الطفل صرخته الحياة حين انقضض عليه الدهر وأنشبت أظافره فألقى به مضرجاً في غياهب الزمن فتأتي صرخة الشاعر على لسان أمه فيقول:

يصغي لنغمتك الجميلة، في خريبر الساقية
في أنفة المزممار في لغو الطيور الشادية
في ضجة البحر المجلجل في هدير العاصفة
في لجة الغابات، في صوت الرعود القاصفة
في أهة الشاكي وضوء الجموع الصاخبة
في شهقة الباكي يؤججه نواح النادية
في فتنة الشفق الودييع وفي النجوم الباسمة
في رقعة الفجر البديع وفي الليالي الحاملة
في رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجوم
في سحر أزهار الربيع وفي تهاويل الغيوم

أي عبقرية هذه التي يحملها صدر الشابي، يصف الحدث بكل دقائقه، وما أظنه إلا يرثي نفسه بقلب مفجوع، يرى صورة الفقيد في كل مكان في خريف الساقية، في أنة المزمار في موج البحر في لغو الطيور «الشاردة» في عمق الغابات، في الشفق والنجوم، في الورود الداوية ليأتي في نهاية الصورة العجيبة التي شكلها فيقول:

أعرفت هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحود
هو قلب أمك السكرى بأحزان الوجود

هذا هو الشاعر الذي يعمد إلى خياله وتفكيره وتصعيده للمواقف فيؤلف بين أشتات الصور، التي تتحد لإبداع صورة جديدة.

ربما أحس الشاعر بدنو أجله، فخال نفسه وقد ذوى شبابه، فغيب في باطن الأرض وهو ما يزال شاباً فوصف بإبداعه الأم الحزينة السكرى بأحزان الوجود، هذا الطفل تركه الأتراب والمشيعون وعادوا إلى لهوهم وبقي قلب الأم حزيناً مترعاً بالأحزان وسط الغابات في الطبيعة التي يلجأ إليها كثيراً في خياله وكهوف أفكاره.

أما في قصيدة «الدموع»، فهو يبوح بنوع من الشقاء الوجودي الصرف، أو أنه يعترف بتنازعه بين قوى الخير والشر، فهو يقتنص السعادة دون أن يبذل في سبيلها كرامته، والظلم والشر ربما لا يأتیان من الناس فقط، بل من الدهر الذي يوهم الإنسان بالنجاح والفرح، والشاعر الشابي كان يبحث عن الحق الضائع ويتحراه ولكنه لا يجده، فيعود إلى نفسه لبحث عما يريد، وربما تكون هذه التجربة في هذه القصيدة «الدموع» مكررة إلا أننا نجدده يصفها وكأنه يعاني للمرة الأولى فيقول:

ينقضي العيش بين شوق ويأس
وينسي بين لوعة وتأس
هذه سنة الحياة، ونفسي
لا تود الرحيق في كأس رجس

انظر إليه وهو ينظر إلى الحياة بين الشوق واليأس، فالدهر قلب، أو كما يقول بين اللوعة والتأسي، ثم يرفع الراية البيضاء وهو يعترف بأنها سنة الحياة، وأن نفسه لا تقبل الشر ثم يكمل الصورة:

مُلِيَ الدهر بالخداع فكُم قد

ظَلَّلَ النَّاسَ مِنْ إِمَامٍ وَقَسَّ
إِذْ هُوَ لَا يَبْغِي الْيَأْسَ وَلَا الْكَآبَةَ وَإِنَّا يَتَصَوَّرُهَا مَفْرُوضَةً عَلَيْهِ لِأَنَّهُ يَعلَنُ:
كَلِمًا أَسْأَلُ الْحَيَاةَ عَنِ الْحَقِّ
تَكْفِيفَ الْحَيَاةَ عَنِ كُلِّ هَمٍّ

والشاعر نفسه يذهب في قصيدته «ظل وادي الموت» إلى فلسفة الحياة والموت في صورة أعمق، بشواغل وهموم وتساؤلات تجول في أذهان المفكرين والفلاسفة منذ القدم، لكنه يأتي بصور أشد وأعمق، فهو يصور الموت كالرياح التي تقتلع الأطوار الشائخة، وهذا ربما بسبب مرضه الذي زلزل حياته واجتثها مبكراً، ولنقرأ ما جال بخاطره في مثل هذه الأمور:

نحن نمشي وحولنا هاته الأكو
نحن نشدو مع العصافير للشمس
نحن نتلو رواية الكون للمو
نحن نمشي ولكن لأية غاية
وهذا الربيع يفتح نايبه
ت ولكن ماذا ختام الرواية؟

هذه الحياة في فلسفته كأنها رواية، يمشي البشر حولها إلى أين؟ وهم ينشدون
كالعصافير أو كالربيع يفتح نايبه، إذن هي آمال مبعثرة:

قدرت معنا مع الحياة طويلاً
وعدونا مع الليالي حفاة
وأكلنا التراب حتى مللنا
وشدونا مع الشباب سنينا
في شعاب الزمان حتى دميننا
وشربنا الدموع حتى روينا

أهي صحوة الشباب؟ أم هي مقدمة لنهاية حياة؟

هاته فالظلام حولي كثيف
هاته يا فؤاد إننا غريباً
وضباب الأسى مُنْخِج علينا
ن نصوغ الحياة فناشجياً

وهل يستطيع أن يصوغ حياته مع قلبه المريض كيفما يشاء؟ ولنسمعه ماذا يقول:

في ظلام الفناء أدفن أياً
وزهور الحياة تهوي بصمت
جف سحر الحياة يا قلبي البيا
مي ولا أستطيع حتى بكاهها
محزن مضجر على قدميا
كي... فهيا نجرب الموت هيا

فالأبيات كما تراها تطل علينا بحالة نفسية يطول شرحها، فالشاعر فيها صاحب حكمة عريضة، فيلسوف يبكي حظه كإنسان، وقد أورد الشابي غير هذه القصيدة في فلسفته للحياة مثل قصيدة «شكوى ضائعة» هجا فيها القدر، وقد قرن فيها الليل بالوحش الخفي والعدو المستور، الذي ينوه به عن وجه الظلم والقهر، وقد تغلبت فيها الحقائق على الذات فهو يقول:

يا ليل! ما تصنع النفس التي سكنت
هذا الوجود ومن أعداؤها القدر
ترضى وتسكت؟ هذا غير محتمل
إذا فهل ترفض الدنيا وتتحرر
وذا جنون لعمري كلسه جزع
بـالكِ ورأي مريض كلسه خور

يخاطب الليل ويبحث عن النفس التي وجدت والقدر يلاحقها، وترضى بما يفعلها وتسكت رغم احتماها، وان رفضها لا ينفع، ومخاوف هذه النفس البشرية بكاء ومرض وضعف.

إذن هي نظرة فلسفية يراها الشاعر فيقصدها ليصور منها قصيدة ملتاعة بالصمت حيناً أو القهقهة حيناً آخر:

وعاد للصمت يصغي في كآبته كالفيلسوف إلى الدنيا ويفتكر
وقهقهة القدر الجبار سخرية بالكائنات تضاحك أيها القدر

إلى أن يصل بالصورة الفلسفية في قوله:

تمشي إلى العدم المحتوم باكيةً طوائف الخلق والأشكال والصور
وأنت فوق الأسى والموت مبتسم ترنو إلى الكون يُبنى ثم يندثر

إذن هو حديث عن الخلق والوجود بأكمله، يولد الإنسان ويجيا ولكن المصير المحتوم معروف لكل الخلق، ومع أن الناس يعرفون هذا المصير المحتوم إلا أنهم مبتسمون فرحون يأملون بالعيش فيبنون ثم يموتون.

وفي قصيدة أخرى أجرى الشاعر حديثاً أو قل حواراً فلسفياً حول الحياة والموت والخلود والكمال في قصيدة «حديث المقبرة» الذي صور فيها صوتان: صوت الشاعر

المتشائم، وصوت الفيلسوف الذي يظهر حكمة الوجود، والصوتان يجسدان الثنائية والتنازع، وربما هي صورة تتردد في أشعاره التي تفيض بالصور والانفعالات، مثل قصيدة «فلسفة الثعبان المقدس» التي تمثل فلسفة القوة والتي تعتبر دليلاً على مذهب الشايبي، حيث اتخذ من الثعبان رمزاً للشر والطغيان، فبعد أن يصف لنا ما كان ينعم به الإنسان، نجد أن الثعبان قد عز عليه أن يرى هذا الإنسان متنعماً فينقّص عليه دون ذنب اقترفه، فكأن هذا الشر يرى أن سعادة هذا المسكين جريمة فيقول:

كان الربيع الحي روحاً حالمًا غصّ الشباب معطر الجلباب
يمشي على الدنيا بفكرة شاعر ويطوفها في موكب خلاب
والكون من طهر الحياة كأنها هو معبد والغاب كالمحراب
الشاعر الشحرور يرقص منشداً للشمس فوق الورد والأعشاب

هكذا يصف الحياة الهادئة الوداعة، يهنأ فيها الإنسان، ثم يأتي الشاعر بأغانيه ويصف هذه الحياة السعيدة ثم لا تلبث أن تنقلب بفعل هذا الشرير الذي جاء ليسلب هذه السعادة:

ورآه ثعبان الجبال فغمّاه ما فيه من مرح وفيض شباب
وانقضّ مُضطغناً كأنه سوط القضاء ولعنة الأرباب

انظر كيف بخياله الواسع وبراعته في تشكيل المناظر، يرسم هذه الصور ليقدمها في حوار متماسك بين ضدين:

وتدفق المسكين يصرخ ثائراً ماذا جنيت أنافحق عقابي
لا شيء إلا أنسي متغزل بالكائنات مغرد في غابي

هذا هو ذنب ذلك المسكين، أنه انطلق بحرية ينشد ويغني داخل الغابة الرحبة في أحضان طاهرة يبث إليها حبه الصافي، لكن سعادة الضعفاء جريمة يستحقون عليها العقاب الشديد من القوي، فهو يتحدث بحكمة الشاعر الفيلسوف الذي أحب الحياة والحرية والانطلاق فيها، وهذا قول حق في زمن التيه والغفلة، أوطان تحتل وتستغل ثرواتها والقوي يفرض ما يريد وما على الضعيف إلا القبول والاستسلام، وأظن لا شيء أكثر من هذا في إهدار كرامة الإنسان، رغم كل التنازلات التي قدمها هذا المسكين الضعيف.

وسعادة الضعفاء جرم ماله عند القوي سوى أشد عقابي
لا أين، فالشرع المقدس ها هنا رأي القوي وفكرة الغلاب
ثم يصرخ صرخة أخرى ليشهد الدنيا على نفسه فيقول:

ولتشهد الدنيا التي غنيتها حلم الشباب وروعة الإعجاب
(أن السلام حقيقة مكذوبة والعدل فلسفة اللهب الخابي)
هذا حديث الشاعر عن فلسفة واقعية يراها بعينه، وجعلها حواراً بينه وبين ذلك الثعبان الذي يعيش في الجبل ليصور نتيجة حتمية يقولها الشاعر وغيره.

لا عدل إلا إن تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب
قول قديم قاله الشاعر ليستعيره المحدث بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، فالعدل لا يعود إلا بين طرفين متعادلين، ومقابلة الإرهاب بإرهاب مثله وأشد منه أحياناً ليزول الخنوع والظلم عن هذا الإنسان الضعيف، حكمة قالها الشابي في وسط الثلاثينيات من القرن الماضي، وكأننا ما قرأنا حكمة ولا تعلمنا من أدب أو شعر ثم يقول على لسان الثعبان:

إني إليه طالما عبد الوري ظلي وخافوا العنتي وعقابي
وتقدموا لي بالضحايا منهم فرحين شأن العابد الأواب
وسعادة النفس التقيّة أنها يوماً تكون ضحية الأرباب

فالظلم في الأبيات إليه، ونحن نخاف هذا الإله فلا نعصيه، وهذا تحريض واستفزاز من الشاعر على مقاومة الظلم والوقوف أمامه بكل ما يحمل الإنسان من قوة ليقاوم طغيانه، لا أن يقدم المقهور القرابين لضمان سكوت الظالم وكسب رضاه، لأنه لن يسكن ولن يرضى، وهذا أسلوب بديع على تحفيز الهمم وإثارة الحمية في نفوس المظلومين يصوره الشابي وينطبق على أزمان متعددة، ولماذا نذهب بعيداً ونحن وبعد أكثر من سبعين عاماً يتكرر المشهد؟ فقد عاش الشاعر هذه المعاني، ونعيشها نحن اليوم لأن السعادة فقط مقصورة على الأقوياء، وإذا ما حاول الضعيف أن يسري عن نفسه فإن العقاب هو جزاء محاولته.

على أن روعة التعبير تكمن في تلك الحكم التي يسوقها الشابي ليحصل الإنسان على سعادته من أخيه الإنسان:

أفلا يسرّك أن تكون ضحيتي فتحل في لحمي وفي أعصابي
إني أردت لك الخلود مؤلها في روحي الباقي على الأحقاب
فكّر لتدرك ما أريد وإنه أسمى من العيش القصير الناي

هذا هو مذهب الشابي وهذه هي فلسفته وحكمته، فهي لم تكمن في الرومانتيكية ولا في محاولة التجديد، وإنما تكمن في صورته الرائعة وألوانه المتميزة ودعوته الصريحة في إنقاذ المظلوم التي انبثقت من مواجع الشاعر الروحية والنفسية والاجتماعية التي أدت إلى مواجهه الجسدية.

أحب الشابي الحياة رغم المرض الذي نغص عليه عيشه، فرثى لنفسه حين شعر بدنو أجله، وحرص أهل شعبه للقيام من رقدته حين رأى الظلام يكتنف وطنه، وناصر المظلومين والمقهورين بصرخات متتابعة مدوية، فكان شعره صوت كل مظلوم. وكان معلماً لكل من يسعى للحرية والاستقلال، ونبّه في قصائده متعددة أن ذلك لا يكون بالأمنيات ولا بالدعوات ولا برفع الشعارات، ولكن بالقوة التي يعتبرها سبباً للنصر، وقد وضح أنواع القوة ومن بينها التخلص من الجهل الذي هو سبب كل تخلف وخنوع فقال:

يا قوم عيني شامت للجهل في الجونارا
تتلو سحابة ركاماً يتلو وقتاماً مثارا
تلفني الشديد صريعاً تبقي الأديب حمار

هذه صورة من الصور التي يوضح من خلالها بلاء الأفراد والشعوب، والذي يجعل الشعوب بدون سلاح العلم وقوته تحت وطأة القوي الظالم وأهدافه:

وكذلك تتخذ المظالم منطقاً عذباً لتخفي سؤة الآراب

بكل هذه المعاني يظل الشابي مدافعاً عن المظلومين والمقهورين، وهو يتصور أنه واحد منهم، وتبقى قصائده نغماً عذباً على شفاه الشعوب ولكن هذا الصوت وتلك الصرخات لم تكتمل، فقد اختطفه القدر مبكراً في ميعة الشباب، ولو أمد الله في عمره لجادت هذه القريحة بالكثير من المعاني والصور، ولكن شعره يظل مدوياً ويبقى شعره يملأ الآفاق بالآمال العريضة التي تستنير بها الشعوب المظلومة والمقهورة حتى تنال حريتها.

هذا وقد كان للشابي موقفاً فكرياً خاصاً به يهدف إلى التجديد في الحياة كلها، وكان يسعى إليه دائماً بكل ما أوتي من قوة، تجديد في النواحي الأدبية والاجتماعية والسياسية

والفكرية، وهذا واضح من خلال حديثه في مقدمته لكتاب «الخيال الشعري عند العرب» حين قال: «لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة؛ أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة». وهذا ما جعله يتعاطف مع جماعة «أبولو» التي هدفت إلى تطوير الشعر العربي وتحريره من القيود والقوالب والموضوعات التقليدية التي عرفت في العصور السابقة، وخاصة في العصر الجاهلي، وكان الشابي ينشر قصائده في مجلة أبولو، ويتلقى ردود الفعل عليها حتى اشتهر وذاع صيته في بلاد المشرق. وكانت بعض هذه الردود قاسية، حيث اتهم بالمغالاة والتطرف حينذاك، لأنه انتقص من آداب الأجداد على رأي مختار الوكيل، وهو من جماعة أبولو، لتقريره في كتابه الخيال الشعري قوله: «إن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره، كان على وتيرة واحدة، ليس له من الخيال الشعري حظ ولا نصيب» وقد خلاص إلى ما يخدم مذهبه في التجديد بقوله: «ينبغي لنا أن لا ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعده كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها، ليس غير...».

وقد وصل الشابي في وقت ما إلى الإحباط من بعض النقاد حين تنكر الجمهور له أثر التحريض، حين لم يجد أحداً في النادي أثر محاضراته عن الخيال الشعري «أثر مسامرتة الأولى» مما عكس ذلك شعوراً مخزناً لدى الشابي وهذا أوحى له قول قصيدته «النبى المجهول» ومطلعها:

أيها الشعب ليتني كنت خطاباً فأهوي على الجذوع بفأسي
إلى أن يقول:

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغسي
أنت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي

وربما جاءت آراء وأفكار الشابي بسبب المقارنة بين الآداب العربية والآداب الغربية سواء في التفكير أو أسلوب العرض أو الاستنتاج، ولم يخطر ببال الأدباء التونسيين

حينذاك أن الأدب عبارة عن وظيفة فكرية اجتماعية تتعاطى مع الحضارة في البيئات أو العصور، فالشاعر أو الأديب لا يقارن إلا بمن عاصره، وفي الإطار الحضاري الذي نشأ فيه. ومع ذلك فقد أخذ الجيل الذي تلا الشابي برأيه واقتدى به وسعى إلى تحقيق حياة قوية مشرقة، ولكن هل وقف الشابي عند الظواهر التفصيلية للأدب «القديم»؟ وهل استطاع أن ينفذ إلى جوهر الإطار الذي انبثقت منه حضارة العرب وعنه انبثقت اتجاهات الأدباء والشعراء الإنسانية العامة؟

حقيقة إن الشابي كان مفتوناً بالشعر، مولع بالدفاع عنه، ويظهر هذا الاندفاع في قصائد متعددة منها: «يا شعر» التي يقول فيها:

يا شعر أنت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب
يا شعر أنت صدى نحيب القلب والصبُّ الغريب
يا شعر أنت مدام علقّت بأهداب الحياة
يا شعر أنت دم، تفجر من كلوم الكائنات
يا شعري يا قيثاره الأحلام يا ابن صبابتي
لولاك مت بلووعي وبشقتوتي وكآبتي
فيك انطوت نفسي وفيك نفخت كل مشاعري
فاصدح على قمم الحياة بلووعي يا طائري

وفي قصيدة أخرى «شعري» يقول:

شعري نفائسة صـدري
لـولاه ما انجاب عني
ولا وجـدت اكتـسابي
بـه تـراني طـروباً
إن جـاش فيـه شـعوري
غـيم الحـياة الخـطير
ولا وجـدت سروري
أجـر ذـيل جـسوري

وكان عفيفاً في شعره غير متكسب أو ناظراً إلى نوال أو عطايا وإنما كان يقصد الشعر

ليروي به فكره وعقله وهو في هذا يقول:

لا أنظـم الشـعر أـرجو
بمـدحـة أو رثـاء
حـسبي إذا قـلت شـعراً
بـه رضـاء الأـمير
تـهدى لـربّ السـرير
أن يـرثـه ضـميري

كان ينظر إلى الشعر على أنه حبيب أو صديق أو عشيق، يشخصه ويجسمه ويتحدث إليه، ينظر إليه على أنه وسيلته التي ينفث إليها ما في صدره. وها هو يقول: «قلت للشعر»:

أنت يا شعر فلذة من فؤادي
فيك ما في جوانحي من حنين
فيك ما في خاطري من بكاء
أنت يا شعر قصة عن حياتي
أتمسسه في الصباح لأنسى
وأناجيه في المساء ليلهيني
فيك ما في الوجود من نغم
تتغنى وقطعة من وجودي
أبديّ إلى صميم الوجود
فيك ما في عواطفي من نشيد
أنت يا شعر صورة من وجودي
ما تقضى في أمسي المفقود
مرآه عن ظلام الوجود
حلو وما فيهم ضجيج شديد

واستجابة لفكرته وإيانه وإحساساً بمذهبه الأدبي، راح يقدم فكره هدية لغيره، فقد خاطب الجمهور بشرائحه وخاطب الفنان بشعوره فقال في قصيدته «فكرة الفنان»:

عش بالشعور، وللشعور فإنما
شيدت على العطف العميق وإنها
وتظل جامدة الجمال كثيبة
وتظل قاسية الملامح جهمة
واجعل شعورك في الطبيعة قائداً
وافتح فؤادك للوجود وخلّه
فتعيش في الدنيا بقلب زاخر
في نشوة صوفية قدسية
دنياك كون عواطف وشعور
لتجف لو شيدت على التفكير
كالهيكل المتهدم المهجور
كالموت مقفرة بغير سرور
فهو الخبير بتيها المسحور
للسيم، للأمواج، للسديجور
يقظ الشاعر حالم مسحور
هي خير ما في العالم المنظور

هكذا كان الشابي في فلسفته وفي عناصر تفكيره، نشوة صوفية قدسية، لها علاقة بأحلام الروح وآلام الجسد، وهكذا كان الحب عنده يسمو في نفسه إلى حد القداسة، لا تتنازعه شهوة بل يقتصر على النشوة، يستمدّه من المرأة والطبيعة، فالحب عنده كمال الطبيعة والنفس وهو الزهرة المفتحة وهو النسمة التي يتضوع منها العبير وهو الجمال والخير والفن وهو يستدعيه ليدرك به سعاده:

كيلي يا سلاسل الحب أفكارى وأحلام قلبي الضليل

كبليني بكل ما فيك من عطر وسحر مقدس مجهول
كبليني فإنها يصبح الفنان حرّاً في مثل هذه الكبول

حبه في شعره عذري، حب أحلام وأماني يحمل في طياته نشوة وذهول وحنو
وخفوق، يتحدث عنه من بعيد:

ليتني كنت زهرة تتثنى بين طيات شعرك المصقول
أو فراشاً أحوم حولك مسحوراً غريقاً في نشوتي وذهولي
أو غصوناً أحنو عليك بأوراقتي حنو المدللّ له المتبول
أو نسيماً أضرم صدرك في رفق إلى صدري الخفوق النحيل
فهو يتحدث عن الحب في توحد الوجود وائتلاف عناصر الحياة من جمال وسعادة
وامرأة وطبيعة وغناء، وتراه في قصيدته «تحت الغصون» يقفز إلى الطبيعة بألوانها وأشكالها
ليعبر عن حبه برومانسية يتدع فيها أشواقه وأحلامه في عالم متحرر من قيود الحاجة
والداء والضرورة، وتراه لشدة إغراقه بالطبيعة فإنه يتغنى بالعبير والربيع كما يراهما:

للعبير الذي يرفرف في الأفق ويغني مثل المنى في سكون
للربيع الذي يؤجج في الدنيا حياة الهوى وروح الحنين

ويتعرض إلى عيون الحبيبة فيغرق في التداعي والتخيل بعذوبة شديدة فيقول:

أيّ دنيا مسحورة أي رؤيا طالعنتني في ضوء هذه العيون
زمرّ من ملائك الملائك الأعلى يغتّبون في حنو حنون
في فضاء مسورٍ ساه أطفقت به عذارى الفتون

ويسير في وصف عالم الحب ليصف الطبيعة بمعبد الحب فيقول:

معبداً للجمال والحب شعرياً مشيداً على فجاج السنين
تحتّه يزخر الزمان ويجري صامتاً في سبيله المحزون
وتمر الأيام والحزن والموت، بعيداً عن ظلّه المأمون

وهكذا نراه يضيف بعداً وجودياً جديداً يتنازع فيه مصيره وإحساسه، مفاجئاً

بالزمن وهموم البقاء والفناء.

الشابجي وإقرانه من الشعراء

وُلد الشابجي في العقد الأول من التسعينيات في تونس، وقد تركت هذه الفترة من التاريخ العربي أثراً واضحاً في شعرنا الحديث، مرحلة بعث جديدة ازدادت مع الأيام قوة حتى أصبح اليوم تياراً يسوق القارئ نحو آفاق تختلف عن العصور التي سبقته، وقد كان لهذا التيار ظروفه السياسية والثقافية والاجتماعية، ولعل أهم ما جدّ على شعرنا الحديث هو التجديد في المفهوم والتعبير، وربما كان هذا التجديد ناتجاً عن الاتصال المباشر بالغرب أو البعثات العلمية ونشاطاتها أو دخول المطابع إلى البلاد العربية وحركة الترجمة ونشوء الصحافة.

عاصر الشابجي ثلثة من الشعراء على امتداد الوطن العربي، والذين تأثروا بالأحداث الجارية وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فاستجابوا لحاجات الأمة في إذكاء العواطف الوطنية وناهضوا المحتل من الدول الأجنبية والغريبة للرحيل عن الديار العربية، وكأنهم وضعوا نصب أعينهم تحريض الجماهير العربية على التسلح بالعلم وقهر الجهل والتمسك بأسباب القوة، وجاءت جل أشعارهم على هذا المضمون، ومقابل ذلك فقد اهتموا بشكل القصيدة متأثرين بالثقافات الأخرى، وكان من أهم ذلك هو تغيير بنية القصيدة العربية.

ثم قامت معارك أدبية حادة بين فصائل الشعراء فمنهم من دعا إلى إحياء التراث القديم أمثال محمود سامي البارودي وبين دعاة التغيير والتجديد والإصلاح، وكان كتاب الدكتور طه حسين «في الأدب الجاهلي» مثلاً على ذلك.

ومن الذين عاصروا الشابجي من شعراء الوطن العربي فوزي المعلوف وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران من أدباء المهجر، كما عاصره أديب مظهر وأبو شبكة من لبنان، وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه من مصر، وفهد العسكري من الكويت. أما من الأردن فقد عاصره مصطفى وهبي التل ومن فلسطين كان إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود وتجاوز بعض السنين فنقول بدر شاكر السياب من العراق، وهناك عدد غير قليل أيضاً عاشوا في نفس الفترة الزمنية.

وكان بين هؤلاء تشابهاً في بعض جوانب حياتهم، مع أن كل واحد منهم يعيش في بلد من بلدان الوطن العربي، لكنه كان يجمع بينهم حس قومي ووطني واحد، وهو دعوة الشعب إلى النهوض لنيل الحرية من المحتل الجاثم على أرض الوطن العربي.

لم يعيش الشابي فترة طويلة فقد وُلد عام 1909 وتوفي عام 1934 وقليل هم الشعراء الذين عمّروا كثيراً، وقد شهد تاريخنا العربي ثلاثة شعراء قضوا في ميعة الشباب، وأعني أنهم ماتوا وأعمارهم لم تصل الثلاثين ربيعاً وكان أقدمهم طرفة بن العبد ثم أبو فراس وثالثهم شاعرنا أبو القاسم الشابي، الذي فاق أقرانه رغم قصر حياته، وليس من باب الصدفة أن يلتقي هؤلاء الشعراء في مجمل إنتاجهم الشعري على الإقبال الشديد الحار المتوثب على الحب وعبادة الجمال أو نشدان الحياة العنيفة أو الإحساس بالفراغ والألم وباختصار... في الرومانطيقية⁽¹⁾.

كما ويلتقي الشابي مع إبراهيم طوقان في قصر العمر حيث وُلد طوقان عام 1905 وتوفي عام 1941، وكان الشابي مريضاً بالقلب بينما كان طوقان مريضاً بالمعدة التي أنهكت قواه ورافقه مرضه حتى وفاته وكان كل منهما مهزول الجسم ضعيف البنية متألماً حزيناً بسبب هذا المرض وقد بدأ كل واحد منهما شاعريته صغيراً يعبر بها عن صباه. ويلتقي مع السياب أيضاً في بداياته الشعرية ومصاحبة المرض له فترة الحياة القصيرة التي عاشها.

وأنا في هذا الكتاب لا أريد المقارنة بين هؤلاء الشعراء، وإنما هي عبارة عن مدخل لرؤية أبي القاسم وعلاقته مع أقرانه في فترة زمنية من حياة كل واحد منهم. ولنخلص في باب آخر إلى تأثيره بغيره وقد دعا كل واحد منهم إلى قضايا وطنه، متبرماً من السياسيين داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة من أجل الخلاص، وكان كل واحد يتراوح بين التشاؤم والأمل.

لقد كان التشابه بين الشابي وطوقان شديداً فكلاهما ساير التطور في الثقافة، محاولاً تجديد الموضوعات والبناء محاكين الآخرين من خلال المذهب الرومانسي الذي يساير الشباب فتشابهها في الشعور والطبع ورقة الشائل، مع أن طوقان في وطنياته كان أقرب إلى مجتمعه والشابي أطلق العنان لشاعريته وشعوره من خلال الطبيعة والتأمل

بين الشابي وجبران

كانت مطالعات الشابي واحدة من عناصر شخصيته التي طبعت نفسه وشعره، مما أدى إلى تأثيره الشديد بأدب المهجريين أمثال جبران خليل جبران، والحديث هنا ليس

(1) عبد اللطيف شرارة، الشابي، دراسة تحليلية.

مقارنة أو توازناً بين الشابي وغيره من الشعراء، وإنما هو حديث لمعرفة اتجاه وفكر الشاعر لأن الشابي ربما يكون أشعر من الذين حذا حذوهم. يقول أبو القاسم محمد كرو في كتابه الشابي قوله: «حيث عرف عن الشابي أنه كان يكثر من قراءة الأدب المهجري وحفظ أشعاره وليس من شك في أن النفس البشرية تتأثر أشد ما تتأثر في طفولتها»⁽¹⁾.

فقد علق ما قرأه وطالعه في ذهنه وفكره وبكل صورته في الوجدان، وطبع ما حفظه وهو دون الخامسة عشرة. فبقيت عالقة بألوانها وصورها في بداية حياة الشابي مما قاد خياله وحسه إلى معابد الطبيعة وهياكلها الغريبة، فاستمع لأغانيها الناعمة وكشفت له عن مواطن الجمال والفتنة واستراح لرحيق الأزهار المتنوعة، فهام بحب الحياة الراقصة كالأمواج وسنابل القمح، فردد أنغام السماء على مسامع الكون، فإذا بشعره أنشودة ساحرة خالدة حتى كان شعره «أعمق من جبران وأصدق تعبيراً».

وقد أنصف الشابي تونس في شعره، فحث قومه على الرقي فعده أبو القاسم محمد كرو نموذجاً للكفاح والبطولة وهذا واضح في شعره.

وتتفق معظم الدراسات على تأثير جبران في الشابي، ووصفوا الشابي بأنه تلميذ جبران ولذلك جاء التأثير واضحاً، في الخصائص الفنية وفلسفة الحياة، فكيف كان هذا التأثير؟

قامت فلسفة جبران في حياته على الحب والحرية والتمرد، وهذه العناصر هي التي شكلت مضمونه الأدبي التي انبثق عنها رؤية الحياة في المشرق، وحددت أهدافه في الحياة المشرقية التي كانت غارقة آنذاك تحت وطأة الجمود والتخلف عن الركب الحضاري بعوامل استعمارية، فنشط الأدباء يبينون أسباب هذا الجمود ويثيرون لنيل الحرية والاستقلال، ومن هؤلاء جبران الذي ظهر كالثورة العاصفة في أدبه داعياً إلى النهوض حتى بلغت أحياناً إلى العنف، ثم انتهى به الأمر إلى الثورة على كل قديم وآمن بأن بلية الأبناء هو ميراث الآباء، لأنه كان يرى أن الشرقيين يعيشون في الماضي ويرفضون المبادئ والتعاليم الجديدة التي تنبهم من رقادهم العميق. كما ظهرت دعوات في أدبه إلى احترام وتقديس الحب وارتفع بالمرأة عن الحدود المادية، وابتعد في غزله عن الجسد لأنها أم وكان

(1) الشابي، أبو القاسم محمد كرو، ص 97.

يقول: «... ولكنهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبات صدرها، لأنهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يرون فيها غير الضعف والاستسلام».

كما تمرد على الكهانة والرجعية الدينية، فكان يرى جبران «أن الكهانة هي الحرفة الأولى التي ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع طبيعي لها»⁽¹⁾. وهو بذلك كان يريد إعادة كرامة الإنسان وتحريره من تلك القيود، ثم يسלט نيران غضبه على رجال الدين الذين - باعتقاده - كانت تصور جميع صور الاستغلال ومحاربة التجديد، وهذا ما كان يراه بلية الشرق، وقد اتهم جبران نتيجة ذلك بالخروج عن الدين كما اتهم الشابي بالتطرف، وهذا ما كان له أثره البالغ في إحساسهما بالغربة فكان جبران يقول: «أنا غريب في هذا العالم، وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة، غير أنها تجعلني أفكر أبدأ بوطن سحري لا أعرفه... أنا غريب وليس في الوجود كله من يعرف كلمة نفسي. أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة، وأثر ما تنظمه، ولهذا أنا غريب. وسأبقى غريباً حتى تحطفني المنايا وتحملني إلى وطني».

كما أحس الشابي بالغربة في بلده لأنه يعتقد أن الجمهور لم يفهم أناشيده التي يظهر فيها حائراً متردداً حين يقول:

إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطرباً بأحزان الشيبية والمشيب
يا صميم الوجود كم أنا في الدنيا غريب، أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي
فالشابي كما تراه يشكو غربته.

ورغم ذلك فقد انطوى هذا التمرد عند الاثنين على معاني تقديس الطموح والدعوة إلى التطور، حتى نصب جبران نفسه حفاراً للقبور كما لخص فلسفته في قصة (البنفسجة الطموح) في قوله: «إنها القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود» وقد قصد من ذلك محاربة الخضوع والاستسلام لفلسفة القضاء والقدر التي تعيق البشر عن اليقظة.

(1) دراسة للأستاذ خليفة التليسي.

والشابي كان يؤمن بالطموح ويسعى إليه بالبحث في شعبه ويتطلع إلى ما وراء الوجود ومن هنا كانت صرخته:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
فهو يعلن أن الطموح حبيب الحياة وروح الظفر. وشعر الشابي حافل بهذه المعاني
فهو شاعر الحب والثورة وشاعر الحب والحياة، الداعي إلى نور المستقبل الثائر على العيش
في ظلام القديم.

والشابي وجبران يتشابهان في مصادر هذه الوطنية التي انطلقت من الاصطدام
بالاستسلام إلى الجمود.

أما التشابه في الخصائص الفنية، فقد اتضح ذلك بينهما في تمجيد الفن والسمو به،
حيث اتخذ جبران من الفن رسالة بعث وإحياء، فراح ينتقد التقاليد الأدبية التي تعنى
بزخرفة الألفاظ والبديع، وقد آمن بأن نجاح الشاعر يحده رصيده الفني وملكته
الشاعرية، حتى ذهب إلى القول بأن قوة الابتكار، إنما تكمن في لسان الشعراء المخلصين
لأنفسهم وفنهم.

تفرد جبران بقوة الإيحاء وبساطة التعبير والانفعال الحاد وصدق الشعور وانزعاج
صوره من الطبيعة، وقد أسعفه إلى ذلك ملكته على خلق صور رائعة وهناك أمثلة كثيرة
على ذلك تبين تأثر الشابي بجبران، فهذا جبران يقول:

من يهوى النور فالنور يهواه

والشابي يقول:

ومن ناجت النور أحلامه يباركسه النور أنى ظهر
وهذا الشابي يقول أيضاً «أضاع الرشاد في ملعب الجن فيا بؤسه أصيب بمس»
عبارة قالها الشابي متأثراً بجبران حين أوما رهط من الشيوخ قائلين: «هو مجنون أضاع
صوابه في مسارح الجن والغيلان».

كما يظهر أثر جبران واضحاً في قصائد الشابي ومنها قصيدة «النبى المجهول» التي
حملت أفكار التمرد الشابية والتي استوحاها من جبران، فقال الشابي:

في صباح الحياة ضمخت أكوابي وأترعتها بخمسة نفسي

ثم قدمتها إليك، فأهرقت
فتألمت .. ثم أسكت ألامي
رحيقي ودست يا شعبُ كأسِي
وكفكفت من شعوري وحسي
لأقضي الحياة وحدي بيأسِي
ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي
وليس بالضرورة أن نؤكد ما تغنى به جبران بنغمة الغاب والعيش بين طيور
وأشجار الغابة مفكرًا في أسرار الوجود.

لقد قدس الشابي يقظة الإحساس، وجعله كل شيء في حياته، فاليقظة عند جبران
تجعل منه بطلاً غريباً بين الناس لا ينقاد إلى تعاليمهم وتقاليدهم، لأنه يحس بنفسه ويشعر
بذاته. وهذه اليقظة أيضاً هي التي شعر بها الشابي حين قال: «ومن شعر بنفسه حق
الشعور احترامها وسماها عن مواطن الضعة والحقارة، ومن شعر بالحياة حق الشعور لم
يستطع أن يكون بوقاً يردد صدى غيره».

فالمشابهة بين الشابي وجبران جاءت نتيجة دراسة عميقة لأدب جبران وفكره، وهذا
واضح في شعر الشابي وتأثره بجبران وبالأدب المهجري، فأسلوبه النثري كما هو واضح
متأثر بأسلوب جبران، كما هو في أسلوبه الشعري أيضاً.

غير أنني أؤكد أن البحث يحتاج إلى أكثر من هذا لتوضيحه، وإنما هي فكرة موجزة
وملخص يبين تأثر الشابي بجبران وبأدبه وفنه وركونه إلى الطبيعة بتعبير بسيط وشعور
صادق تتلمذ فيها الشابي على جبران.

بين الشابي والتجاني

قامت دراسات متعددة تتحدث عن الشابي مع أقرانه، وكان منها دراسة للدكتور
عبدالمجيد عابدين وأثبتت في كتاب دراسات عن الشابي من إعداد أبي القاسم محمد كرو،
تعرض فيها الكاتب حول ما أشيع من علاقة بين الشابي والتجاني «شاعر الجمال».
واعتمد في الدراسة على ما ورد في كتيب للأستاذ أبي القاسم بدري بعنوان «الشابي
والتجاني» كما اعترف الدكتور عبدالمجيد في غير هذا الكتاب. كما اعتمد في دراسته
«الخيال الشعري عند العرب» ثم كتاب «الشابي حياته وشعره» وغير ذلك مما وقع بين
يديه من مراجع. وقد جاءت دراسة الكاتب مستفيضة، وضع فيها رأيه وبيّن وجه الاتفاق
ووجه الاختلاف بين الشاعرين. وفي بداية الدراسة قدم الكاتب لرأي الأستاذ (أبو
القاسم بدري) والذي تناول وجوه الشبه بين الشاعرين في النشأة والثقافة وفي النزعات

النفسية والفلسفية، وفي النظرة القومية والاتجاه الفني، حتى أن الباحث يعتقد أن الشعارين أخوان حيث نشأ في بيئة دينية محافظة، ونهلاً من ثقافة عربية إسلامية ودرس كل منهما الترجمات الواردة من الكتب المترجمة عن الثقافة الغربية، لأنها لا يعرفان غير اللغة العربية، ثم جاء إلى الجانب الصحي فكلاهما مريض وعاشا فترة قصيرة فكان الشابي قد قضى وهو ابن خمسة وعشرين عاماً والتجاني قضى في نفس العمر. وهما متشابهان أيضاً في نزوع كليهما النزعة الصوفية الزاهدة عن الملذات الجسدية من غير عزلة عن حياتها الاجتماعية، وتأثرا بما يجري في بلديهما من جمود وفقر وانحطاط وجهل ومرض، ولذلك تبرما من قومها وتشاءما من حياتها وحاولا إصلاح المجتمع بالنقد وإن جاء من إحساس بالضعف والخضوع.

ويرى الأستاذ أبي القاسم بدري أن للشاعرين فلسفة متقاربة من روحهما بثورتها على الأوضاع إلى جانب التقارب في النشأة والتطور. أما في المجال الشعري فقد تشابها في النظم والتعبير وتصوير الطبيعة والأحداث الوطنية والحب والجمال والعاطفة والوجدان وتصوير الحالات النفسية.

واعتبر الدكتور عبدالمجيد الدراسة بأنها تستحق التقدير، لكنه وضح بأن المقارنة بين شاعر وشاعر ليس بالأمر السهل ولا يتحقق إلا بدراسة واعية لشعر كل واحد من الشعارين من جهة، ولحياة كل شاعر من جهة أخرى. ويرى أن مؤلف الكتاب ويعني أبا القاسم بدري رجع إلى مقالة كتبها حسن سباطة في مجلة الرسالة، وربما كانت هي المرجع الوحيد في الدراسة لأنه لم يذكر مراجع أخرى.

أما الأستاذ أبو القاسم محمد كرو فله كتاب فصل فيه حياة الشابي من خلال البيئة التي عاش فيها الشابي وأورد مجموعة من شعره، وقد وضح فيه فن الشابي ونظرتة إلى الحياة بشكل يختلف عن فن التجاني ونظرتة إلى الحياة، وهو يقول: «لقد حاولت جهدي أن أنشد من خلال ما كتبه الأستاذ الفاضل وجهاً واحداً من وجوه الشبه بين فني الشابي والتجاني، فلم يهدي إدراكي إلى شيء من ذلك يقنعني، وسوف أراني مضطراً إلى توضيح رأيي وهو يقوم على أن الشعارين الشابي والتجاني مختلفان من حيث الاتجاه الفني والنزعة الفكرية، اختلافاً أساسياً».

أولاً: مسألة النظم والتعبير: وضح الدكتور عابدين أن التعبير عند الشعارين مختلفاً في الأسلوب، فالشابي يؤثر في معظم قصائده العبارة التحليلية السهلة، فلا يوجد في شعره

معاظلة ولا تراكباً، وليس في تركيبه شيء من الغموض أو التعقيد، ويعتمد أسلوب الحكاية والسرد القصصي، ويمثل على ذلك بالأبيات:

وفي ليلة من ليالي الخريف	مثقلة بالأسى والـضجر
سكرت بها من ضياء النجوم	وغنيت للنهر حتى سكر
سألت الدجى هل تعيد الحياة	لمن أذبلته ربيع العمر
فلم يتكلم فؤاد الظلام	ولم تترنم عذارى السحر
وقال لي الغاب في رقعة	محببة مثل خفق الوتر
يجيء الشتاء شتاء الضباب	شتاء الثلوج شتاء المطر
فينطفئ السحر سحر الغصون	وسحر الثمار وسحر الزهر

وبهذا الأسلوب الحوارى يستمر الشاعر ليستفهم ويتلقى الجواب متدفقاً بعباراته في هدوء وتفصيل.

أما التجاني فيقرر الدكتور عابدين أنه يؤثر الحكمة القوية والعبارات المترابطة المركزة باستثناء قصيدة (القمر المجنون) فكما جاء الفرق في الأسلوب الشعري بين تحليل العبارة عند الشابي والميل إلى الحكاية، فإن شعر التجاني تركيبى العبارة يميل إلى التركيز والإيجاز، ثم كان الفرق في الكتابة الثرية فالتجاني في مقالاته الثرية، ينجح إلى التماسك والحكمة ولا يميل إلى السرد القصصي، أما الشابي فقد كتب قصة (في المقبرة)، وقصة (جميل بثينة) كما كتب مسرحية «السكرير». والتجاني لم يعهد له كتابة قصة أو مسرحية.

ثانياً: تصوير المناظر الطبيعية: قلما تخلو قصيدة من قصائد الشعارين من وصف المناظر الطبيعية والمرئيات، ومع ذلك فهناك اختلاف في وصفها، حيث اعتنى الشابي بالطبيعة والإكثار من تصويرها، وكانت ظروف حياته ومرضه تتدخل في ذلك، فقد كان الشابي مصاباً بتضخم القلب، ولذلك نصحه الأطباء بالعيش في الجبال وبين أحضان الطبيعة حيث الغابات والبساتين والأودية والأنهار، فمضى يجوبها صيفاً وشتاءً لمدة ثلاث سنوات يتغنى بأجمل قصائده وأروع نظمها فيها. ويختلف التجاني في هذا عن وصف الشابي، مع أنه قل أن ينظم قصيدة تخلو من وصف المناظر الطبيعية والمرئيات ورسم صور ما يراه.

ثالثاً: تصوير الأحداث الوطنية: يوضح الدكتور عابدين أن الشعارين اختلفوا أيضاً في هذا الجانب، ووجد أن التجاني له صيحات صادقة تتجه إلى بعض طبقات المجتمع

الذي يعيش فيه، أما الشابي فله مجموعة من الشعر الوطني الكفاحي تتجلى فيه نظرته إلى شعبه كله، وبين وسائل الخلاص ممن استعبد شعبه وأوجعه وقهره، وقد استمد الكاتب رأيه من المجموعات الشعرية لكلا الشاعرين.

رابعاً: تصور الحب والجمال: أوضح الكاتب أن الجمال عند التجاني كان مجاله أوسع وأكثر تنوعاً، وكانت مظاهر الجمال واضحة جلية في شعره، ويتجلى الجمال الإلهي في شعره الصوفي. أما الشابي فكان حب الطبيعة أبرز ما اتجهت إليه عاطفته، وقد وصف الجمال البشري، ويلاحظ الغزل البشري في قصيدتين هما: «الساحرة» و«تحت الغصون» ويتجلى الغزل الحسي حيث تفتته مفاتن الجسد، وحركات المرأة وملاحمها وهو بهذا يختلف عن غزل التجاني الذي يتجلى في السمو عن الجسد وينشغل بها وراء الحس.

ويُعَلِّب الكاتب سبب ذلك، بأن حب الشابي للمرأة جاء في مرحلة مبكرة قد تجاوزها التجاني حتى وصل إلى الجمال الصوفي الأسمى، فحب الشابي للمرأة لم يتغلغل إلى أعماق نفسه حتى أورد أبو القاسم محمد كزّو أن الشابي لم يحب في حياته حباً عنيفاً. وقد أورد الكاتب قصيدة عنوانها «أيتها الحاملة بين العواصف» بأنها ليست غزلاً بامرأة كما جاء في كتاب الأستاذ بدري وإنما هي أبيات خاطب الشاعر بها نفسه وموهبته الفنية. وأن الشابي قد أحب إلى جانب الطبيعة فنه وموهبته وأعجب بها فاتخذ من بعض قصائده متنفساً له في حياته الأليمة البائسة.

خامساً: التجديد عند الشاعرين: يعتبر الأدباء الشاعرين مجددين، والشعراء المجددون في عصر هذين الشاعرين كثيرون في الوطن العربي، فهل كانوا جميعاً متشابهون؟

الشابي تأثر بالأدب المهجري تأثراً مباشراً واضحاً من خلال قراءته لجران ونعيمة وأبي ماضي، كما حفظ أشعارهم وردد حب الطبيعة الوداعة وتصوير الغابة وجمالها وتأثر بأسلوبهم السردي القصصي ووضوح العبارة.

أما التجاني فقد قرأ الأدب المهجري، لكن تأثره به كان قليلاً.

وفي ختام دراسته أوضح الدكتور عبدالمجيد عابدين أن التشابه بين الشاعرين قد اقتصر على صور وتعبيرات متناثرة هنا وهناك، «من تلك الحصيلة المشتركة التي تكاد تكون بين الشعراء المجددين على اختلاف مذاهبهم وشخصياتهم» وتبقى مشابهة أخرى بينها في تقارب السن والمرض.

وعلى أي حال، فإن الشابي والتجاني شاعران متعاصران ومتشابهان، يفترقان في بعض الميزات لكنهما يلتقيان في كثير من المواهب. فكلاهما من أسرة عريقة لها جذور دينية وكلاهما اهتم في بداية حياته بعلوم الشريعة، وكلاهما وقفا عند اللغة العربية ولم يتعلما لغة أجنبية وكلاهما نهل من الترجمات الذي أطلق خياليهما، وكلاهما أصيب بالمرض الذي أعاق تقدمهما، فماتا في عنفوان الشباب، وكلاهما عاش وسط العقد الخامس ولم ينعما بطيب العيش ولذة الحياة، ثم تشابها بنظرتها الفلسفية التي صبغت شعريها التي نزعت إلى التصوف والزهد عن الملذات الجسدية والذي ظهر في التبرم والسخط على أحوال المجتمع والتطلع إلى الأحلام التي تخلصهما من واقع مرير وحاضر بائس، جراء الاستبعاد والاستبداد، فأدى كل واحد منهما رسالته التي كان يرمي إليها من أجل تحرير بلده باستفزاز مشاعر الشعب بعد تصوير أحواله وتجسيم آلامه.

وباختصار: الشابي والتجاني شاعران معاصران ومتشابهان، يلتقيان في كثير من مواهبهما، ويفترقان في بعض الميزات. تشابها في وضع الأسرة والدراسة والبيئة الدينية والأخذ من الترجمات، وتقاربا في المرض، كما تشابها في الفلسفة التي صبغت شعريها ونزوع كل منهما نزعة التصوف والزهد عن الملذات الجسدية دون أن يعيشا بمعزل عن الحياة الاجتماعية في بلديهما، كما نجد في شعريها تبرماً وسخطاً على أحوال المجتمع والتطلع إلى مستقبل جميل بإطلاق خياليهما وكلاهما مات في عنفوان الشباب عندما بدأ يقدمان إنتاجهما المبدع وفكرهما الخلاق.

الرمز في شعر الشابي

جاء الرمز في شعر الشابي متداخلاً ومركباً، حيث كشف فيه عن صراع الأضداد، مستخدماً أكثر من رمز بدلالة واحدة، فقد ورد الليل والمساء بدلالة واحدة، أو الفجر والصبح أو الفجر والربيع أو الصباح والربيع، ثم كشف أيضاً عن تصارع الليل والحلم أو الخوف والربيع وهكذا، وتفهم هذه الدلالات من خلال القصائد الواردة فيها.

وقد عبر الشابي عن صورة الليل للظلم والحزن وقتل الأحلام واستخدمها للغربة والرغبة والضعف، كما استخدمها أحياناً رمزاً للحب والجمال وإن غلبت عليه دلالة الحزن والظلمة خاصة عندما يقول:

لست أبكي لعسف ليل طويل أو ربيع غدا العفاء مراحه
إنما عبرتي لخطب ثقیل قد عرانا ولم نجد من أزاحه

فقد ركب كما تلاحظ صورة الليل مع العسف الطويل والحديث في البيت عن المستعمر الذي طال بقاءه على أرض تونس، مع وضوح ضعفه اتجاه هذا المحتل، وهو لا يملك إلا الدمعة، إذن هي رمز للظلم والظلم الذي يصرخ اتجاه بعض مظاهره.

وقد استخدم الشاعر وجوهاً كثيرة أو قل رموزاً لهذا الظلم بدلالة الحزن:

أزنبقة السفح مالي أراك تعانقك اللوعة القاسية
أأسمعك «الليل» ندب القلوب أرشفك الفجر كأس الأسى؟

فالليل يسمع ندب القلوب الحزينة الباكية المتوجعة، وأنات المقهورين:

فلربما كانت أينناً صاعداً في الليل من متوجع مقهور

والليل عند الشابي طيف كثيب، رهيب مريع مخيف، طويل:

إن ليل النفوس، ليل مريع سرمدي الأسى شنيع الخلود

أو قوله:

ينشق الليل طيفاً كثيباً رهيباً، ويخفق حزن الدهور

كما يمثل في طور آخر الغربة كوجه من وجوه الليل:

والسعيد السعيد من عاش كالليل غريباً في أهل هذا الوجود
ومن قسوة الليل عند الشابي أنه يحمل في ظلامه الأشباح:

وكم رأى ليلك الأشباح هائمة مذعورة تتهاوى حولها الرجم
ومن قسوة الليل أيضاً أنه يحمل الألم والرهبنة والبؤس:

أيها الليل يا أبا البؤس والهول يا هيكل الحياة الرهيب
أنت يا ليل ذرة صعدت للكون من موطن الجحيم الغضوب

وفي نهاية المطاف، يفقد الأمل من هذا الليل الأسود فيخطبه:

أيها الليل ، أنت نغم شجي في شفاه الدهور بين النجيب

هذا وجه سوداوي ليل عند الشابي، لكن الشابي في جهة أخرى يحمل الليل دلالات
السحر والحب والأحلام والهدوء والسكينة، هذا الظلام الجميل يمتلئ بالأحلام، فقد بنى
حواله وحييته معبداً للجمال، وهي صورة مخالفة للصورة السابقة وهذه هي عاطفة الرومانسي:

وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبداً للجمال والحب شعرياً مشيداً على فجاج السنين

وما بين هاتين الصورتين ليل، بين سخطه وحبه ليل بيني الشابي صورة ثالثة مع
ليالي الخريف لتحمل دلالة أعمق وأقوى فيها الذبول وسقوط أوراق الأشجار، ومع كل
هذا فهو حريص أن تبقى الأزاهير والأعشاب قوية لا تستطيع الليالي إخفاءها:

إن في الغياب أزاهيراً وأعشاباً عذاب
واخضراراً أبدياً، ليس تمحوه الليالي

ومع ذلك فقد صور الشابي بين رموزه الكثيرة عن الليل، أنه لا بد أن ينقشع ظلامه
أو يقده في صورة مركبة رائعة:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد «الليل» أن ينجلي ولا بد للقييد أن ينكسر

فلا بد ليل أن يزول، كما أنه لا بد لقيد المستعمر أن ينكسر، شريطة أن يطلب الشعب
الحياة فيتحرر من المستعمر الظالم، وأمام قوة الشعب وعنفوانه فلا بد أن تأتي الحرية.

وأمام صورة الليل القائمة غالباً بيزغ الفجر في شعر الشابي وقد حمل الفجر رموزاً ودلالات، فهو مشرق وجميل وفيه آمال وحرية وهو خالد لا ينتهي، وهو يتغزل بالفجر: وتغزلت بالربيع وبالفجر فماذا ستفعل الريح بعدي ثم يقول:

غنني أنشودة الفجر الضحوك أيها الصداح
فروحاً بفجر الخلود البهيج وما حوله من بنات النجوم
ثم يأتي بالضدين في بيت واحد:

في رقعة الفجر الوديعة وفي الليالي الحالمية
لأن الفجر ساطع واضح في نوره لا ينتهي بل هو مستمر مع الزمان:
وله فجر على طول المدى ساطع الأنوار
والفجر في نفس الشابي هي الحياة، فإذا انقضى الفجر ضاعت الحياة:
وانقضى الفجر فأنحدرت في الأفق تراباً إلى صميم الوادي
وهو رمز الخلاص من أسر الليل ولذلك فإنه يترقبه:

وأعدده فجري الجميل، إذا أدلهم عليّ دهري
خذي فقد أصبحت أرقب في فضاك الجون فجري
والفجر رمز الحرية التي تسعى إليها تونس.

وتطبق أجفانك النيرات عن الفجر، والفجر عذب ضياء

وفي المحصلة فإن الفجر عند الشابي ربيع الحياة وأولها، وهو واهب الأمل وهو الفرحة والابتسامة ولذلك فإنه يحلم بعودته وهو دائماً يتأمل السماء ليرى مبسم الفجر المنتصر دائماً على الليل، وكان أحياناً يستخدم رمز الصباح موازياً للفجر:

وصبح الحياة لا يوقظ الموتى ولا يرحم الجفون الكليسة
والصباح يقابل النواح عند الشابي في قوله:

مات عهد النواح وزمان الجنون

وأطلس الصباح من وراء القرون

ويستخدم أحياناً النور موازياً للفجر والصباح فيقول:

يا أيها النور النقي وأيها الفجر البعيد
أين اختفيت وما الذي أقصاك عن هذا الوجود
آه! لقد كانت حياتي فيك حاملة تميد
بين الخماثل والجداول والترنم والنشيد

وكان الشابي يضيف على صورته الشعرية ورموزه إيماءات قدسية كقوله:

ومن تعبد النور أحلامه، يباركه النور أنى ظهر

وكان الشابي يحلم كثيراً، وله إيماءات جديدة في استحضار الأمل الذي يأمله، فكان الحلم عنده رمزاً من رموزه، وقد أسقط على أحلامه صفات الجمال والسحر والوداعة، لأنه المنتفس الوحيد له الذي يهرب به إلى خياله الذي يعوضه عن المرارة ولو للحظات فيقول:

تمشي حواليه الحياة كأنها
والحلم عنده بسمة تنهادي كالجداول:

يتمايل الحلم الجميل
كبسمة القلب الثمل
قد كان لي ما بين أحلام
مسي الجميلة جداول

والحلم فيه سحر تبدل التعاسة إلى سعادة، وطعم الحلم يغري الحالم في تذوقه وهو أمل يجبه الناس:

ما قدس المثل الأعلى وجمله
في أعين الناس إلا أنه حلم
فالسعادة عند الشاعر حلم، والطفولة تلك الفترة المعسولة الجميلة هي حلم، وكان الشاعر يشناق إلى الحلم بلوعة لأنه رؤيا جميلة يصوغ بها الشاعر واقعاً جديداً وهو يحفز قلبه ويذكره بأمله ليحيا حياة جديدة:

أين أحلامك يا قلبي
لقد فسات الفسات
أو قوله:

لا ترى غير فتنة العالم الحي وأحلام قلبها المسحور
ودعونا هنا تغني لنا الأحلام والحب والوجود الكبير

ثم يعود إلى الفجر وهو رمز من رموز الأمل المطرز بالأحلام:

كنت في فجرك الموشح بالأحلام عطرأ يرف فوق ورودك
ويعود إلى الغاب ليطرز صورة جديدة في أحلامه:

فأعيش في غابي حياة كلها للفن، للأحلام، للإلهام
أو قوله:

ويوشي الوجود بالسحر والأحلام والزهر والشذى واللحون
ولذلك فإنه يعتبر الحياة بدون أحلام هي موت مقيد بالسلاسل.

والحياة التي تخرها الأحلام موت مثقل بالقيود
وهذه الأحلام كما نراها عند الشابي هي آمال يحيا بها لأنها أدواته وهدفه فهي ناي
وهي شجرة وهي عروس وهي الثورة على الشر وهو الشباب والربيع والحب، وعلى
المجمل فهي الحياة بكل نوازعها.

أما الربيع فهو دليل الخصب والنماء والجمال وواهب الحياة، وهو الفنان المفتون:

والربيع فنان شاعرها المفتون يغري بحبها وهواها
فهو الفنان الذي يرسم بصورته جمال الطبيعة الساحرة الذي يحيل الأرض الجرداء
إلى الحياة، لكنه في نظره ساذج غرير.

والإربيع الوجود الغرير ورقص الأشعة فوق الظلال
ولأن الربيع ساحر وجميل فقد أشاد الشاعر به وأنشده:

نحن نشدو مع العصافير للشمس وهذا الربيع ينفخ نايه
ثم يقول:

فسرت إلى حيث تأوي أغاني الربيع وتذوي أماني الخريف

وهنا يبدأ الشابي في تعرية المستعمر، بأن ما يقدمه ليس ربيعاً وإنما هو خداع، لأن ما يقدمه من إغراءات فإن العاصفة قادمة:

رويدك لا يخذعك الربيع
وصحو الفضاء وضوء الصباح
ثم ينتقل إلى مقارنة الربيع بضده، فيرمز بالربيع إلى الحياة كما يرمز إلى الخريف
بالأسى والجمود كما هو في الشتاء:

وسوف يمضي شتاء الأسى ويأتي ربيعك
أو قوله:

فسرت إلى حيث تأوي أغاني الربيع وتذوي أمانى الخريف
وهكذا يسير الشاعر ليتج من أشعاره رموزاً شعرية وصوراً جميلة لها دلالاتها وإيحاءاتها،
فالربيع رمز التجدد والعطاء والخريف رمز الذبول والزوال وهو شاحب ملول:
فيك يبدو خريف نفسي ملولاً شاحب اللون عاري الأملود
وهناك رموز أخرى متعددة، وإنما أسوق هذه كأمثلة على رمزية الشاعر وشاعريته
التي تعددت فيها فنون الشابي وأغراضه المتنوعة وصوره الشعرية التي تقوم بأكثر من دور
داخل القصيدة. لبناء التشكيل الجمالي وتنامي المواقف لتعكس جوهر موقفه الشعري.

الشابي شاعر وجداني، وهو على فترة حياته القصيرة فقد كان مكثراً مجيداً، وقد أجمع الدارسون على أنه شاعر مطبوع على المذهب الرومانسي، وقد برز شاعراً ناضجاً إذا ما قيس بأنداده من الشعراء المعاصرين له، ويرى الأستاذ مصطفى رجب أن الخصائص الرومانسية تبرز عند الشابي في اللفظ والعبارة والأسلوب والقالب والدعوة إلى الطبيعة والاستماع إلى النفس وتوسيع دائرة الشعر وابتكار الموضوعات ومسايرة روح الموضوع في النزعة الإنسانية، وكان صادق التعبير دقيقاً في التصوير، مما كان يجيش في فؤاده من حب للحياة والطموح إلى الخلود في نغمات هادئة وطمأنينة وسلام. فكان كل بيت من قصائده قطعة من قلبه ومزيجاً من العبقرية والإلهام وهو لا يتصنع ولا يتكلف، بل جاءت أشعاره أنغاماً تفيض على وجدانه وتنساب من أحاسيسه، ومشاعره، ولذلك أحبه الناس ورددوا أشعاره وتغنوا بها فكان ذلك سر خلوده وخلود شعره وانتشاره.

وقد جمع الشابي في شعره بين التمرد والتصوف بعاطفة رقيقة ودعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، كما دعا إلى التحلل من قيود الرجعية والجمود وإلى حب الطبيعة. كما ثار على عمود الشعر وأعلن تحرره على قيود اللغة والقافية، فسار بذلك في ركب شعراء المهجر، واتصل بجماعة أبولو وكان بينه وبين أبي شادي وإبراهيم ناجي رسائل جريئة في النقد الأدبي، وقد برع في عرض شعره وتصويره ومثانة أسلوبه وسعة لغته وقوة خياله وجمال تراكيبه وروعة تشابيه واستعاراته.

وعالج في شعره الفلسفة فبحث في أعماق موضوعاتها دون أن يخشى ما حوله، لأنه كان يقصد أن يصل إلى كنه الأسرار الغريبة التي ينطوي عليها عالم ما وراء الموت، ولذلك نجده يمر في طور من أطوار حياته بحالة من الحيرة والشك والغموض. ونظر إلى الشعر نظرة قداسة فترفع عن الأغراض الصغيرة الباهتة فلم يمدح أحداً ولم يرث أحداً وإن وجدنا قصيدة واحدة هي أقرب إلى النواح فيها على الرثاء، ذلك لأنه استطاع أن يخط لنفسه منهاجاً يسير عليه خاصة في بداياته الشعرية، فكان شاعراً صادقاً شاعراً يسمو فوق كل ضعة.

وقد جرى في شعره على أسلوبين: أسلوب متين النسيج خص به شعره في الحكمة والفخر، وأسلوب لين سلس في الأغراض الوجدانية الخيالية.

وكان الشابي مثل غيره من المجددين الذين ابتعدوا عن عمود الشعر العربي فتجنب بعض المفردات، ويوضح الدكتور عمر فروخ في كتابه الشابي شاعر الحب والحياة أن الشابي «من الناقمين على عمود الشعر العربي، وعلى الحياة العربية الأصيلة، أراد أن يتجنب الألفاظ الإسلامية ذات النفحة العربية الملامح ليتبدل بها ألفاظاً وثنية الأصل عامية الاستعمال وخصوصاً في طوره المتأخر»⁽¹⁾ وقد وضع الدكتور عمر فروخ ما يقصده بأمثلة منها مع استعمال هذه المفردات وعدد مرات استعمالها كما بين بعض الأخطاء النحوية والصرفية.

لكن التليسي ذكر في كتابه بين «الشابي وجبران» أن الشابي ذو «ثروة من الألفاظ اللونية والصوتية... ومن قوة الإحساس هي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في مواضع السخط والتمرد، وهي التي تندفق بالألفاظ اللينة الوديدة في مواضع اللين والضراعة».

ونورد هنا هذين المثليين لنبين وجهات النظر عند الأدباء والنقاد لتوضيح الألفاظ عند الشابي.

وللإنصاف فإني أورد ما قاله الأستاذ مدحت سعد محمد الجبار في كتابه حول الصورة الشعرة عند الشابي حين تحدث عن دور التكرار في بناء الشابي لصوره الشعرية حيث وضع: أن التكرار بعدة أدوار ظاهرة موجودة عند الشابي. وتمثل الكلمة المكرورة المركز الدلالي الذي ينطلق منه الشاعر ليخلق في كل مرة علاقة لغوية جديدة أو صورة شعرية جديدة وهذا دأب الشعراء ومنهم أبو القاسم الشابي، لأن تكرار الكلمة يؤدي إلى وظيفة جمالية مختلفة ذات دلالة وإيجاء جديد في كل مرة، والتكرار يساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره. وهذا يعتبر من باب القوة لا من باب الضعف، لأن الدلالة الشعرية تنتج من علاقة قائمة بين الكلمة وما حولها، والشابي في كثير من الأحيان كان يعتمد على تكرار الكلمة، وقد يكرر عناوين كاملة للقصائد أو يكرر مقطعاً أو يبني صورة جديدة بالتكرار. ففي قصيدته «الكأبة المجهولة» كرر كلمة كأبة أربع مرات ليخلق في كل مرة صورة شعرية جديدة، أما مادة الكأبة فقد كررها ثلاث عشرة مرة مصراً بها على إظهار موقفه وشعوره والأبيات هي:

(1) عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، ص 180.

كآبة الناس شعلة، ومتى مرت ليال خبت مع الأمد
أما اكتئابي فلوعة سكنت روحي وتبقى بها إلا الأبد
وكما نرى فإن التكرار هنا جاء للإضافة أو التخصيص لبيان حزنه الشديد ويقارن
بين كآبة الناس وكآبته، فكآبة الناس شعلة تزول، أما كآبته فلوعة دائمة تسكن روحه. وفي
موضع آخر:

وليس في عالم الكآبة من يحمل معشار بعض ما أجد
كآبتي مرة وإن صرخت روحي فلا يسمعونها الجسد
صورة جديدة في مقطع جديد يتحدث فيه عن كآبته بتصوره أن للكآبة عالم
منفصل. وفي صورة أخرى يطرح حزنه وكآبته محاولاً التجديد للمفردة:

كآبتي ذات قسوة صهرت شاعري في جهنم الألم
تجربة قاسية، لأن كآبته قاسية تصهر مشاعره في نار الألم المحرق، ولكنه يحاول أن
يخفيها تحت الرماد:

كآبتي شعلة مؤججة تحت رماد الكون تستعر
ومقارنة أخرى بين كآبته المؤججة وكآبة الناس شعلة تخمد مع الزمن. ثم يسير في
القصيدة حتى يصل إلى الأمل المنتظر الذي يعلقه على كآبته، آملاً أن تتحول إلى فجر
مضيء، ثم يكرر الشاعر نفس المقارنة السابقة لأهميتها عنده:

كآبة الناس شعلة ومتى مرت ليال خبت مع الأمد
أما اكتئابي فلوعة سكنت روحي وتبقى بها إلى الأبد
وكما نرى فإن لفظة الكآبة عنده تكرر، وفي كل مرة يرسم لنا صورة أو يُكوّن
علاقة يجعلها عاملاً مشتركاً بينه وبين الناس ومقارنة بين كآبته وكآبة الآخرين. وهذا مثال
والقصائد عند الشابي فيها كثير مثل هذا، مثل كلمة الليل فيجعله مرة كثيراً ومرة جليلاً
غريباً، ومثل كلمة الأمس التي كررها سبع مرات وهو يلح عليها فحياته أمست واجمة،
وكل شيء جميل كان أمس، والأمس جرفته يد المنون، وظل الأمس، وزالت ظلال الأمس
أو كلمة الشتاء: يجيء الشتاء، شتاء الضباب، شتاء الثلوج، شتاء المطر وربما كان يحتاج إلى
مثل هذا التكرار للتفريغ والتنويع، ومثل هذا التكرار في كلمة الكون: الكون - كون
شقاء، الكون - كون التباس، الكون - كون اختلاق.

أما كلمة الموت مع تجاوز ما فيها من التكرار فقد كررها مرتين في البيت الواحد وقد صورته بأنه روح جميل، وجام روي، ومهد وثير، وهذا يعكس نفسية الشابي حول الموت الذي كان يراه مخلصاً من عبث الحياة وهو يريد إقناع القارئ أو السامع بالتنبيه إلى الموت وفي موضع آخر يتجاوز الصور ليخصص وظيفة كلمة الموت فيقول:

والياس موت ولكن موت يشير الشقاء
فاليأس موت ولكن هذا الموت يشير الشقاء، لأنه يتصور كرهه لليأس، هذا وقد أثبت الدكتور عمر فروخ ص 182 وما تلاها المفردات المكرورة عند الشابي، وربما كان تكرر بعضها لداع وربما كان لغير داع، وفي قصائد مختلفة أو جاء التكرار في نفس القصيدة.

لكن قصيدة «الدموع» جاء التكرار فيها لكلمة النفس، لنجد أن في كل تكرار صورة شعرية وانظر إليها:

لم أجد في الحياة لحناً بديعاً يتبنى سوى سكينه نفسي
أن في روضة الحياة لأشواكاً بها مزقت زنايق نفسي
تتهاوى ما بين غصات قلبي بسكون بين أوجاع نفسي
نفس الكلمة (نفس) وشكلها فهي سكينه وزنايق وأوجاع وهي وعاء لأحزان
الشاعر، فهي في البيت تتبنى سكينه نفس الشاعر وفي الثانية مزقت الأشواق زنايق نفسه،
ولكنها في البيت الثالث تتهاوى بين غصات قلب الشاعر وتسكن بين أوجاع نفسه. هذا
بالنسبة للمفردات لكن الشابي كان يكرر الحروف كالكاف أو حرف النداء أو حروف
العطف وكان يكرر الضمير، وفي قصيدته (قلبي التائه) يكرر الضمير (أنت) توكيداً
للمشبه ليقدم صوراً عديدة للمشبه به، وهذا يعكس حالته النفسية في لحظة من
اللحظات، وهو عندما يكرر الضمير عشر مرات في لحظة واحدة وفي قصيدة واحدة فإنه
يستعيد صورة محددة لخلق علاقات بين معطيات جديدة للأحزان على قلبه.

أنت يا قلبي قلب ، أنضجته الزفرات
أنت يا قلبي عش ، نفرت عنه القطاة
أنت حقل ، مجذب ، قد هزأت منه الرعاة
أنت ليل ، منعتم ، تندب فيه الباقيات

أنت كهف ، مظلم ، تأوي إليه البائسات
 أنت صرح ، شاده الحب على نهر الحياة
 أنت قبر ، فيه من أيامي الأولى رفات
 أنت عود ، مزقت أوتاره كف الحياة
 أنت لحن ساحر يخبط في التيه الموات
 أنت أنشودة فجر ... رتلتها الظلمات

الشاعر يخاطب بهذه الأبيات قلب إنسان يجسده ليعطيه الدلالات التي يحس بها
 فكرر المشبه وهو الضمير «أنت» ليأتي بصور المشبه به حسبما يفيض به صدره، وهو هذا
 يعكس واقعه وأحاسيسه.

وقد فعل مثل هذا في قصيدته «إلى الله» التي يعدد فيها صور معاناته وعذباته من
 خلال ما يعانیه البشر، من غربة القبور.

أما في قصيدته «صلوات في هيكل الحب» فتكرار الضمير يختلف عن هاتين
 القصيدتين، فهو يكرر الضمير في البيت الواحد، مرة بالاستفهام ومرة بالتقرير ويجعل من
 الضمير مساعداً لإيجاد صورة جديدة، وهو في تكراره هذا يثور ثم يهدأ ثم يعود إلى
 الثوران للتوكيد على المشبه بإيقاع موسيقي متغير ليستحضر بتكرار الضمير صورة
 المحبوبة، حتى إذا ما وصل إليه جاء مباشرة دون تكرار: (أنت روح الربيع)، (أنت تحيين
 في فؤادي)، (أنت أنشودة الأناشيد)، وبإمكانك الرجوع إلى القصيدة في الكتاب.

التراكيب

جاءت تراكيب الشابي على محورين: محور جاء على أساليب العرب في الترتيب
 والتقديم والتأخير وفي الإضمار، والمحور الآخر غير فيه الشاعر أساليب العرب وقد
 وضع الأستاذ التليسي وهو صديق الشاعر ذلك بقوله: «أناقة التعبير ورصانته وأصالته
 هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها أسلوب الشابي الذي امتاز ببعده عن (الركة) التي
 أخذت على كثير من شعراء المدرسة الحديثة وخاصة شعراء المدرسة المهجرية، فهو
 أسلوب يجري في عفوية وبساطة». لكن الدكتور عمر فروخ علق على قول الأستاذ
 التليسي بقوله: «إن بعض شعر الشابي كذلك (ويعني العبارة وأن شعره لمن الوضوح
 بحيث لا يحتاج إلى شرح - ولكن سائرته مخالف لهذه الأحكام واستشهد بشعر من قصائد
 الشابي مثل قصيدة (غرفة من يم) أو قصيدة (نظرة في الحياة).

وقال: «ليست أنيقة، ولا بعيدة عن الركافة ولا تفيض عفو الخاطر في سهولة ووضوح كما يريد التليسي» واستشهد بأبيات أخرى من قصيدة «إلى عذارى أفروديت»:

وسبيل الحياة رحب وأنت — من اللواتي تفرشهن بالورود
إن أردت أن يكون بهيجاً — رائع السحر ذا جمال فريد
أو بشوك يدمي الفضيلة والحب — ويقضي على بهاء الوجود
إن أردت أن يكون شنيعاً — مظلم الأفق ميت التغريد

يقول: «نحن نرى هنا حرف الشرط وفعل الشرط، ولكننا لا نرى جواب الشرط، ثم أننا لا نرى في هذه الأبيات أناقة ولا وضوحاً».

وأنا بدوري احترم رأي أستاذي الدكتور عمر فروخ، لكنني أجد في هذه الأبيات عفوية في مفرداته وتراكيبه، فالدكتور عمر فروخ أخذ جزئية من القصيدة، وجاءت القصيدة على شكل قصة سهلة واضحة وفيها تشبيهات وكلمات قريبة من النفوس مع تراكيب إبداعية «أو بشوك يدمي الفضيلة والحب» أو «شنيعاً» أو «ميت التغريد» وهذا ما كان يقصده الأستاذ التليسي حين تحدث عن العفوية والوضوح والبساطة بحيث لا يحتاج القارئ إلى عناء الشرح. لأن الشابي يسلك في شعره عرض تجاربه ومشاعره لإثارة الوجدان المائل للآخرين.

أما تراكيبه النحوية، فلا تكاد تخرج عن التقديم أو تأخير ما حقه التقديم أو الفصل بالجار والمجرور بين الفعل ومفعوله، غير أن أكثر ما يلاحظ في شعره أسلوب النداء بسبب توجيه شعره إلى شعبه ومجتمعه. فمرة ينادي النيام ليستيقظوا من غفلتهم ومرة ينبههم للانتباه إلى جمال الطبيعة في بلادهم وقد كان يستنهض أفكارهم بأسلوب الخطاب كقوله:

أيها الحب أنت سر بلائي — وهمومي وروعتي وعنائي
أيها الحب أنت سر وجودي — وحياتي وعزتي وإبائي

أو حين يخاطب القمر:

يا سميري في أوقات الكدر والضجر

أو يخاطب تونس:

أناياتونس الجميلة في لُجِّ الهوى قيد سبحت أيّ سباحة
تتلو سحابة ركاماً تتلنو قتاماً مثاراً

وهذا ناتج عن مناجاته التي يتحدث في أكثر الأحيان بها عن نفسه، وهنا لا بد من الحديث عن طريقة استعماله للمقاطع الطويلة أكثر من القصيرة لأنها تليبي حاجاته في الملامح الصوتية في شعره وانظر إلى قوله:

إن هذي الحياة قيثارة الله وأهل الحياة مثل اللحون
نغم يستبي الشاعر كالسحر وصوت يخجل بالتلحين
وهذه تراكيب تكاد تكون جديدة في استعمالها، جميلة في تصويرها أو قوله في قصيدة (الذكرى):

كنا كزوجي طائر في دوحه الحب الأمين
تتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون
متغردين مع البلابل في السهول وفي الحزون

أليست هذه تراكيب بسيطة سهلة ولكنها جديدة، قد تخطر ببال من يسير في الغابة ولكن تحتاج إلى من يركبها فيخرجها في صورة جميلة «دوحه الحب الأمين»، «أناشيد المنى بين الخمائل والغصون».

وقد زواج الشاعر في بعض قصائده بين الحروف، فكانت سلسلة عذبة مثل حرف السين لتكون ذا أثر في الموسيقى الشعرية مثل قوله:

وسرت نشوة سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه
هذا إلى جانب المقابلة والجناس والطباق، التي تنتشر هنا وهناك دون تكلف وقد جاءت متماسكة في البناء.

الأوزان والقوافي في موشحات الشابي

نظم الشابي مجموعة من الموشحات، وكان لموشحاته أشكال، وقد صنفها الدكتور عمر فروخ في كتابه الشابي شاعر الحب والحياة وأول هذه الموشحات نظام قصيدته «في الظلام» التي تألفت من ستة مقاطع من بحر الرمل على تفعيلية (فاعلاتن فاعلاتن فاعلات) وجاء كل قسم منها على حرف روي خاص بها فكان القسم الأول على روي

حرف الميم ثم القسم الثاني على حرف القاف والثالث والرابع على حرف النون أما الخامس والسادس فكانا على حرف الراء وكان الموشح مقسوماً إلى قسمين متساويين، أحدهما شطر تام كما ورد سابقاً أما الثاني فهو جزء من شطر من بحر الرمل وتفعيلته: «فاعلاتن فعل»، وجاء الترتيب في الأشطر والقوافي مطّرد في المثاني الست على النحو التالي:

رُفِرْفِرْتِ فِي دَجِيَّةِ اللَّيْلِ الْحَزِينِ زَفْرَةَ الْأَحْلَامِ
فَوْقَ سَرَبٍ مِنْ غَمَامَاتِ الشَّجْوَنِ مَلْؤُهُمَا الْأَلَامِ

وهكذا يستمر في القصيدة حتى نهاية القسم السادس من القصيدة.

ثم كان الشكل الثاني وهو من الموشحات التي برع فيها الشاعر بترتيب موسيقي في ستة مجاميع بعنوان «مأتم الحب».

لِيَتَّ شِعْرِي
أَيُّ طَيْرِ
يَسْمَعُ الْأَحْزَانَ تَبْكِي بَيْنَ أَعْمَاقِ الْقَلْبِ وَبِ
ثُمَّ لَا يَهْتَفِ فِي الْفَجْرِ بِأَنْبَاتِ النَّحِيبِ
بِخُشُوعٍ وَاكْتِسَابِ

وهذه الموشحة جاءت على تفعيلات مجزوء الرمل (فاعلاتن فاعلاتن)، وكما نرى فإن المطلع مؤلف من شطر مقسوم قسمين مصرّعين على الراء المكسورة ثم جاء بيتين عجزيهما على الباء الساكنة بعد حرف لين ثم يختم المجموعة بباء ساكنة بعد ألف.

وللشابي موشحة مثناة على بحر مولّد في «الكأبة المجهولة» وتفعيلاتها (مستفعلاتن مستفعلاتن).

أنا كئيب

أنا غريب

كأبتي خالفت نظائرها

غريبة في عوامل الحزن

كأبتي فكرة مغردة

مجهولة في مسامع الزمن

بزيادة شطر في المجموعين الأول والسادس، وسترى شكل الموشح في شعر الشابي في القسم الأخير من الكتاب.

وللشابي شكل آخر من أشكال الموشحات تتألف من أربعة مجاميع في قصيدة «شكوى اليتيم» حيث جاء مطلع الموشحة على مجموعين ثم جاء بعدها أربعة أغصان على النحو التالي:

على ساحل البحر حيث يضحج صراخه الصباح ونوح المساء
تنهدتُ من مهجة أترعتُ بدمع الشقاء وشوك الأسى
فضاع التنهد في الضجة
بما في ثناياه من لوعة
فسرت وناديت، يا أم، هيا
إليّ فقد سئمتني الحياة

ويستمر الشاعر في موشحته، ولكنه في نهاية الموشحة يخالف أقسامها الأولى حيث أنه ترك القفل فكان على الشكل الآتي:

ولما نـسـدت ولم ينفـع
وناديتُ أمي فلم تسمع
رجعتُ بحزني إلى وحنـدي
ورددت نـوحـي على مسمعي
وعانقت في وحنـدي لوعتي
وقللت لـفـسي: «ألا فاسـكتي»

هكذا ورد الموشح في القسم الأخير منه بدون قفل.

أما موشحة «أغنية الأحزان» فقد جاء الموشح طويلاً ويتألف من أحد عشر مجموعاً أو بيتاً، حافظ فيه الشابي على ترتيب الأشطر مع أنه خالف ترتيب القافية في كل مجموع منها.

غنني أنشودة الفجر الضحوك

أيها الصداخ!

فلقد جرّعني صوت الظلام

ألمأ علمني كره الحياة
إن قلبي ملّ أصدااء النوح

غنني، يا صاخ!

ومن موشحاته التي أثبتها في ديوانه أغاني الحياة قصيدة «أغاني التائه» والتي تألفت من ثلاثة مجاميع من البحر الرمل رتبها الشاعر أربعة أبيات في كل مجموع ثم تلاها بثلاثة أشطر، وهي مثبتة بين القصائد في نهاية الكتاب بإمكانك الرجوع إليها.

وقد وجدت الشاعر في المقطع الأول يخالف في القافية، لكنه عاد وضبط القافية في باقي الموشحة، ومن هذه الموشحة:

كان في قلبي فجر ونجوم وبحار لا تغشيتها الغيوم
وأناشيد وأطيّار تحوم وربيع مشرق حلوجمئل
كان في قلبي صباح وإياه وابتسامات ولكسن وأسأه
آه ما أهول إعصار الحياة آه ما أشقى قلوب الناس آه

كان في قلبي فجر ونجوم
فإذا الكل ظلام وسديم
كان في قلبي فجر ونجوم

أما موشحته والتي بعنوان «الأشواق التائهة» فجاءت في مجموعين كل واحد منها يتألف من قسمين:

القسم الأول وتألف من أربعة أبيات على روي واحد، القاف في المجموع الأول والسين في المجموع الثاني.

أما القسم الثاني فقد تألف من أربع مثنيات جاءت قوافيها على ما يلي: ورودك، نشيدك، الورود، الوجود، الهادي، الآباد، باد، الوادي. أما الجزء الثاني من هذا القسم فتألف من رباعية ومثنيتين قوافيها: مضمحلة، صداها، أساها، المملة، ثم ليل، حولي، جفوني، سجين.

أما موشحة «الصباح الجديد» فقد تألفت من ثلاثة مجاميع وتشكل كل مجموع من مطلع ومن قسمين، وقد تكرر المطلع في رأس كل مجموع:

وبإمكانك أن تعود إلى الموشحة بين أشعاره في نهاية الكتاب ولم أثبتها هنا لعدم التكرار، ومن الجدير بالذكر أن الشابي كان يميل في قوافي موشحاته إلى حرف الروي الساكن وهكذا أيضاً في كثير من أشعاره.

نماذج من قصائد الشابي للشرح والنحليل

هذا فصل في تحليل بعض قصائد أبي القاسم الشابي، لتوضيح قدرته الشعرية وتأثره بغيره وبيان أسلوبه الذي تحس وأنت تقرأ البيت الواحد وكأنك تقرأ قصيدة تقطر من فكره، كما تحس بأن شعره صور وأنغام تفيض على وجدانه وتنساب في تيارات مشاعره، ولذلك أحب الناس شعره وهزهم بمشاعره، وهذا سر خلود شعر الشابي لأن شعره قوة زاخرة ومشاعر متدفقة وشعور ملتهب وعاطفة فياضة بضروب الإبداع والجمال. وقد اخترت ثلاث قصائد للشرح والتحليل كنماذج من أشعاره:

1- الصباح الجديد

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 13 ذو الحجة عام 1351هـ، الموافق 9 نيسان عام 1933، وكان يحاول مقاومة المرض بشجاعة، جاهداً في أن يزيح عن كاهله الحزن والألم، وذلك قبل منتصف العقد الثاني من حياته، وقد قسم القصيدة إلى ثلاثة مقاطع، بينما جاءت القصيدة في الديوان على شكل رباعيات وثلاثيات، والقصيدة عبارة عن موشحة في مجاميع، المجموع الأول ويتألف من ثلاثة أبيات، وتآلف الثاني والثالث من أربعة، أما الرابع فيتألف من ثلاثة ثم تألف الخامس والسادس من أربعة، وتكرر الخامس في فكرة الأول وجاء المجموعان الأخيران من أربعة أبيات.

ومطلع الموشحة:

اسكنني يا جراح	واسكنني يا شجون
مات عهد النواح	وزممان الجنون
وأطل الصبح	من وراء القرون

وقد اعتبره الدكتور عمر فروخ الشكل السابع من أشكال الموشحات عند الشابي واعتبره من ثلاثة مجاميع وكل مجموع يتألف من مطلع وقسمين، وقد ورد المطلع مكرراً على رأس كل مجموع.

الشرح والتحليل،

1- حاول الشاعر التكرار في الفقرة الأولى مرتين ليوحي إلى نفسه بالصبر والتجملد مخاطباً جروحه طالباً منها السكون، لينفذ من ستار الحزن وليل العذاب الذي لفته، مبشراً روحه بإشراق فجر جديد بدأ يطل من وراء حجب الزمان.

2- وإذا كان الشابي يتمسك بإرادة الحياة، فلا بد له أن ينبذ كل معوقاتنا وي طرح عن كاهله كل أنقلاها ليزيل العقبات من طريقها، ويصنع ما تمليه عليه هذه الإرادة، إذن عليه أن يدفن آلامه ويأسه ويملاً بالحب قلبه. وفعلاً بعثر الشاعر دموعه وعذابه لتحملها رياح الفناء بعيداً. نظر إلى الحياة بمنظار جديد، فخفق صدره بالسرور، فإذا الدنيا مليئة بالجمال والأنغام حافلة بالورود والظلال والشباب.

3- وتحاول الأحزان العودة من جديد حين يطبق عليه العذاب مروعاً كالظلام مفزعاً كهدير الموج ويشتد المرض الذي يؤذن بقرب انطفاء شعلة الحياة، ولكنه لا ينحدر إلى حفرة الموت المظلمة، بل راح يطمئن روحه بأنه لا بد من الرحيل، ولكن إلى عالم صباحه الضاحك وربيعه الدائم الخضرة ملتجئاً إلى الصباح الجديد غير عابئ بالهموم التي تحف بشاطئ زورقه ولا مكترث بالحزن الذي يحرق به كالضباب المطبق.

التعليق:

أول ما يلفت النظر في هذه القصيدة هو بناؤها الموسيقي في المقطوعات الثلاثية أو الرباعية والتي تكررت على طريقة الموشحات لضرورة نفسية أو حالة شعورية يعيشها الشاعر أو يحس بها، وهي ضرورة الإيحاء بالصبر والتجلد. أما القافية فقد تحرر الشاعر من وحدتها في القصيدة، واستخدمها بصورة يربط بها بين مقطوعاته المتتابعة المتداققة برباط موسيقي مرهف، وقد لاحظنا أن آخر بيت في المجموعة الرباعية الثانية تقفية للفظة الأخيرة من الرباعية التالية كما هو في لفظتي «الزمان» و «الحنان» وكذلك في «البقاع» و «الوداع» وهذا اللون من الموسيقى جديد في موسيقى الشعر العربي.

وتعكس هذه القصيدة شخصية الشابي بصورة واضحة. فهي نابضة بحرارة الانفعال وقوته، وجيشان العاطفة وتدققها، إضافة على ثورة الروح وتمرداها، وهي سمة بارزة في شخصية الشابي، فهو الذي تمسك بإرادة الحياة وقاوم الحزن والألم وتحدى المرض والموت ولذلك فلا بد للقارئ إلا أن يتجاوب مع الشاعر ويشاركه أحاسيسه ويتأثر بها.

ثم عمد الشاعر إلى استخدام التصوير البياني الذي ينجح إلى الخيال، ويعتقه من أسر الواقع، حتى كأن الصباح الذي يتخيله الشاعر ينزف ألماً وحزناً في حياته، فحوله الشاعر إلى عالم يفيض بالحوية والشباب، ويتألق بالجمال ويتضوع بالعطر. وقد عمد إلى تجسيد ما كان معنوياً في صورة استعارات عديدة كقوله:

في فجاج الهوى ————— قــــــد دفنــــت الألم

فقد جعل الهوى وهو شيء معنوي، شعاباً يدفن فيها حزنه، وهو معنوي أيضاً.

والشابي صاغ قصيدته بلغة سهلة، سلسلة، سائغة لا تكلف فيها، ولا ابتذال، وإن لجأ أحياناً إلى تكرار الكلمات أو مرادفاتها، وهذه ميزة من ميزات الشابي الذي أراد أن يوصل فكرته إلى القارئ بيسر وسهولة.

2- إرادة الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 26 جمادى الأولى 1352 هـ الموافق 1933/9/16، وقد كان للقصيدة ضجة كبيرة بين الأوساط الدينية من جهة وبين الأوساط الأدبية من جهة أخرى، كما كان لها أثر فعال وشديد في أوساط الجماهير التي أحبت شعر الشابي. وقد رددتها أبناء الشعوب العربية، وتغنى بها المطربون. وقد افتتح الشاعر القصيدة بقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وتألف القصيدة من ثلاثة وستين بيتاً وتتضمن سبع أفكار رئيسية، وقد نظمها الشابي، حين كان الشعب التونسي يرزح تحت الاحتلال الفرنسي، مما أزعج الشاعر أن يرى شعبه مستسلماً لقدره، فنهض يحث شعبه على تحطيم قيود المحتل، وبين أن الحياة تتمثل في إرادة الشعب وما يريد، لأن المحتل ليس قادراً على الوطن، والثورة عليه واجب لتحرر تونس من قيود المحتل وظلمه.

وقد استطاع الشابي أن ينقل أفكاره وأحاسيسه ومشاعره لجمهور تونس بأسلوب رومانسي ينبعث من تجربته التي طبعت بطابعه الخاص ومعاناته الذاتية لواقع الظلم والطغيان.

وقد احتذى فيه حذو جبران خليل جبران وغيره من الرومانسيين، ونجح في المواءمة بين غرضه وما هيأ له بموسيقى داخلية مرافقة، ليزيد من أثر النص على النفوس. فتفتحت معانيه كالأزهار في أعماق ضميره، فجاءت القصيدة إنسانية النزعة، ليرتفع بها فوق الأحداث، وبدت وكأنها نموذج دائم لتجارب الناس الذين يتوقون للحرية. أما كلماته فكان معظمها عربية فصيحة سهلة، منتقاة بعناية لتعبر عن أحاسيسه، كما جاءت الجمل قوية متماسكة، فلم يلجأ إلا نادراً للجمل المعترضة.

وقد زواج بين الإنشاء والخبر ليبعد بالقارئ أو السامع عن الملل، وقليلًا ما لجأ إلى التقديم والتأخير، ولذلك بقي أسلوبه واضحاً متماسكاً، تفرد به عن غيره، كما لجأ إلى الحكمة العامة، وكأنه يخاطب شعبه في تونس، وغيره من الشعوب التي تزرع تحت الظلم في كل زمان ومكان.

كما لجأ الشاعر إلى التشخيص الذي يجيي ما لا حياة فيه، فجعل القدر كالإنسان القوي يستجيب لمن يستدعيه، فالكون يتحدث عن الخفايا، والريح تدمم والأرض تجيب على تساؤلات الشاعر وكذلك الحديث مع الغابة في رقة، وهذه ميزة من مميزات الشاعر الرومانسي الذي يركن إلى حديث الجمادات ويجاورها ويثق بها، وهذا إيذان منه إلى أن غاية الشعر هو تلمس روح الأشياء الجامدة لإثارة الدهشة.

هذا إلى جانب استخدام الاستعارات في أسلوبه والذي اعتمد عليه من خلال التجسيد كمشي الزمان وانطفاء السحر ومجيء الربيع بأحلامه وصباه النضر، كما لجأ إلى استخدام التشبيهات والكناية.

وقد وضع إيليا حاوي دور الخيال والانفعال في تلك التشبيهات والاستعارات فقال: «يبدو أن الشابي كمعظم الرومانسيين، يعانق معاني الأشياء بالحلم والرؤيا والسراب والوهم، ينفعل ويتولى خياله إظهار انفعالاته موحداً بين الشيء وما يباثله ... فعالم الشابي خلال هذه القصيدة هو عالم بعيد وراء حدودنا تشيع به الأرواح في كل شيء ومن كل شيء» وهو يعني بذلك وصف خيال الشاعر الجدي الخالي من الترهات، وهو خيال رصين يصهر الأشياء بالانفعال حين يصغي لعزف الريح وقصف الرعد ووقع المطر، كذلك ليلة الخريف التي أثقلها الأسى، وقد غلب الوصف على القسم الأخير من القصيدة.

الشرح:

قدم الشاعر للقصيدة بمشاعر فياضة تنزع إلى الإيحاء بعمق فكرته ورسالتها، فخاطب الشعب:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
وهذا لا يصدر إلا عن حكمة وشاعرية وإيمان وانفعال بالواقع الذي يعانیه الشاعر
ومعه كل أفراد وطنه، ليوضح بأن إرادة الحياة هي من إرادة الشعب، فإذا كانت هذه

الإرادة قوية، فيها إصرار على تحطيم القيود فلا يكون أمام القدر إلا أن يستجيب لقوة إرادة الشعب، وإذا كان ظلام الليل يغشي هذه الإرادة، في زمن ما، فلا بد أن يبرز الفجر ويزيل هذه الظلمة لتتكسر قوة المحتل أمام إرادة الشعب.

ويعلم الشابي أن مصير الشعب بيده، لا بيد محتله، وذلك بعزمه وصموده لأن الحياة حتماً ستخضع له إذا كافح وبذل العرق والدم، وكشف الخنوع والذل عن نفسه. لأن الذي لا يشخص على مسرح الحياة يموت ويندثر، والشعوب التي يقتصر همها على العيش الميسور تبخر، ولم يعد لها وجود، وأما المنتصرون فهم الذين يعانون شوق الحياة.

ثم يرتفع الشابي بنبرته حين ينتقد أولئك المتقاعسين عن الصعود، ولم يستيقظوا من صفة الدهر، فسيبقون خاملين لا آثار لهم ولا كرامة، وهذه سنة الحياة، وبهذا حدثت الكائنات الشاعر.

وينتقل الشاعر إلى حديث الريح ودمدمتها بين الوهاد، وفوق قمم الجبال وتحت الشجر، لأنها قوية تسعى إلى تحقيق هدف. وبين أن من يطمح إلى تحقيق غاية فعليه أن يكون مثل تلك الرياح، فلا بد له أن يغامر وأن يخلع الحذر من نفسه، فكما أن الريح تحوض غمار الشعاب وتجتاز المناطق الوعرة دون أن تهاب أذى اللهب المشتعل، فعلى من يريد الحرية أن لا يخشى لهيب الحر الشديد المحموم، ومن لا يغامر في الوصول إلى الذرى والقمم العالية فإنه سيبقى في الحضيض وفي حفر الهوان والمذلة، فلا يتنسم الحرية والكرامة.

ثم يقول: وهنا طاف بخيالي ثورة عارمة، وضجت في صدري أفكار شديدة، فأطرقت مصغياً إلى صوت الرعود المخيفة التي تقصف كالمدافع، وشاركها عزف الرياح وجاء انهار المطر التي تحمل في ثناياها السيول القوية لتدفعه إلى الثورة على الواقع المؤلم من أجل الخلاص من المحتل ونيل الحرية، لتصبح الحياة أجمل. ويستنطق الشاعر الأرض التي هي أم البشر، فإذا بها تؤثر من أبنائها أصحاب الطموح الذين لا يستسلمون ولا يحنون الرقاب، وفي الوقت نفسه تلعن الخانعين الذين هم ليسوا من أبناء الحياة، لأنهم قاعدون مكثفون بالقليل من العيش، وكأن الواحد منهم حجر أصم لا يهتم بمسايرة الزمان في حركته المستمرة، فالكون حي يجب الحركة الدائمة ويكره السكون ويحترقه مهما عظم وكبر، فالأفق لا يحتضن الطير الميت، والنحل لا يقبل الزهرة الذابلة، وهكذا

الأرض فلن تقبل الأموات في أحشائها لولا حنانها على أبنائها. ولذلك فقد قدمت النصيحة لأبنائها من البشر بأن يغامروا وأن يناضلوا، وإلا فاهلاك والويل لمن لم يغامر ولم يناضل في سبيل حياة فضلى، والويل لمن يضعف أمام تقلبات الدهر ولم يعارض أو يحتج.

ثم يخاطب الشاعر ليلة من ليالي الخريف ليعبر عن الحيرة واليأس ومما يعتري الأشياء في هذه الحياة، فليل الخريف مليء بالأحزان والملل، مع أنها ساكنة وصامتة بعد أن كانت نجومها مضيئة، فغنى الشاعر لهذا الحزن ومن أجله، فسكر هذا الحزن من غنائه المؤثر والمعبر.

ويحار الشاعر فيسأل الدجى: هل تعيد الحياة والشباب لمن مات؟ أو هل تعيد من ذبل عمره إلى الربيع؟ وكيف تحييه شفاه الظلام وقلبه لا يتكلم ولا يرد جواباً، وحتى هذه الأسئلة لم ترق عذارى السحر، لأن ذلك لا ينطوي على قدرة الإيحاء، فالدجى يغشى الأشياء وينحصر عنها. فيتولى الغاب الإجابة نيابة عن الدجى في رقة وعذوبة تشبه لحن الوتر فيقول: يأتي الشتاء ومعه الضباب، وتأتي الثلوج ويأتي المطر، فيزول السحر، سحر الغصون التي سقطت عنها أوراقها وتعترت، وسحر الزهور التي ذبلت وانطفأت، ثم سحر الثمار الناضجة فزال عنها جمالها، فهوت الغصون وتبعثرت الأزهار، فتلاعبت بها الرياح ونقلتها من واد إلى آخر، وغشيتها السيل فساقها معه، وأصبحت كالحلم فزال جمالها بعد أن تألق فترة من الزمن.

لكن جذورها بقيت في البذرة تحت التراب، وهذه ظاهرة طبيعية ليدرك الشاعر أن التغير الذي يحزنه لا ينال منه إلا القشور، أما جوهر الأشياء فباقية مهما حصل من تغير، والجذور تبقى في رحم التراب التي تكمن فيه الحياة ثم تولد من جديد لتعيد سيرتها عندما تواتيها الفرصة المناسبة عبر تتابع الفصول.

وينمي الشابي رومانسيته، فتنمو معها الجذور في أحوال متقلبة مع أحوال البشر في الأحلام الذاتية والذكريات، فإذا كانت البذور تحمل بجمال الفصول وروعة الحياة وتغيرها الذي يبعد السأم وهي تتذكر الغيوم في الأفق كما يتذكر الأليف أليفة، فالأولى بالإنسان أن يتذكر وأن يحلم بجمال الحياة، فمن أعماق التراب ومن تحت الضباب والثلوج والمطر وقساوة الشتاء تظهر الحياة، ويأتي الربيع بجماله وشذا عطر أزهاره واخضرار المروج فيه.

وحتى يوضح الشاعر تطور الزمن وتغيره يرمز إلى ما ينتاب المرء من صروف الزمان الذي يسير بصحبة الصروف والمصاعب والمشاق الكبيرة، ولا تكاد تزول واحدة حتى تعقبها أخرى، ومع ذلك فالأمل باق وشهوة الحياة لا تنقرض، بل تظهر أحداث جديدة يسطرها تاريخ الكون فتتمو وتتجدد وتعاقد أضواء الصباح موشحة بغموض السحر.

ويحار الرائي حينها! أهو حلم أم حقيقة؟ أم هي أحلام يقظة؟ فيسأل أين الضباب الذي كان في الصباح؟ وأين جدول الماء بسحره الخلاب؟ بل وأين ضوء القمر في الليالي الهادئة؟ ثم تتابع التساؤلات عن أسراب الفراش بألوانه الشفافة الزاهية، وعن النحل بطينته، وعن الغيوم وهي تمر، وعن أشعة الشمس وعن الكائنات، ليأتي التساؤل الكبير عن الحياة التي كان ينتظرها.

لقد عادت شمس الربيع الحانية رقيقة لا تؤذي الكائنات التي صبرت على برد الشتاء لأنها انتظرت معانقة الربيع الجميل الوديع، ومن أجل ذلك جاء رد الطبيعة للربيع وقد اشتاقت إلى النور، إلى الحرية فوق الغصون، إلى ظل الشجر، إلى النبع بين المروج يغني ويراقص الزهر، إلى ألحان العصافير، وهمسات النسيم في الصباح، إلى لحن المطر، اشتاقت إلى الكون كله والوجود بها فيه، هذا الكون الذي ساده السكوت والجمود، هذه كلها عطشى للحرية وللحياة من قيود الشتاء لترى كون الربيع الجميل وهو يعيد الشباب وتعود معه بسمة الكون، هكذا يمشي الزمان وتغير الحياة، بسرعة خفق جناح الطير، لتنتصر الحياة على العدم عندما تصدعت الأرض وخرجت الحياة من البذرة في باطن الأرض، بألوان زاهية فأعاد الشباب الذي غشيه الذبول، ليحدث الأرض فيقول ها أنت قد منحت الحياة وخلدت في نسلك المدخر داخل البذور.

المرء الذي يعمد النور ويحبه، فإن النور يباركه أينما وجد، فهذا هو الفضاء بفجاجة، والضيء بسعته، وهذا هو الوجود الواسع النضر، فإليك الجمال المستمر، فميدي أيتها الحياة في جمال الربيع كما شئت فوق الحقول بالثمار الناضجة والزهر المتفتح وناجي النسيم وناجي القمر لتعود الحياة بأشواقها وفتنتها، ولنعد إلى الحياة نتأمل حقائقها لنعرف قدر جاهها وسحرها الفتان الذي يشهد بقدرة وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ويؤكد الشاعر في نهاية قصيدته، بأن ظلام الليل يخفي تحت ستاره الشفاف جمالاً عميقاً ومؤثراً يمدنا بالصور الجميلة التي تغذي خيالنا ويذكي أفكارنا بعظمة الخالق

113 الذي صنع هذا الكون بهذه الروعة الساحرة، فأضاء الكون بكواكب لامعة وضياء
لنهتدي بها في الليل، وخلق لنا الزهر الجميل ليصنع الإنسان منها عطره الشذي، وخلق
الطير المرفرف بأجنحته ليزيد جمال الكون، وخلق القمر ليزيد جمال الليل ونستأنس
بضوئه، ليعلن في عليائه أن الحياة هي للطموح القوي الذي يتحمل ويصبر لينال في
النهاية حرته وكرامته، وهكذا يستجيب القدر لإرادة الأقوياء، الذين يناجون الحرية
فتلبي طلبهم وتقبل عليهم من رحم البؤس والعذاب، لأن النفوس الطامحة للحياة
الكريمة لا بد أن يستجيب لها القدر.

الأفكار في القصيدة:

- 1- الأبيات (1-5): يوضح الشاعر فيها حتمية انتصار الإرادة الحرة مهما واجهتها
من تحديات، ومصدر هذه الفكرة الأحداث التي عاصرها الشاعر.
- 2- الأبيات (6-11): يجري الشاعر حواراً بينه وبين الريح، وهو صراع من أجل
البقاء، ويؤكد بأن الأماني لا تتحقق إلا بالعمل والجهد.
- 3- الأبيات من (12-18): يحاور الشاعر فيها الأرض التي تؤكد وقوفها مع
الأقوياء وأصحاب الإرادة والعزيمة القوية، وأنها تحتقر الضعفاء.
- 4- الأبيات من (19-34): يؤكد الشاعر أن الطبيعة ترفض الضعفاء ولا تكترث
بما يحل بهم من ويلات، وأن الحياة متجددة عبر البذور.
- 5- الأبيات من (35-44): يصور الشاعر أحاسيسه حول مسيرة الكون، ويؤكد
أنه لا شيء أجمل من الحياة الحرة الكريمة.
- 6- الأبيات (45-56): يناجي الشاعر الطبيعة ويحاورها، ويبين ما في الكون من
سحر وجمال متأثراً بجمال وطنه منبهاً الشعب التونسي إلى سر هذا الجمال والذي يستحق
منه صحة تقاوم المحتل ونيل الاستقلال.
- 7- الأبيات (57-63): الطلب من الشعب، التمسك بحقه وطموحاته المقدسة
لتحقيق الهدف الكبير بنيل الحرية والاستقلال عن طريق الدم، الذي هو أهون من الذل
في ظل الاحتلال.

3- نشيد الجبار

هذه القصيدة على البحر الكامل وتفعيلاته:

ب - ب - ب - / - ب - ب - ب - / - ب - ب - ب - / - ب - ب - ب - ب -

وقد جاءت القصيدة بقطع متفاعلين لتصبح «مُتفاعل» أي بحذف الوتد المجموع من الآخر، أو دخول زحاف مضممر وهو تسكين الثاني المتحرك، فتصبح التفعيلة مكونة من سبين خفيفين ووتد مجموع «مُتفاعلن أو مستفاعلن»

سأعيش رغم الـداء والأعداء كالنسر فوق القمّة الشمّاء
ب - ب - ب - / - ب - - / - - - - ب - - / - - - - / - - - -
متفاعلن متفاعلن مُتفاعل متفاعلن متفاعلن

شرح الأبيات

1- الأبيات من (1-6): حملت الأبيات فكرة مضمونها ثقة الشاعر بنفسه أمام قوة المستعمر وظلمه، وما يتأتى من ذلك من ألم. ويقول:

سأحيا قوياً شديداً رغم المرض الشديد ورغم ظلم الأعداء كالنسر عالياً مرتفعاً
فوق قمم الجبال، متطلعاً إلى الشمس المرتفعة المشرقة بضوئها، ساخرأً من السحب التي
تغطي الحقيقة والأمطار الشديدة والأنواء، ولا أنظر بطرف عيني إلى الظلال ولا إلى الحفر
البعيدة السوداء ولن تنكسر همتي، وسأبقى سائراً حالماً مغرداً إلى الحرية مصغياً لموسيقى
الحياة وإلهامها لأسيل الوجود المطلق في قصيدي مستمعاً إلى صوت الحق والكرامة الذي
يحيي القلوب الضعيفة.

2- الأبيات من (7-13): يتحدى الشاعر في هذه الأبيات الأعداء من خلال
القدر، حيث شخص القدر وحاوره وتحدث إليه وهو يرى:

أن القدر يجارب آماله التي يود تحقيقها بكل ما فيه من ظلم وجبروت ويرسل عليه
شتى صنوف المصائب، لكن الشاعر يقف أمام هذا القدر ليرد عليه بعدم قدرته إطفاء
جذوة النار المؤججة في دمائه مهما كثرت مصائبه ومهما هاج موجه وعواصفه. ثم يتحدى
القدر في مرض أو مصيبة لأنه يرضى بقضاء الله.

ومن خلال هذا التحدي فلن يذل الشاعر ولن يستكين ولن يبكي ويتضرع دون أن
يضعف أو يستسلم، بل سيظل يحيا حياة الجبارين وهو يتطلع إلى بزوغ الفجر الجديد

الجميل وإن كان ما يزال بعيداً، وحتى يطل الفجر فلن يخيفه الظلام الذي يعترض طريقه أو الأشواك المؤذية أو الحجارة، لأنه قادر على تجاوز كل ما يعترضه، ويؤكد الشاعر أنه يتحدى الخوف كما يتحدى الردى والموت وكل ألوان البأساء التي وصفها بالصواعق. وقد طعم الشاعر أبياته هذه بالاستعارة حين خاطب القدر في البيت الأول كما استخدم التشبيه في (حرب آمالي) وكنى في البيت الثامن عن الثورة الكامنة في صدر الشاعر، كما جاءت الاستعارة المكنية في الأفعال: اهدم - أملاً - انشر، وكلها حملت معنى التحدي، وهذه من الجماليات التي انتشرت خلال الأبيات.

3- الأبيات (14-22): وتحمل الأبيات فكرة تفاعل الشاعر بالمستقبل، والسعادة بالخلاص من مآسي الحياة. ويستمر الشاعر في تحديه بأنه سيقى مستمراً صامداً، وسيظل صادحاً بشعره مترناً بقصيدته، مستمراً في إصراره على الصمود كالنجم المتوقد في الظلام أو من خلال آلام المرض، فالأمل يحدوه في قلبه وبين ضلوعه، ولذلك لن يخشى السير في الظلماء، وسيبقى حياً بنايه وأنغامه التي لا تتوقف ولا تنتهي، وهو يشبه نفسه بالبحر الواسع الذي تتلاطمه الأمواج وشدتها ولكنها لا تزيده إلا إصراراً وعزماً.

أما إذا قضي الأمر وانتهت حياته، وتوقف نايه، وانطفأ القلب الذي كان حياة مشتعلة قوية، فهو سعيد لأن الموت انتقال من حياة الآلام والبغضاء ليدوب في فجر الجمال الخالد والسعادة الدائمة والنور الساطع.

4- الأبيات (23-35): السخرية من المستعمر وتحديه.

يخاطب الشاعر أعداء الأمة، ويبين لهم فضائحهم للشعب المقهور من احتلالهم بأن هذا الظلم لن يستمر طويلاً ونهب الخيرات لن يدوم، فكل هذه الأفعال لن تفتت عزمته ولن توقف حماسه، وستأتي العاصفة لتأخذ في وجهها كل ما يعترضها، وسيختفي المحتل ومن يسير في دربهم، ويعود الأمان إلى الوطن، وسيكون الجواب من الشعب قاسياً وواضحاً. وقد جاءت خاتمة القصيدة قوية بعنفوان الشباب وتحدي المستعمر، والأبيات مليئة بإشارات التحدي عامرة بالإيمان الذي يتحدى الأوضاع المؤلمة.

فنون الشابي الشعرية

الشابي شاعر وجداني، لكن أشعاره الوجدانية كانت قليلة، فقد ورد له شعر في الغزل والوصف والشكوى، والقصيدة التي رثا فيها والده هي وجه من وجوه الشكوى التي كثرت في ديوانه، بل وتغلب على أشعاره، لكن الشابي له ميزة خاصة في شعره قلما نجدها في الشعر العربي منذ أقدم العصور، وهي خاصية سعة الخيال، وشبوب العاطفة، وموسيقى ساحرة، لكن الموت كان له بالمرصاد، فموته المبكر لم يتيح له الفرصة في المزيد من أغراض الشعر. وتكاد تنحصر فنونه في ثلاثة جوانب: الشعب والحب ووصف الطبيعة، أما الشكوى فمجالها كبير في شعره تحتاج إلى أن نفرّد كتاباً خاصاً بها لأنها تدخل في معظم قصائده ويشتمل ديوانه أغاني الحياة قصائد متعددة في باب الشكوى.

الشابي والشعب

إن من يستعرض ديوان الشاعر ورسائله ومذكراته، فإنه يقف على حقيقة ما ينفع به من أحداث عن طريق عاطفته، ويتمثل هذا الشعور في الشفقة والحسرة تارة وإبداء العطف والحنان تارة أخرى، وهذا واضح في إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان وفساد الأوضاع، كما يتمثل في تهديد المحتل بثورة الشعب وسيله الجارف، ويظهر هذا واضحاً في قصيدته «إرادة الحياة» التي بدأها بقوة حين جعل السبيل الأول حركة الشعب في قوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
وهو يحترم شعبه ويثق في قدرته حين يقول:

وفي صيحة الشعب المسخر زعزِعْ تخرُّ لها شمُّ العروش وتهدم
لكنه مشفق على الشعب ويتعاطف مع أحاسيسه ومشاعره في قوله:

كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه، يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعس ف، أماتوا صداحه ونواحه

هذا الشعب الذي فقد الرائد والمنقذ، وانشغل المصلحون بسفاسف الحياة ومظاهر الدنيا وعاش الشعب تائهاً:

الشاعر الموهوب يحرق فنه هدرأ على الأقدام والأعتاب

والشعب بينهما قطيع ضائع كالسدود في حمم الرماد الخابي

وكان الشابي يعيش مع الناس كالغريب الوحيد أو كالمأسور، ولذلك نراه يريد الحياة بعيداً حتى عن أمته وأهل بلاده، ويحاول أن يستنهض همة الشعب ويستثيره بدعوته للثورة وتحطيم الأغلال، يدعو الشعب صارخاً بحكمته منادياً عليه يبدل الأوضاع:

أين عزم الحياة؟ لا شيء إلا السموت والصمت والأسى والظلام
ثم يتساءل عن حقيقة الشعب الذي عشق الحياة وتشبث بها:

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس أين الطموح والأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان أين الخيال والإلهام؟
أين يا شعب فنك الساحر الخلاق أين الرسوم والأنغام؟
إن يم الحياة يدوي حواليك فأين المغامر المقدم

وما زال ينادي الشعب، ويمعن في العتاب، لعل الشعب يستيقظ من غفلته الثقيلة، فيدعو إلى نبذ القيود، فالصخور تنشق أمام عزم الحياة ويظهر منه النبات الضعيف:

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه
والحب يخترق الغبراء مندفعاً إلى السماء إذا هبت تناديه
والقيد يألفه الأموات ما لبثوا أما الحياة فيبليها وتبليه

فالحياة لا تتأتى ليائس أو ضعيف أو ميت، فهي لا تقبل الحلول، فإما إقبال وإما فناء وشقاء:

وللشعوب حياة حيناً وحيناً فناء
واليأس سموت ولكن سموت يثير الشقاء

فهو يطالب الشعب بالإرادة القوية الصادقة التي يساندها الجد ويدفعها العزم لأن الليل مهما طال، فإن الفجر قادم والصبح منبلج:

ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومرشد هذا كله الطموح رغم العقاب:

إذا طمحت للحياة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر

ثم يلتفت بعد ذلك إلى الطغاة الذين استغلوا الشعب، فينذرهم بالثورة التي تجرف كل ما يعترضها وهي مندفة بشدة، ينذر المستبدين بالنار الكامنة تحت الرماد:

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
سيجرفك السيل: سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل

ويكمل الصورة في تهديد المستبد المتجبر فيقول:

لك الويل يا صرح المظالم من غد إذا نهض المستضعفون وصمموا
إذا حطم المستعدون قيودهم وصبوا حميم السخبط أيا ن تعلم

هذه هي ثقة الشاعر بالشعب، فهو غافل خائف، ولكن الأمل يحده حين ينفذ الشعب غبار الاحتلال، ويأتي يوم الثأر يوم يهب الشعب بإرادته وعزيمته، وسيثار من المحتل:

سيثار للعز المحطم تاجه رجال إذا جاش الردى فهم هم
رجال يرون الذل عاراً وسُبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم

لكن إحساس الشاعر المرهف يفعل مع أعصابه المكدودة وجسمه العليل فيغضب ويثور، لأن آماله في الشعب لم تتحقق، فيشعر بالإحباط، فيسخط، ويعتزل الشعب ويهرب إلى عالمه العاطفي الذي شاده من آماله وآلامه.

ينس الشاعر وهو معذور في ذلك خاصة وأن عمره كان قصيراً، أو أن إحساسه بنهاية حياته قد اقترب، فلجأ إلى الغضب الصاخب، حتى تمنى تحطيم هذا الشعب انتقاماً، وقد بنى ثورته وسخطه على الشعب لإحساسه بأن هذا الشعب يكره النور، لأنه لا يدرك الحقائق، إنه كالطفل الصغير يلعب بالتراب وسط الظلام. وقدّم النصيحة، لكن الشعب لم يسمعها ولم يصغ إليه، فينسحب تاركاً شعبه في ضلاله وينفرد في الغاب يعيش مع يأسه في الطبيعة ومفاتها، «هكذا كانت رسالة الشابي قد انتهت بسلبية بغیضة ويأس قاتل، ولهذا العمر القصير أكبر الأثر في بتر تلك الرسالة التي لو قدر لصاحبها أن يعيش أكثر مما عاش، لكانت رسالة تامة لا تنتهي بتلك الخاتمة المفجعة»⁽¹⁾.

(1) دراسات عن الشابي، أبو القاسم محمد كرون بقلم محمد العروس المطوي.

فأهوي على الجذوع بفأسي
تهد القبور رمساً برمس
كل ما أذبل الخريف بقربي
لأقضي الحياة وحدي بيأس
بأهل لخمسرتي ولكأسي

أيها الشعب ليتني كنت خطاباً
ليتني كنت كالسيول إذا سالت
ليتني كنت كالشتاء أغشي
إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي
ثم أنساك ما استطعت فما أنت

المرأة في شعر الشابي

تعني المرأة للشاعر الرومانسي الشيء الكثير، ومعروف أن الشابي كان شاعراً رومانسياً بأصدق المعاني وأعمقها. وقد تمثلت المرأة عنده مسرحاً لخياله طريفاً لعواطفه، عروساً لشعره.

وقد تحدث الدارسون عن هذا الجانب وأفاضوا في شعر الشابي ومنهم الأستاذ التليسي الذي عقد في كتابه «الشابي وجبران» فصلين حول المرأة عند الشابي وجبران، كما تحدث الأستاذ زين العابدين السنوسي عن عواطف الشابي في «حب المرأة الرؤوم» حين تحدث عن حب الشابي الأول الذي سبق زواجه.

لقد وقف الشابي إلى جانب «الطاهر حداد» في دعوته إلى تحرير المرأة الذي ألف كتاباً بعنوان «امراتنا في الشريعة والمجتمع» وإن لقيت دعوته استنكاراً وسخطاً من المجتمع والمفكرين إلا أنها لقيت الرضا والتأييد من الشابي. فقد كان الشابي ساخطاً من وضع المرأة في المجتمع التونسي، كما كان ناثراً على وضع المرأة في الأدب العربي القديم، لأن الشاعر القديم في رأيه لم يكن يفهم من المرأة إلا أنها «جسد يشتهي، ومتعة من متع العيش الدنيء» وحسب اعتقاده أن الشاعر العربي القديم لم يعرف تلك النظرة الفنية التي تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء، وهذا واضح في كتابه «الخيال الشعري عند العرب» وبغض النظر عن آرائنا في عدم موافقتنا للشابي في هذه النظرة أو تجاهله للحب المثالي عند عنتره وغيره من شعراء العصر الجاهلي أو الحب العذري عند الشعراء في العصر الأموي، فالذي يهمننا هو ثورته على وضع المرأة العربية وخاصة في تونس، حيث حاول أن يعبر عن ثورته العقلية وأن يستجيب لظمئه الروحي بوضع المرأة في مثال رفيع يملأ قلبه ووجدانه ومشاعره.

ولهذا فإننا نحس أنه يعبر عن المرأة من جانب إنساني، يحمل معنى القداسة، ويربط بينها وبين أجمل ما في الطبيعة ويغني لمعنى الحب، ليجد في ذلك عالماً سحرياً رقيقاً يزوده بصور من الحياة ما يفوق الجمال الحسي.

يؤكد من عاصر الشابي ومن كان قريباً منه أن الشابي عرف الحب وهو يافع، فكانت فتاته الأولى التي تربي معها في بلدته الشابية، ثم اختطفتها يد المنون غضة يافعة، فحزن عليها حزناً عميقاً، حتى كان رحيلها سبباً من أسباب مرضه في رأي صديقه زين العابدين السنوسي، ثم زوج الشابي بامرأة أنجب منها طفلين، هما محمد الصادق الذي عمل ضابطاً في سلاح المشاة بالجيش التونسي، وجلال وعمل مديراً لإحدى شركات الحديد في تونس. ولكن رغم ذلك فقد كانت للشابي خصوصية في حياته العاطفية، ربما لم يطلع عليها أحد وما كان من تحليلات حول هذا الموضوع إنها كان من باب التخمين غالباً.

ورغم ذلك فقد بقي يتغنى بالحب حتى آخر لحظة في حياته، غناء الذي يؤمن أن الحب هو معنى الحياة. وظلت المرأة التي يحبها من صنع خياله، فهي امرأة مثالية تكونت من روح لا من جسد، ولذلك جاءت خيراً مطلقاً، وحباً روحياً شفافاً يسمو فوق نداء الغريزة، وهذه ظاهرة مشتركة بينه وبين الرومانسين إنه حب «شيلي» و«وردز ورث» و«دي موسيه» وغيرهم.

ولعل قصيدة «صلوات في هيكل الحب» مثلاً لصورة المرأة الشفافة الرقيقة وكأنها جاءت من عالم آخر، ملائكي سحري لم يعرفه البشر:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام	كاللحن كالصباح الجديد
كالسقاء الضحوك، كالليلة القمر	كالورد كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال	وشباب منعم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس	في مهجة الشقي العنيد

كما نجد مثل هذه الصورة أيضاً في قصيدته «أيتها الحاملة بين العواصف» حين يقول:

أنت كالزهرة الجميلة في الغاب	ولكن ما بين شوك، ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير	والدود من صنوف السورود
فافهمي الناس إنما الناس خلق	مفسد في الوجود غير رشيد
ودعهم يقيمون في ظلمة الإثم	وعيشي في طهر كالمحمود
كالملاك البريء كالوردة البيضاء	كالموج في الخضم البعيد
كأغاني الطيور كالشفق الساحر	كالكوكب البعيد السعيد

ويستمر الشابي في رسم أحاسيسه وتصويره الفني في صور المرأة الملائكية الكاملة التي تجمع أجمل ما في العالم لأنها تمثل المعاني الإنسانية الراقية:

أنت من ريشة الإله فلا تلقي بفن السما لجهل العبيد
أنت لم تخلقي ليقربك الناس ولكن لتعبيدي من بعيد
ويربط حديثه بالحب، لأنه يمثل عاطفة مقدسة تتجه إلى مقدس، هو المرأة تحمل صورة جديدة هي صورة الأم التي تحمل أقدس عاطفة وهي عاطفة الأمومة، ومع كل هذا التقديس فإن غلالة سوداء تكنف حديثه حين يتحدث عن موت طفل ونسيان أمره، عاطفة تتوشح بالحزن والألم بسبب الفاجعة التي تحول هذا الحب إلى مأساة:

كل نسوك ولم يعوجوا يذكرونك في الحياة
والدهر يدفن في ظلام الليل حتى الذكريات
إلا فؤاداً ظل يخفق في الوجود إلى لقاك
ويود لو بذل الحياة إلى المنية وافتدك

وربما اصطدم الحب بعقبة من العقبات فيصبح أيضاً حياً حزيناً فبعد أن كان مع الحبيبة كزوجي طائر تجده اختفى خلف الغيوم وذلك في قصيدته «الذكرى»:

كنا كزوجي طائر في دوحه الحب الأمين
نتلو أناشيد المنى بين الخمائيل والغصون
متغردين مع البلابل في السهول والحزون
حتى إذا كدنا نرشف خمرها، غضب المنون
ثم اختفى خلف الغيوم كأنه الطيف الحزين

نظرة حزينة وحب وصل مداه ليختفي أو يقترن الموت بالحب ليعبر الشاعر عن مأساة:

قد كان لي ما بين أحلامي الجميلة جدول
يجري به ماء المحبة طاهراً يتسلسل
قد كان ذلك كله بالأمس! بالأمس البعيد
والأمس قد جرفته مقهوراً يد الموت العتيد

ذبل الزهر على يد الخريف الذي يحمل رياح عاصفة، فقضت على كل ما فيه حياة
ورغم ذلك فإن معنى الحياة عنده هو الحب، والموت لا يكون موتاً إلا لأنه يقضي على هذا
الحب، ويوضح ذلك في قصيدته «أنا أبكيك للحب» حيث يقول:

إنما أبكيك للحب الذي كان بهـاه
يملاً السـدنيا فأنى سرت في السـدنيا أراه

إذن يصور الشاعر المأساة بفقدان الحب.

وكان الشابي يستدعي في شعره الحب ليغمره ويفيض عليه ليكبله ويدرك سعادته
وفنه من خلال هذا التكييل لعلها تنتج شيئاً جديداً.

كيلي يا سلاسل الحب أفكاري وأحلام قلبي الضليل
كبليني بكل ما فيك من عطر وسحر مقدس مجهول
وهو يتمنى مقابلة الحبيبة وهي أحلام وأمانى لا تلامس أيد ولا شفاه.

ليتني كنت زهرة تتثنى بين طيات شعرك المصقول
أو فراشاً أحوم حولك مسحوراً غريقاً في نشوتي وذهولي
وما أظن قول الشاعر إلا عاطفة رومانسي وخيال جانح لا تغور ولا تبلغ أقصى
مدى العواطف، وهذه مثالية تشرق مع الخيال في شفافية متكاملة واثلاف بين عناصر
الجمال والسعادة، وهذا يتجلى حين يعرض لعيني الحبيبة:

أي دنيا مسحورة أي رؤيا طالعيني في ضوء هذي العيون
ويلاحظ الدارس أن الشابي وُحِد بين الطبيعة والمرأة، وهذا مبثوث في معظم
قصائده، فالحب مشرق كالصباح وينمو كالورود وتشخص فيه السماء ورقة الربيع وطهر
الثلوج وسحر المروج:

أراك فتحلـو لـديّ الحـياة
وتنمو بـصدري ورود عـذا
ويفتتنني سحر تلك الشفاه
فأعبد فيك جمال النساء
ويملاً نفسي صباح الأمل
ب وتحنو على قلبي المشتعل
ترفرف من حولهن القبل
ورقعة ورد الربيع الخـضل

هكذا كانت رقة المعاناة وعذوبة العاطفة وحنانها، فالحياة تبدو أجمل عندما تطالعه الحبيبة لأنها تخلع من ذاتها على الوجود، تغشاه بالصور النفسية.

كما أن للحب قدرة عجيبة في الإحياء والبعث:

أراك فأخلق خلقاً جديداً كأنى لم أبُلُ حُرب الوجود
وفي موضع آخر يقول:

أراك فتخفق أعصاب قلبي ويهتز مثل اهتزاز الوتر
فتخطو أناشيد قلبي سكري تغرد تحت ظلال القمر
هذا الحب هو الذي يوحى له بالقصيد والنغم الجميل.

هكذا نظر الشابي إلى المرأة، وربطها بالحب تارة وبالطبيعة والكون تارة أخرى، فهي الملاك الذي يهبط من عالم الخيال السحري ليشفي الجراح ويحمل رحيق الوجود المقدس، وقد كانت النظرة الرفيعة للمرأة والحب خير مساندة لدعوة تحرير المرأة في تونس، وقد تركت هذه الدعوة الشعرية أثرها في المجتمع التونسي. كما كانت نظرة الرومانسيين للحب توضح العلاقة بين الرجل والمرأة. وهكذا رسم الشابي لوحة للمرأة لتظل في ضميره خيلاً بريئاً ملاكاً تعيد للطبيعة أضواءها وعطرها في نفس الشاعر وفي عالمه، متولدة من عذريته وصوفيته التي أشرفت في نظرتة للمرأة والحب.

دراسات حول الشابي

أعد أبو القاسم محمد كرو كتاباً، فيه مجموعة من الدراسات مختارة من أقلام عدد من المهتمين بحياة الشاعر وآثاره، ومن هذه الأقلام ما كتب عن الشابي المصلح، أو من كتب عن أثر أدباء المهجر في أدب الشابي، وغير ذلك مما سيأتي لاحقاً، وقد جاءت بعض هذه الدراسات مثلاً للبحث العلمي أو مقالات فيها خلاصة آراء الباحثين والدارسين، وتوزعت هذه الدراسات بين أدباء ونقاد المغرب العربي، وبعض هذه الدراسات كانت مشرقية. وسوف أضع هذه الدراسات بشيء من الإيجاز على النحو الآتي:

1- الشابي وتجربة «الفجر البعيد» للأستاذ الشاذلي القليبي؛

قدّم الباحث لدراسته عن العقبات التي تواجه الدارس لشعر أبي القاسم أو التوفيق بين النزعات المتضاربة في شعره.

ثم تحدث عن بعض القصائد التي تعبر عن حب الشاعر للحياة وفتنتها، والتي سرعان ما تتحول إلى كآبة وتبرم، ثم يلتفت إلى الجمال الذي لا يكون إلا مظهراً خلافاً وسحراً مزوراً، واستشهد الباحث بأبيات من قصيدة «الجمال المنشود» التي يتغنى الشاعر فيها بجمال العذارى، ثم إذا هو التقى بالحياة في بعض آياتها الفاتنة أعرض عن ذلك التشاؤم القاتم وتغنى بها في نشوة العاشق الولهان.

ويبين الأستاذ الشاذلي أن الشيء الذي يلاحظ في شعر أبي القاسم عامة هو رفضه للحياة البشرية على أنها مظلمة مزيفة، وأن الشاعر في بدايته ارتقى بشعره إلى النغمات الكبرى الخالدة. ورجع إلى توق الإنسان إلى الغيب وتجاوزه نحو المطلق. ثم أوضح أن الشاعر قد رمى إلى ما وراء هذه الحدود المادية ورمز إلى ذلك بالنور والصبح، ومع ذلك فلم يستطع أن يتخلص من ظلماته، ولذلك كثرت في شعره الصور التي تمثله على طريق موحشة. وهذه الثورة هي المحرك العاطفي لحياة الشاعر الباطنة، وهي إشارات كثيرة في قصائده، كما أشار الباحث إلى الثنائية الغريبة لوجه الحياة عند أبي القاسم الشابي، وهنا ينكشف الوجود الحقيقي، الوجود السرمدي الروحاني الطاهر الذي سيكون له بعد خلاصه من قيود المادة. هذا الوجود الذي رمز إليه الشابي بالفجر البعيد والصبح الجديد كما بين أن الشاعر أحب الحياة، ولذلك كثرت ثورته على هذا الوجود الذي لا يقدم للحياة

الصورة الجميلة الكاملة التي ينشدها، وهو يدعو الشعب إلى إرادة الحياة كما يدعو إلى الثورة على الحاضر.

2- ميلاد الشابي للأستاذ أبو القاسم محمد كرو:

وضع الأستاذ محمد كرو دراسته هذه وقد مضى نصف قرن تقريباً على ميلاد الشابي، وبعد أن سجل صاحب الدراسة لمحات عن حياة الشابي، قال: «لا .. لا .. إن الشابي لم يمت ولن يموت .. وإن دفن جثمانه في أعماق الثرى وغاب كيانه المادي عن أبصارنا ... وكيف يمكن أن يموت من عاش قيثاره تنغنى ... » وقال أيضاً: «كيف يموت من علمنا أغاني الحياة، وأنار طريق الشباب بالحب والإيمان والنضال». ثم تحدث عن دعوة الشابي لشعبه للنهوض من كهوف الماضي ليسير نحو المجد، ولما لم يستجب الشعب لصيحته صرخ مندداً بالخوف والاستسلام لتلك الظلمات وتلك القيود، واستشهد على ذلك بأبيات للشابي، كما تحدث عن بيئة الشابي المحافظة ودراسته وعن غربته داخل وطنه وبين شعبه، وتحدث عن سخطه، ومرضه وموته وهو كالزهرة الغافية في أحلام الحياة، مات ليحل في تجربة جديدة، وفي عالم تحدثت عنه الأديان وتغنى به الشعراء، وبهذا تحققت أمانيه بسكوت جراحه واختفاء شجونته، فأقبل على الموت قرير العين نحو شاطئ الأبدية في فرح كبير بالحرية، وغبطة بالفجر الجديد، مودعاً عالمه الصغير، عالم الآثام والبغضاء وكأن حياته على الأرض حلم ليلة ساحرة.

الوداع الوداع	يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى	يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم
ونشرت القلاع	فوالوداع ... الوداع

3- كيف ندرس الشابي للدكتور محمد فريد غازي:

ألقي الدكتور محمد فريد محاضرة بعنوان «هل الشابي رجعي» وقوبلت محاضرتهم بمزيد من الاهتمام وفتحت باباً للنقاش بين الأدباء والنقاد والشعراء.

وقد قدم لبحثه بالحديث عن الباحث النزيه المتعقل، سيما فيما يعود إلى شاعر تونس أبي القاسم الشابي.

ثم تحدث عن خطة منهجية لدراسة الشابي بوصفه شاعراً فردياً، ووضح طريقة أخرى لدراسة الشابي التي تكمن في أنه فرداً من أفراد مدرسة شعرية كاملة، وهي المدرسة الرومنظيقية ووضع مقارنة بين أفراد هذه المدرسة وأصحاب المذهب الكلاسيكي. ووضع مقارنة بينهم وبين من جاء بعدهم وهو ما أطلق عليه بالمدرسة الرمزية، ويستمر الباحث في دراسته حتى يصل إلى القول: «... فإن المتأمل النزيه والباحث المتجرد لا مناص له من أن يعترف بأننا لم نتقدم تقدماً ملموساً في بحوثنا عن الشابي، ولكن النزاهة أيضاً أن نعترف بأننا قد بدأنا نقرب من معرفة حياة الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي اقتراباً يبعث السرور في النفس». ومن هذه الدراسات التي تحدث عنها الباحث فقد تحدث باختصار عن:

- 1- بحث نشره الأستاذ عامر غديره.
- 2- دراسة وافية نشرها أبو القاسم محمد كرو.
- 3- دراسة نشرتها - كراريس تونس.
- 4- دراسة نشرت بعنوان «مرض أبي القاسم الشابي».

ثم تحدث عن دراسات قام بها الدكتور عمر فروخ وأبو القاسم محمد كرو والشاذلي بو يحيى ومحمد الحليوي ومصطفى خريف وغيرهم، وهو يكبر عملهم وإخلاصهم، ولكنه أردف يقول إن هذه دراسات ارتسامية تبحث في الشاعر بطريقة حرة غير مرتبطة بمنهجية علمية مضبوطة. ثم كانت له دعوة للباحثين في تونس والبلاد العربية للتعاون في وضع تخطيط مضبوط لبحث الشابي في الميادين التالية:

- 1- القيام ببحث عام يمكن أن يؤرخ فيه لقصائد الشاعر بطريقة مضبوطة.
- 2- جمع رسائل الشابي وتنظيمها وتبويبها وشرحها.
- 3- الرجوع إلى يوميات الشابي ومذكراته.
- 4- نشر بقية مؤلفاته وخاصة الطبعة الثانية من «الخيال الشعري عند العرب».
- 5- الاطلاع على مسودات للشابي ومحاضرات لم يطلع عليها الناس.
- 6- الرجوع إلى شهادات معاصريه عن حياته وآرائه وتطوره.

4- الشعب في شعر الشابي للأستاذ محمد العروسي المطوي:

هل للشابي رسالة في الحياة؟ وما هي إن كانت؟ وما هي معالمها في شعره؟

تحدث الباحث عن شعور الشابي نحو شعبه الذي تمثل في الإشفاق والحسرة وإبداء العطف والحنان، ثم في إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان وفساد الأوضاع وباطل التقاليد ثم في تهديد الظالمين والطغاة بثورة الشعب وطغيانه، وبين أن هذا تمثل بالشعور المتشائم عند الشابي ويأسه، وصب جام غضبه عليه، ثم الاعتزال والهروب إلى عالم خيالي اختاره ليعيش فيه مع عالمه العاطفي الذي شاده من آماله وآلامه.

وقال: لقد حبا الشابي شعبه بالنصيحة والإرشاد، لكن الشعب لم يسمع النصيحة ولم يصنع إلى الإرشاد، وداس ما قدمه إليه الشاعر وحطمه، فتحطمت قوة الشابي وخار عزمه وانسحب من بين شعبه تاركاً إياه يتخبط في ضلاله يهيم بعزلته وانفراده، ثم يعود ليحاول أن ينسى هذا الشاعر الناصر الجحود، لتنتهي رسالة الشابي بسلبية بغیضة ويأس قاتل، ووضح أن سبب هذا هو العمر القصير الذي كان له أكبر الأثر في بتر تلك الرسالة التي يقول فيها:

أهوي على الجذوع بفأسي	أهيا الشعب ليتني كنت خطاباً
تمهد القبور رمساً برمس	ليتني كنت كالسيول إذا سالت
كل ما أذبل الخريف بقرسي	ليتني كنت كالشتاء أغشى
لأقضي الحياة وحدي بيأس	إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي
في صميم الغابات أدفن بؤسي	إنني ذاهب إلى الغاب عليّ
بأهل لخمرتي ولكأسي	لم أنساك ما استطعت فما أنت

5- الشابي وجبران للأستاذ خليفة محمد التليسي:

تحدث صاحب الدراسة في بداية مقاله حول ما عرف بأن الشابي تلميذ نابغ لجبران، ووضح ذلك من خلال مفاهيم الحب والحرية والتمرد، ثم تأثر الشابي بجبران حول فصل عقده للمرأة في شعره، كما بين ما أصاب الشابي حين اتهم بالخروج على الدين واتهام جبران بالتطرف ومحاربة الكنيسة له، وقارن الكاتب بين غربة جبران وغربة الشابي وأوضح العلاقة بين الغربتين.

ثم تطرق إلى القصيدة المشهورة إرادة الحياة للشابي وكأنه يقارنها بقصيدة جبران في قصة (البنفسجة الطموح).

وقد قدم أبياتاً شعرية يوضح فيها أثر جبران في شعر الشابي سواء في قصيدة النبي المجهول أو القصائد التي تتحدث عن الغاب والطبيعة.

وأخيراً بينت الدراسة أن الشابي قد تأثر بالأدب المهجري وكان تأثره خاصاً بجبران. ووضح أن على الباحثين أن يلتفتوا إلى جبران أكثر من أي أديب آخر، وهم في غنى عن التخطب والتعسف والتأويل على الظن والتخمين، وهو يعلن أن هذا البحث محاولة، لأنه يوصي «أنه إذا أريد فهم الشابي والمدارس الأدبية التي أثرت فيه وعملت في أدبه فإنه يجب أن نلتفت إلى جبران بصفة خاصة. ذلك لأن النعمة على الرجعية، ومحاربة الكهانة، وتقديس الحرية، واحترام الشخصية الإنسانية، والإيمان بالطموح، وعبادة الفن، والركون إلى الطبيعة، وبساطة الأداء في التعبير، والصدق في الشعور، والعبارة التصويرية، كلها أشياء تتلمذ فيها الشابي على جبران».

6- محاولة جعل إطار لترجمة الشابي للأستاذ عامر غديرة:

هذا بحث جدير بالاهتمام، فهو قيم لأنه يحقق في كل حدث من حياة الشابي. وقد تحدث الباحث فيه عن أشياء كثيرة، وما كتب عن الشابي من خلال الأدباء والكتّاب ومن خلال ترجمات وجعلها في إطار حقيقي، متبعاً التحقيق العلمي المرتكز على إعمال الرأي ومشاهدة الوثائق.

تحدث عن حياة الشاعر وعن أبيه ودراسته وأهم الأحداث التي حصلت مع الشاعر أثناء وجوده بالعاصمة، ثم انتقل إلى القراء الذين بدؤوا يطلعون على قصائد الشابي، كما تحدث عن رحلات الشابي مع والده في تونس، ثم انتقل إلى زواجه واعتبر هذا الحدث مشكلة صعبة لمن أراد دراسة حياة الشابي مستشفحاً بما جاء في مقالات السيد كرو والدكتور عمر فروخ وبعض من عرفوا الشابي. ثم تعرض لمشكلة مرض الشابي الذي مات فيه حتى يصل الكاتب إلى ملف الشاعر المرضي في المستشفى، وودّ في الختام لو تظفر حياة الشابي بالاهتمام ومقابلتها بالوثائق وأنه يرغب بالعودة إلى الموضوع إن شاء الله.

7- أبو القاسم الشابي للأستاذ محمد بدر،

هذه الدراسة كانت في لحظة تأيين الشابي، ولفت الكاتب النظر بأنها أول مرة تحتفل تونس بتخليد ذكرى أحد شعرائها، وبين أن الشابي نبع مستقل تدفق وحده، وبين منزلة

الشاعر من خلال دراسات وصلت من الشرق والغرب. وقد وضع الباحث أن الشابي «حافظ على تراثنا اللغوي أشد المحافظة وسبكه في قوالب جديدة من عقله الجديد، وخلع عليه ظلالاً من أشعة روحه التي كانت تحيا بيننا، على أنه بين مجددي الأدب في هذا العصر يعتبر المثل الأعلى فلم يتكلف نظم قصيدة في الآلهة «أزيس» أو ينظم أخرى في البكاء على (الأكربول) المتصدع، ولكنه كان عربي الدم والملامح واللسان يشعر بأنه قطعة من قومه لا يعني غيرهم في كل ما يقول». ثم تحدث عن أهم مظهر للتجديد الذي توخى فيها البساطة مع قوة ومقدرة، ثم بين أنه خالف المجددين الذين يطلعون على شعوبهم ساخطين ساخرين. ثم بين عذر الشابي في تأثره بأحد الشعراء السابقين لعدم معرفته لغة أجنبية. وانتقل الباحث في دراسته إلى موضوعات الشابي الشعرية، وأظهر أنه شاعر الشعب وشاعر الوطن ثم قال: «لم نحتفل قبل اليوم بذكرى مثل ذكرى هذا الذي خلد نفسه شعره ... كسيل جارف يريد أن يروي الأرض المجذبة وقد رواها».

8 - في ذكرى ميلاد الشابي للأستاذ الهادي العبيدي،

أثنى الكاتب في البداية على شباب الاتحاد الصفاقي الزيتوني الذي نظم الاحتفال بالذكرى. لأنها في رأيه أنفع الذكريات وأجداها وأعظمها فائدة، ثم تحدث عن عصر الشابي وما فيه من تملل للنهضة واليقظة، ثم بين أن الشابي لم يكن رجل سياسة أو قيادة عسكرية، ولكنه كان شاعراً لا يملك إلا قلبه، ومع ذلك فقد تقدم الطليعة واستغل مفعول الشعر وسحره في تنبيه قومه وهذه أولى خطوات الإصلاح. وشن الكاتب هجوماً على الذين ساهم المشلولين الذين لم يستطيعوا مسaire خطواته في دروب الأدب وتساءل بعد ذلك: ما الذي جناه هذا البطل؟

دعا قومه أن يفضوا غبار الغفلة وبناء المستقبل المجيد، فجاء رد الشعب مسaire المنتفعين والدجالين والسخرية والشتيمة من آرائه، فتأثر من موقفهم وغضب وصور ذلك شعراً في قصيدة «النبى المجهول» صور حقيقة الشعب بكلمات قاسية كانت ردة فعل قوية منه، ولما ضاق ذرعاً أصبح لا يدرك الحقائق ولا يفقه الزور من الصدق وسقط عليه جدار الجمود الذي شاء تحطيمه. وفي الختام قال الكاتب «... رغم الداء والأعداء بمبادئه وآثاره. وينفخ في الشباب روح التوثب والانعقاد. فليرحم الله الشابي وليكن قدوة للشباب فيما ينتظره من كفاح جد شديد».

تساءل الكاءب فى مقءمة ءراسءه: «... ما السبب أو الأسباب اللى جعلء الشابى ىتبرم بالحىاة فى أشعاره وىنفر من المءءمع والناس فى حىاته العملىة والفكرىة؟ قء يكون غربىاً أن نشك فى ذلك وىكون من الأءرب أن نؤمن بعكس ذلك وأن نزمع بأن الشابى لم ىكن ىبغض الحىاة ولم ىكن نافرأ من المءءمع ولا مءبرماً منه ولا حاقدأ علیه، بل الأقرب إلى الواقع أن نقول إن الشابى كان ىحب الحىاة حباً مءالىاً رفىعاً، كما كان ىحب الناس حباً خالصاً سامىاً وىرنون إلى الكون وما فىه بعىن ملؤها الشوق الصادق والتعبء والنزهىة».

وىسءمر فى حءىءه فىقول: إنه لم ىعرف الشابى إلا من ءلال شعره وآءاره وبعض ما حءء به الأصدقاء والمعجبون، ولا ىملك إلا أن ىعءقء أن الشاعر كان ناضجاً برغم صغر سنه، وأنه عرف الحىاة وبلاءها وءءء عنها وهو ىعرف ماهىءها. وأنه فهم الحىاة فهمأ عمىقاً بفضل إءساسه وروءه النىرة.

كما ءءء الباءء عن شعر الشابى ونظر فىه إلى «الحىاة» وأنه ارءفع إلى مسءوى اءءرامها وءرب أمءلة من شعر الشاعر على ذلك ونفى أن ىكون الضعف والىأس والءموع ءبقى مع الحىاة لأن الشابى كان يؤمن بقوانىن الحىاة وىءضع لها وىنقاء. وءساءل فىما إذا كان مءناقضاء فى شعر الشابى؟ وأءاب بأن الشابى عاش الحىاة بكل ملء وقوة وءءفق، ولا نفهم ذلك إلا إذا نظرنا إلى عامل الزمن من ءلال عنصره النفسى، وقء سلك إلى فهم الحىاة عن طرىق الشعور الملهم. وىبن أن الشابى لم ءكن الحىاة عنءه غایة فى ءاءها فءشل فىها وءاب ءءى ىمقءها، بل كانت مطىة حملءه فى سرعة كالحلم لىصل فى النهایة إلى الإءاطة بءوهر الحىاة، وهو ىءءبه بكل قواه إلى أنه إن قءر له أن ىءالم فى حىاته فلا ىعنى ذلك أن الحىاة لا قىمة لها، لأن فى الحىاة ءوانب أءرى ءلىقة بأن ءجعلنا نصدق بنوءنا لها وءعلقنا بصدرها الرؤوم.

10- نفس الشابى للأسءاء عبءالءالء البشروش،

بءأ الباءء ءراسءه بأقوال الشاعر ءم قال: كان الشابى شاعرأ عاش بالشعر وللشعر وءىاته حىاة من لا ىءىا لغير قلبه.. ءم ءءء عن حىاة الشابى فقال: «ىغرى بالزهء فى الأءب وىمهد لإءءاء كل صوت ىلفظه الفؤاء، ولكن عزىزنا الراءل، ظل كالأءر ىهءف وىغنى، فىفض كل ىوم بالراءع ءءءفق نفسه مع الأيام بالساءر والءءىء. ذلك لأن قلبه هو

حياة بعيدة نائية» هكذا تحدث الباحث عن الشاعر، وبهذه العبارات وضع رأيه في الشابي ثم قال: يغني بالآلام الحياة وأفراحها ... ومضت نفسه تتمايل بين آصال الوجود وأسحاره، ومثل الكاتب على ذلك بأبيات شعرية، ثم بين أن الشاعر اطمأن إلى عالم الخلود، وهو العالم الذي طالما ظمأ إليه، لأنه كان زاهداً في الحياة متشائماً بها فيها، لا تهتز نفسه أو تتحرك بغير النياحة والنديب، ويعلق على بدايات حياته التي تفتحت فيها للحب فعلق قلبه بفتاة، رُزئ بها، فتغنى الشابي بالآلم، لأن القدر لم يهادنه، فأبدع في شعره مع أنه غريب ثم تحدث عن مرضه، فيتحطم هناء الحياة ويستسلم استسلام المتبرم بالحياة، فيثور كالعاصفة، ويصارع القدر.

ويقارن الكاتب بين الشابي وبين «كماريوس سكليزي»، وأوضح أن بين الشعارين صلة رحم وقربة، فكلاهما ارتوى في حياته من الدموع، وكلاهما أكل التراب إلى الملالاة، وكلاهما دخل المستشفى وحيداً وزهقت نفسه في المستشفى ذاهبة إلى ربها.

ثم تحدث في الخاتمة عن رحلة الشاعر الأخيرة إلى الريف بسبب الهموم وحيداً بين النخيل مفترشاً برنسه يستمع إلى أصوات الطيور ورقرفة الماء شاخصاً إلى دنيا من المتعة واللذابة، ثمل النفس يقظ المشاعر حتى أفضى الغاب عن قلبه الشقاء. وكانت روح النعمة شائعة في أشعاره، والتشاؤم طالع حياته، وهو تشاؤم مصدره حياة الشابي وما لاقاه من عنق الأقدار وصلابة الدهور.

11 - حياة أبي القاسم الشابي بقلم الأستاذ إبراهيم أبو رقعة :

قدم الكاتب لدراسته عن حياة الشاعر، ثم وضع ما قاله الشاعر له فقال: «... وقد حدثني أبو القاسم عن نفسه فقال: إن الطور الأول الذي قطعته من حياته الفكرية هو التنسك والانقطاع إلى العبادة، وأنه كان يقضي اليوم واليومين لا يخرج من معبده، وربما مكث الزمان الطويل بلا طعام ولا شراب تعذيباً للنفس وكرهاً لهذه الدار، وهو يؤمل أن يأتيه في وحدته تلك طائف يجبره بالغيب ويشره برتبة القطب أو الغوث».

هذا ما حدث به الشاعر، وقد أخبرنا الباحث عن طريقة تناول الشاعر للكاتب في المكتب، واجتماعه به في جنازة تلميذ من الجريد، وجرى حديث بينهما فاطلع الكاتب على جوانب متعددة من حياة الشابي، كما وجد الكاتب نثراً لأبي القاسم أكثر من شعره، ثم يعدد بعض خصائص الشابي النفسية والشخصية، ولدى سؤاله عن عدم نشره لبعض

أعماله، وحينها وجدته مرتاباً في نضوج تحريراته يخشى أن يقابل عمله بالسخرية كما يخشى غضب والده. وبين الكاتب أنه لم يفارق الشاعر حتى تسلم منه قطعة شعرية نشرت في جريدة النديم تحت عنوان «شاعر الوجدان أبو القاسم الشابي» ثم أخبرنا بترجمة للشاعر.

ووضحت الدراسة أن أبا القاسم فارق الطور الأول من حياته عندما دخل جامع الزيتونة، وبقي في نفسه أثر من تعاليم الغزالي والشمس التبريزي وابن عربي، وألم بأدب الغرب ومذاهبه وتراجم من الأدب الفرنسي والإنكليزي.

وينتقل الكاتب إلى الطور الثالث الذي أصبح فيه الشابي شاعراً عالمياً مثل طاغور ولامرتين وغيرهما من الشعراء العالميين، وبذلك «فاق أبو القاسم طبقة الشعراء المحليين مثل شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء الشرق...».

وتحدث الكاتب في معرض حديثه عن الشابي إلى أقوال بعض من ترجم للشابي أمثال السيد زين العابدين السنوسي وخطأه لأنه نسب للشاعر مديحاً وراثاً معللاً بقوله: «والحقيقة هو أن أبا القاسم لم يمدح ولم يرث مدة حياته الشعرية أحداً... ولما مات والده بين ذراعيه عام 1930 لم يقدر على رثائه وقد كاشفني بذلك إلا عدة أبيات قالها فيه بعد المئات بسنوات» ومنها البيت الذي يقول فيه:

قد كنت أحسب بعد موتك يا أبي
ومشاعري عمياء بالأحزان
ويقرر الكاتب أن أبا القاسم يرى الشعر أعلى منزلة من أن ينزل به إلى درجة النياحة والمديح، وقدم في رأيه ومن خلال قصائد الشابي النواحي والأغراض التي يجب على الشاعر الحقيقي أن ينظم فيها.

وتحدث في آخر دراسته عن سبب شهرة الشاعر ومسامرته المشهورة التي أسماها «الخيال الشعري عند العرب» وما كان لها من دور في الأوساط الأدبية.

12 - أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته للأستاذ البشير الفورقي:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن صفات الشاعر الشخصية والأدبية، ثم انتقل بالحديث عن علاقته بجبران حين كان الشابي في المهدي وهما الآن في اللحد «فكان يتلهف لذكر أخباره وكله آذان لسماع الكلام عن جبران» ويكمل الحديث حول تلك المقابلة مع جبران، وتمنى الكاتب سماع أحاديثها الفردوسية، ووصفها جنة النعيم وما فيها من جنان

خلد وخر وفاكهة ورمان وهور عين وولدان وأودية عسلية وجبال زبرجدية وقصور ذهبية وبحور زنبقية. وكأني بالكاتب يطلب أن يعرف كيف تكون الرومانسية عند هذين الأديبين. ثم تحدث عن الشابي فقال: «للمرحوم الشابي عيانا مختلفتان، كانتا تنظران لهذا الوجود نظر الناقد الهازئ الساخر من الحياة. وكنت أداعبه بذكر مذهب العراة الذي ظهر ولم يكن المعري موجوداً لناخذ رأيه فيه فينتسم ويقول: سأذهب إليه وأخذ رأيه» ثم يكمل الكاتب بأن من عارض الشابي في حياته، عرف فضله بعد مماته.

13 - ما يجب نحو الشابي: بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرو:

صدر الكاتب دراسته بالإعراب عن فكرة أعلنها للناس ونادى بها وهو الآن يوجه نداءً جديداً عن الفكرة نفسها.

ثم تحدث عن زيارة للمشرق العربي التي وجد من خلالها مقدار الغموض والخطأ التي تكتنف كل شيء يصلهم عن المغرب العربي، محاولاً إزالة ما يمكنه من الغموض وتلك الأخطاء، ثم يعترف بقوله: «بأن كل أحاديثي ومقالاتي ومحاضراتي وكتبي التي ألقيتها ونشرتها هناك، لم تحقق إلا جانباً يسيراً مما يجب تحقيقه... وذلك بسبب تراكم تلك الأخطاء واتساع ذلك الغموض». ويعترف أيضاً أن في زيارته إلى المشرق العربي، وجد الأدباء والكتّاب مدفوعين بشوق للأدباء في المغرب وحريصين على التعرف إليهم وعلى آدابهم.

وينتقل بعد هذا إلى الحديث عن الشابي الذي كان هو الشاعر الوحيد الذي يعرفه الأدباء في المشرق، ولكن أكثرهم - يعني أدباء المشرق - لم يكن يعرف إلا اسمه وبلده وأبياتاً من شعره، وقدم مثلاً من رسالة أرسلها إليه ميخائيل نعيمة يصرح فيها بأنه لا يكاد يعرف الشابي إلا بقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وهذا الأستاذ سلامة موسى ينسب إلى الشابي كتابي «العمال التونسيون»، و«امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وهما كتابان للطاهر الحداد. وقد جاء خطأ سلامة موسى بعد أن قرأ الكتائين اللذين وضعتها عن الشابي.

ثم يتساءل: ... إذا كان ذلك مع الشابي الذي عرفته مجلات الشرق وإذاعته وكتبه ونواديه ... فكيف الحال يا ترى بالنسبة لغيره من شعرائنا وكتّابنا؟

ويستمر الكاتب في دراسته مبيّناً بعض السلبيات التي وقع فيها الأدباء في المغرب حتى كتب مقالاً بعنوان «تراثنا الأدبي في خطر» بسبب الإغلاق أو الانغلاق الذي وقع عليهم، ولذلك دعا أدباء تونس إلى إدراك خطورة الحالة التي هم فيها والتي سببها المأساة التي ينبغي أن لا تستمر أكثر مما هي عليه.

ثم تحول بعد ذلك بالحديث عن الشابي، وأن خير تمجيد وتعظيم له أن تنشر آثاره ويستعرض أمام الحاضرين ما كتبه عن الشابي، ويهيب بشقيق الشاعر أن ينشر تراث أخيه على الناس ونشر ديوانه، ثم توجه إلى أسرة الشابي وزملائه وأصدقائه الذين يملكون آثاره الأدبية إلى الإسراع بنشر هذه الآثار وأولها ديوانه «أغاني الحياة».

ويؤكد أن شقيق الشاعر استجاب لندائه فنشر ديوانه الخالد الذي فتح للباحثين والكتّاب آفاقاً جديدة بتقديم الحقائق والمعلومات التي لم يكونوا يعرفونها من قبل، وفي ختام دراسته اقترح ما يلي:

- 1- تأليف لجنة تشرف على نشر مؤلفات الشابي في وقت قصير وأن تكون تونسية محضة.
 - 2- إقامة جناح خاص بالشابي بدار الكتب التونسية أو بمتحف باردو.
 - 3- إقامة تمثال للشاعر في العاصمة.
 - 4- إطلاق اسم الشاعر على شارع كبير في العاصمة وفي كل مدينة تونسية.
- 14- أبو القاسم الشابي بقلم الأستاذ محمد مزالي؛

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن إحياء اتحاد الكتّاب الذكري الأربعين لوفاة الشاعر الشابي، ثم أثنى على أبي القاسم الشابي بوصفه شاعر متوهج الحس، صادق الهاجس، وانتقل بالحديث عن أصالة الشاعر وعلاقته بشعبه ووطنه، والإصداق بمحبته والإيمان بمصيره رغم قوى الظلام وقسوة الدهر.

ثم تحدث عن شعور الشاعر بغرته بسبب رسالته التي يحملها والاطلاع بواجب التجديد في المفاهيم الماورائية والمواقف الأدبية والمقاييس الجمالية. وتحدث عن غضبة الشاعر واستيائه من بعض ما يرى فيقول: «ولا شك أنه استاء أشد الاستياء عندما لاحظ سراة القوم وأكابر العلماء والفقهاء يشاركون الفرنسيين احتفالاتهم في تونس العاصمة بالمؤتمر الأفخارستي، والذكري الخمسينية لانتصاب الحماية عام 1931»، واستمر يثني على الشاعر لأنه كان قد شام فجر الاستقلال وتنبأ لهذا الشعب بالحرية حين أنشد قصيدته

«إرادة الحياة» ثم بين أثر قصائده على الشعب التونسي من أجل كرامته وحرية «وكانها بعثت بعثاً تتحدى الاستعمار وتفرض إرادتها على الأشياء فينهزم تاريخ مفروض ويكتب تاريخ جديد بأحرف من نار ونور».

ويؤكد بأنه: هكذا يكون الشعر الحق رؤية وحلماً وخيالاً جامعاً، تستحيل واقعاً ملموساً بفضل كفاح الشعب البطولي وطموح الإنسان إلى تحقيق الذات والخلق المتجدد ثم قال في الختام: «وسيطل أبو القاسم الشابي شاعراً كبيراً لأنه كان - كما قال هو نفسه - عن جبران: فكراً قوياً ... يجوب أعماق الحياة».

15 - الغربية في أدب الشابي بقلم الأستاذ أحمد خالد:

بدأت الدراسة عن معاني الغربية في ديوان «أغاني الحياة»، ومثل ذلك في بيتين من الشعر عن الغربية التي برزت في صورة (غربة روحية) حاول الشابي التخلص منها برحلة الخيال إلى فردوس مفقود عن طريق التجربة الصوفية متأثراً بفكرة الخطيئة الأولى ثم بفكرة الإسراء والمعراج.

وهذه الغربية لم تكن هروباً من الشاعر، وإنما هي أمنية تصنعها لإثارة شعبه وتحريك سواكنه، وهي رسالة الدنيا التي هي عند الشاعر رسالة الحرية ومقاومة الاستبداد ومصارعة قوى الشر مثلما فعل (بروميثيوس). وقد تقمص الشابي شخصيته في قصيدة «نشيد الجبار» فيصدع بصيحة الحر ويجهر بإرادة الحياة. وقد كثرت التعبيرات الرمزية في أغاني الحياة لوجود أزمت اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية. ثم وضع مواضع تألم الشاعر بسبب استحواذ المقلدين الذين لا يفهمون شعر الشابي وقدم الكاتب أمثلة على ذلك من كتابات الحليوي صديق الشاعر، وهذا سبب قساوة الشابي على الجامدين، لأنها قساوة واجه بها الشاعر خصوصاً في غير الحق مع دعاة التجديد رافضين الحوار معهم منحرفين عن منهاج النقد الموضوعي. وإلى جانب الغربية الروحية تحدث صاحب الدراسة عن الغربية الفكرية التي ذاق الشابي مرارتها.

وقد تحدث الكاتب عن قصيدة «النبى المجهول». كما أحس الشاعر أيضاً إحساساً فاجعاً حين لاحظ تخلف البيئة الثقافية في زمن التيارات الفكرية والأدبية التجديدية في المشرق خاصة وفي العالم عموماً. كما تحدث عن إلحاح الشاعر في رسائله ومذكراته وديوانه على تحليل غربته الفكرية بسبب تغاضي الشعب رسالته التي حملها.

ووضح صاحب الدراسة الشكوى المريرة التي حار فيها الشاعر أثر مسامرتة «الخيال الشعري عند العرب». ويطلب الكاتب العودة إلى ديوان الشاعر وإدراك ما تغنى به الشاعر لفهم سر اختياره لعنوان ديوانه، ويقرر الكاتب أن للشاعر مفهوماً عصرياً للوطن وهو: «كل مكان ينبت العز بأمنه وحرية». وأوضح الدارس بأن الشابي اعتقد في الثلاثينيات بأن مسؤولية الأديب الحق لا تختلف عن مسؤولية السياسي.

ثم تحدث الكاتب عن الجمال في نظر الشاعر وحيوته كما وردت في «نشيد الجبار»، فلم يكن ضبابياً منفصلاً عن واقع بيئته مهما حلق بخياله في أجواء الأساطير وقد جاء ذلك بأسلوب قصصي رمزي أحياناً للإيحاء بتلك الحيرة.

وانتقل الكاتب في مقالته الطويلة إلى إرادة الحياة وبيّن القصائد التي وردت فيها كلمة «الحياة» كإحصائية دقيقة قائلاً: «بمثل هذا الشعر تبوأ الشابي منزلة الشاعر القومي في بلاده، واحتل مكانة مرموقة في الأدب العربي وعرفته الشعوب الأجنبية بترجمات شعره، لأنه تجاوز به حدود المكان والزمان وأكسبه أبعاداً إنسانية خالدة».

16- الشابي ناقدًا ومنظراً بقلم الأستاذ خليفة محمد التليسي،

بدأت الدراسة بالحديث عن أثر أزمة الضمير العربي الحديث على الشاعر المعاصر الذي بدأ يعكس شعره بمغامراته على هذه الأزمة، التي أصبحت أكبر من أن تستوعبها بسهولة ويسر، ومع ذلك فقد كانت الأعمال جيدة والنتائج مفيدة.

وبيّن الباحث أن الشابي كان من أوائل الذين سعوا للبحث عن فكرة شاملة تستوعب تجاربه ونظراته إلى الوجود وفكرته عن الفن والحياة.

وقد كتب الكثيرون عن الشابي، لكن الحديث كان قليلاً عن الشابي الناقد والشابي المُنظّر. ويكمل الباحث دراسته عن تغير العصر اختلاف نظرة الشابي إلى الشعر، حتى كان رائداً من رواد التجديد في الشعر والوجدان الحضاري، فواجهته من أجل ذلك صعوبات شتى في سبيل تأكيد مفاهيمه سواء في شعره أو في نثره، حتى أصبحت آدابه قضية تستوعب التزامه وثورته الحضارية. فكان الشابي تياراً هادراً كاسحاً، حفر مجراه بعمق في الوجدان العربي، وكان علامة في تاريخ الكلمة العربية الشاعرة، وأنه «كان شاهداً من شواهد عصره ومن شهود اليقظة العربية الحديثة».

ومن بين القضايا التي أبدى رأيه فيها هي:

- 1- مفهوم الشعر ومقياسه الصحيح.
- 2- مفهوم الشاعر ورسالته وصلته بالوجود.
- 3- مشكلة الحداثة والتراث.
- 4- تقييم لنظرة التراث للأسطورة والطبيعة والمرأة والقصة الشعرية.
- 5- صلة الشعر بالفكر والفلسفة.
- 6- الفنون والنفس العربية.
- 7- يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة.

وأكمل الباحث دراسته ببحث القضايا وإخلاص الشاعر لنفسه وصدقه في التعبير عنها، وفي ختام دراسته وضع الكاتب «على أن ثورة الشابي لا ترفض أن تتجاوز حتى مبدعها عندما يتحول إلى نموذج ثابت وقالب من القوالب أو صيغة من الصيغ التاريخية التي فقدت صلتها بالواقع وذلك حين يقرر (بأن لكل أدب حياته التي يجيها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب)».

17- الشابي يقظة إحساس قومية بقلم الأستاذ أبو زيان السعدي،

صدر الكاتب الدراسة بالحديث عن النفوس المبدعة، ومنزلتها في حركة الشعوب، ونبه إلى أنه على علم بأن فكرته في بحثه عن أدب الشابي قد يعده البعض ضرباً من ضروب الإسراف المنهجي لأن فترة حياته قصيرة لا تكفي لبلورة فكرة كبرى أو تقرير حقيقة عبقرية. ويبيّن أن الحديث عن مفتاح شخصية الشاعر يتوقف في نظره عند أمرين هامين:

أولهما: إيمان الشابي بمهمته الخطيرة في الحياة والمجتمع وأنه صاحب رسالة علوية.

ثانيهما: وعيه الكامل بحدود هذه الرسالة ومحاوله رسم منطلق فكري يتخذه مقياساً في سير الحركة الاجتماعية والفكرية عند أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. ثم وضع أن نبوغ الشابي لم ينشأ في فراغ. فقد كان رمزاً وتعبيراً عن جيل ومرحلة تاريخية، خاصة وأن المرحلة التاريخية التي ظهر فيها كانت مليئة بالأحداث الجسام وحافلة بمحاولة التغيير والإصلاح، وكما كانت هذه المرحلة في بلاد المشرق العربي فقد كانت تونس تحتجاز أزمة حقيقية بعد صحتهم على واقع الاحتلال الفرنسي البشع. وأن الشابي

عاش هذه الأحداث واختبر بعض مراحلها بالمعايشة حيناً وبالمطالعة حيناً آخر، وعبر عنها في أشعاره التي أرادها أن تكون يقظة تهز الكيان وتغير النفوس. ومن هنا «جاء دوره بارزاً في كل ذلك وجاءت نظراته الواضحة العميقة التي يصدر عنها في كتاباته الشعرية والنثرية، والتي فسر بها الوثبة والنكسة في تحرك الشعب».

ووضح الباحث: «أن الشابي دعا إلى ضرب من الوجود الروحي ... تنتزل به القيم من عالمها الأجوف إلى أرضية صلبة من واقع الإنسان المعذب، أو هو امتلاء النفس بالقيم الإنسانية»، وبهذا نستطيع القول: إن الشابي لم يكن شاعر خاطرة عابرة أو فكرة سالبة نشأت بمعزل عن الأحداث، وإنما هو شاعر يحاول أن يستشف ما وراء الظواهر، بل إنه ليستبصر بفكره الملهم روح الشاعر الحق ودوره الممتاز في صنع الحياة. ثم تحدث الكاتب عن ثقة الشاعر بالشعب، وبهذا الصوت كان يتوجه إلى الطغاة بثورة تعيد للكرامة عزتها وللمجد تاجه، وإن نقد في فترة الشعب على صمته فإن هذا يجب أن لا يشككنا بإيمان شاعرنا بهذا الشعب أو يدعونا إلى تفسيرات غريبة كانحجاسه في حدود آلامه الضيقة. ومن هنا جاءت قصائده دعوة إلى الحرية. أما الشكوى والألم والدموع والعزلة والانفراد إنما مرده إلى مصدرها الأول في فكر الشابي الذي عبر عنه بيقظة الحس، وهو نتاج طبيعي لنهضة وطنية وقومية شملت تونس وكل البلاد العربية.

وختم الباحث دراسته بقوله: «لقد تألم الشابي من جمود وتقليد معاصريه، ولكنه لم ييأس من المستقبل والشباب، هؤلاء الذين سيحققون الجديد البناء الذي دعا إليه وضحي في سبيله بصحته وشبابه ...».

18- من مصادر الشابي ومراجعته، إعداد الأستاذ أبو القاسم محمد كرو،

قدّم الباحث هذه المصادر في دراسة خاصة بمناسبة مرور أربعين سنة على وفاة الشاعر، في مهرجان أدبي بتونس ونبه الكاتب على الأمور التالية:

- 1- بين أنه سبق للباحث نشر قائمة مبوبة عن المصادر والمراجع التي كتبت عن الشابي من سنة 1926-1960 وذلك في كتابه (آثار الشابي وصداه في الشرق).
- 2- يبين الباحث أنه كتب هذه القائمة على عجل لجعلها بمثابة الدليل.
- 3- هناك عدد آخر من الوثائق لم يتمكن الباحث ذكرها هنا بسبب البعد عن المكتبات الخاصة.

4- الاقتصار في هذا الدليل على ذكر الكتب فقط.

5- الاقتصار في هذه الوثيقة على أبواب خمسة.

وسوف أرجع الحديث عن آثار الشابي إلى عنوان خاص في الكتاب، رغبت أن يكون باباً أو عنواناً منفرداً في الكتاب.

هذا ما كان من دراسات في الجناح الغربي من الوطن العربي، وليست هذه كل الدراسات ولكنها كانت الأهم، فكيف كانت الدراسات في المشرق العربي؟

1- الشابي، روح ثائرة، بقلم الدكتور محمد مندور،

مهد الدكتور مندور لدراسته عن الدكتور أبي شادي زعيم جماعة أبولو وجماعته من الشعراء الذين اتسمت أعمالهم بسمة الشباب وخصائصه الروحية وعرض لشعر إبراهيم ناجي في دواوينه.

وانتقل بعد ذلك إلى بلورة شخصية الشابي على أنه كان روحاً ثائرة، ومن هذه الروح استمد شعره الذي امتلأ عاطفة وثورة، وقد مرّ الشابي في سماء الشعر العربي الحديث مرور الشهاب، ومع ذلك ترك فيها ضوءاً خالداً، ويكاد أن يكون الشاعر المغربي الوحيد الذي شاعت معرفته في مصر والإعجاب بشعره والتسليم بعبقريته الممتازة.

ثم تحدث الكاتب عن الذين تعرضوا بالكتابة عن الشابي وقال: «... ومن الغريب أنني عندما طالعت عدداً من قصائد الشابي ومقالاته النقدية كدت أجزم بأن هذا الشاعر قد كان يجيد لغة أجنبية تمكنه - لا من الإلمام بأداب الغرب فحسب - بل من تذوقه لتلك الآداب وإحساسه بها وتمثله لها. ثم عدت إلى ما كتبتة عن تاريخ حياته فأخذتني الدهشة كل الدهشة عندما علمت أنه لم يكن يعرف أية لغة أجنبية وأنه تخرج من جامع الزيتونة، عندئذٍ أدركت أنني أمام إحدى تلك العبقريات التي لا يستطيع البشر لها تفسيراً لأنها هبة من الله، ثم أصبحت أشك في أنه مدين ديناً حقيقياً لأحد الشعراء، ولذلك لم أقتنع الاقتناع كله بحديث الأستاذ كرو عن تأثير الشابي تأثيراً كبيراً بشعراء المهجر. كما أنني خرجت بالنتيجة نفسها بعدما قرأت للدكتور أحمد زكي أبو شادي مقالاً مخطوطاً عن الشابي أرجو أن ينشر قريباً، في كتاب للمرحوم أبي شادي عن شعراء العرب المعاصرين، وفي هذا المقال ينكر الدكتور أبو شادي تأثير الشابي بشعراء المهجر ويشير إلى تأثير الشابي أو احتمال تأثره ببعض قصائده لأبي شادي نفسه».

وبعد أن تحدث عن الشابي وحياته وروحه الأثيرية مع التمثيل على ذلك بالشعر تحدث عن قصيدة «اسكتي يا جراح» وفيها لا يقنع في استخدام اللغة بالتعبير التقريري ولا بالتصوير البياني الذي يريح الخيال ويطلقه من أسر الواقع، وإنما يجنح مع كل هذا إلى استخدام أصوات اللغة استخداماً موسيقياً منقطع النظر وأخيراً تحدث عن سحر شاعرية الشابي على نفسه، وأكد الباحث أنه لم يحاول البحث عن تاريخ دقيق لقصائده، لكن ما تأكد منه الباحث أن الشابي قد اختتم حياته القصيرة الرائعة بقصيدة «في ظل وادي الموت» وكأنها كانت «قرار» حياته الذي سيظل عشاق الشعر الرفيع يرددونه أبد الدهر.

2- التقرير والإيحاء في شعر الشابي، بقلم الدكتور مصطفى بدوي،

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن الوحدة الفنية الحية، وعلى التقرير والإيحاء وبمثل هذا من الشعر العربي الحديث تتحقق فيه هذه الوحدة. وتستخدم فيه الألفاظ بإمكانياتها الإيحائية. ثم انتقل بالحديث عن زمن نشأة الشابي وقال: «والذي يهمننا في هذا المجال أن مدرسة التجديد في الشعر العربي في ذلك الوقت كانت متأثرة إلى درجة كبيرة بمدرسة الرومانتيكيين الأوروبيين، وكانت الشخصية ذات الأثر الكبير في نشر الأفكار عن طريق الكتب والمجلات والدواوين، وعن طريق النقاش والحديث، الاتصال الشخصي هي شخصية المرحوم أبو شادي الذي تعرف على الشعر الغربي في إنجلترا في وقت كانت فيه الرومانتيكية لا تزال هي المدرسة المهيمنة على عقول الناس...».

وتحدث عن المفهوم الرومانتيكي للشعر الذي يكاد أن يكون نقيض المفهوم العربي التقليدي. إن الشعر الرومانتيكي الأوروبي شعر الإيحاء التام بينما أغلب الشعر العربي هو شعر التقرير العام.

واختار الكاتب قصيدة «الصباح الجديد» للتعليق عليها، واعتبرها من أروع قصائد الشابي لأنه اعتقد أنها قصيدة ناضجة أكثر من غيرها، لأن الشاعر تمثلها تمثيلاً كاملاً فامتزجت واتحدت اتحاداً عضويًا حياً مع غيرها من العناصر ومطلعها:

واسكتي يا شجون	اسكتي يا جراح
وزمنا الجنون	مات عهد النواح
ومن وراء القرون	وأطل الصباح

وهذه القصيدة تمثل انتصار الشاعر على الألم، وتمثل توكيده القيم الإيجابية في الحياة. لكن القراءة اليقظة الواعية التي يتطلبها الشعر الإيحائي تبين «لنا خلاف ذلك، وأول دليل على أن القصيدة لا تمثل تغلب الحياة على الموت هو النغم الشعري الخاص الذي تتميز به حقاً. إنه دليل غامض إلا أنه في الحقيقة أصدق دليل، لأن النغم في الشعر الجيد جزء لا ينفصل عن التجربة».

3- أبو القاسم الشابي، نظرة في شعره عامة، بقلم الأستاذ حسن محمد محمود،

وهذا مقال طويل فيه مختارات كثيرة، وقد صدر الكاتب مقالته بتعريف الشاعر المطبوع وخصائصه الفنية وتفسير أحاسيسه.

ثم تحدث عن موت الشابي وما خلفه هذا الغياب حتى استحق أن تفخر به الأجيال. واستمر في الحديث عن شاعرية الشابي بطرح أسئلة متنوعة مما يدور في خلد الكثيرين، ومنها: من هو الشاعر؟ وما فائدته للعالم؟ ماذا تكون حالته لو خلا منه؟ ويجيب الباحث عن الأسئلة مع ضرب أمثلة من الشعر.

ثم انتقل إلى قصيدة «ألحاني السكري» وعلق عليها بقوله: «أحس القارئ في العنوان نفسه شيئاً من الابتكار، وروعة التجديد في المعنى وتلك من المميزات التي طبع عليها أبو القاسم، أن هاتين الكلمتين فحسب لتصوران لسامعها وادياً سحرياً تتغنى فيه ملائكة الحب وتدوي فيه أغاريد الشباب المعسول... ونمضي إلى جوهر القصيدة». الذي أحس الكاتب فيها روح الثورة والتمرد، ثورة على كل ما في الوجود وتمرد الساخر بالحياة بل والعطف والحسرة على من فيها. ثم انتقل إلى الحديث عن حب الشابي الذي يراه أنه أسمى هبة يهبها الله للشاعر ويتساءل: ماذا يكون الأمر لو نضب معين الحب وجفّ ورده؟ وتحدث عن أبي القاسم الفيلسوف الذي ينظر إلى الحياة نظرة فيها شيء من اللذة ونواح من الألم، وربما كان الشاعر قد أحس بقرب منيته عندما نظم قصيدته «الصباح الجديد».

وتناول الكاتب قصيدتان هما: «قلب الأم»، و«في ظل وادي الموت» وعلق عليهما بصور الموت، وصور الآمال المبعثرة في أبايد الحياة، وتصوير النواحي النفسية. وتحدث عن علاقة شعر الشابي بالطبيعة ووقوفه خاشعاً أمام مظاهرها القوية وقفة تستعصي على الكثيرين. كما يظهر الشاعر الفيلسوف نسك الذي خبر الحياة عن قرب، وهنا لا تفوته

الحكمة الرائعة التي يستمدّها من صميم نفسه ووجدانه، ومن مظاهر الطبيعة التي وقف عليها مرأى المساء وسكونه، ثم بث شكواه من دائه العضال الذي استحکم فيه ونثره في قصائد متعددة.

ثم تحدث الكاتب عن طريقتين في نظم الشعر وهما:

- 1- محاكاة القدامى فيأتي قصيده على روى واحد وقافية واحدة.
- 2- الانطلاق من أسار التقليد فتحس بالروح الهائمة في جنان الخيال.

ويختتم حديثه بالقول: «ومما امتاز به أبو القاسم وحدة القصيد، ومطالع شعره يلمس ذلك فيرى أن القصيدة كلها متحدة الأجزاء، قوية التركيب، ثابتة الدعائم. فلا تحس في أبياتها نفوراً أو في معانيها تشتتاً، وذلك أمر يتطلب في القصيدة».

4- فن الشابي، بقلم الأستاذ نظمي خليل:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن الطبيعة وعن الآلهة ثم تحول إلى رسالة الشاعر فقال: «كل إنسان له في هذا العالم رسالة يؤديها ورسالة الشاعر هي أسمى أنواع الرسائل، فهي رسالة العالم الأسمى للعالم الأرضي، وما الشاعر إلا رسول أمين، يحمل هذه الرسالة فهو الشخص الوحيد الذي يتصل بالعالمين عالم السماء بروحه وإحساسه وعالم الأرض بجسمه ومادته. فما رسالة الشابي إذن؟ ما الموضوع الذي اتخذه مادة لشعره؟ أو بمعنى آخر: بماذا نسمي الشابي» ويميل الكاتب إلى الاعتقاد بأن رسالة الشابي هي رسالة القلب الإنساني إلى عالمنا الإنساني، ولكنه يحس بشيء من القلق لهذا الاعتقاد، ولا يكاد يظفر برسالة كاملة لهذا الشاعر الشاب.

ويؤكد الكاتب أن الشابي شاعر من طراز روسو وبيرون وشاتو، لأنه عندما يتغنى بالطبيعة إنما يتغنى بمظاهرها العامة، وأنه يقدر الطبيعة، وحينما يأوي إليها إنما يفعل هذا زهداً في دنيا الإنسان وهروباً بمشاعره من أن تصطدم بحياة اليوم العادي.

والشعور بالألم النفسي عند الشابي هو بعينه الذي لازم بيرون طول حياته والشابي شاعر الطبيعة الظاهرة، شاعر مناظرها وجبالها وأصدائها وليس شاعر أسرارها. أجل لقد أفصح الشابي عن أنغام الطبيعة المسموعة، ولكن للطبيعة أنغاماً صامتة لم يصل الشابي إليها.

ثم تناول الكاتب قصيدة «صلوات في هيكل الحب» التي تذكر الكاتب بقصيدة «بانديمون» لجون كيتس، ويرى الشابي في هذه القصيدة ما يراه كيتس في مستهل أنديمون أن الحب مأوى آمن من قسوة هذا العالم ومن شروره.

والآن «حقاً لقد قدم لنا الشابي صورته الشعرية في أسلوب شعري جميل حتى أصبح له أسلوب خاص مطبوع به نستطيع أن نميزه على شعراء هذا العصر: هذا الأسلوب الشعري الخاص هو صورته وتشبيهاته الجميلة. وهذه بحد ذاتها مقارنة بين الشابي ونفر من الشعراء الغربيين».

وفي ختام الدراسة يؤكد الباحث أن هذا كله خطرات سريعة تعاوده إذا ذكر الشاعر الشاب الذي لم يفسح له الزمان من العمر فعصف به عصف الريح العاتية بأوراق الخريف الساقطة وهو يقول: «ولست أدعي أي قمت بشيء نحو هذه العبقرية الشابة التي هوت من سماء مجدها كما تهوى جبابرة الملوك وأعظم الدول...».

5- بين الشابي والتجاني، للدكتور عبدالمجيد عابدين،

تصدرت الدراسة بوجوه الشبه بين الشاعرين في النشأة والثقافة، وفي النزعات النفسية والفلسفية، وفي النظرة القومية والاتجاه الفني، وقد ذكر صاحب كتاب «الشاعران المتشابهان» أبي القاسم محمد بدري أن الشاعرين متشابهان في النظم والتعبير وفي تصوير المناظر الطبيعية وفي تصوير الأحداث الوطنية وفي تصوير الحب والجمال وفي تصوير الحالات النفسية والعواطف.

وقد تقدم هذه الدراسة فصل خاص عن العلاقة بين الشابي والتجاني وبإمكانك الرجوع إليه في الكتاب «الشابي وأقرانه من الشعراء».

6- الخيال الشعري عند العرب لأبي القاسم الشابي للدكتور شوقي أبو شقرا،

الخيال الشعري عند العرب محاضرة ألقاها المؤلف في تونس عام 1929، حين كان الوقوف أمام الحاضرين فروسية وجرأة نادرين، وحين كان عمر الشابي عشرين عاماً.

وقد أوضحت هذا في بحث خاص في فصل من فصول الكتاب وقد كان الموضوع مطولاً، وبإمكانك الرجوع إليه في موضعه «أثر الأدب المهجري في شعر الشابي».

إلى الأبد. «إن هذا الماضي الشخصي الدائم الحضور في نفسه من أهم المظاهر التي تصف علاقته بالزمن ولعلها تميزه عن عدد غير قليل من الشعراء المعاصرين».

وانتقلت الباحثة إلى الزمن وعنصر التغيير، ثم إلى الحاضر والمعاصر كما وضحت رؤيا المستقبل في شعر الشابي، وأخيراً توقفت الزمن في شعرا الشابي، عندما فقدت بعض قصائده مرور الزمن وخاصة ما جاء في قصيدة «الغاب» حيث يعطيك إحساس أنه قد حول الغاب إلى مكان سرمدى صباحه ومساؤه، وأنه قد قلب الأشياء الواقعية الملموسة الفانية.

وفي الختام تحدثت الكاتبة عن إيباءات في قصيدة «ألحاني السكرى»، «إذ تهرب اللحظة القريرة، فالشاعر يمسك بها في قصيدته إلى لأبد. إلا أنه لا يطيق أن يرى التغير المحتوم الذي يحمله الزمن في قلبه يغزو التجربة الممتلئة ويسلمها إلى النقصان والتفسح، ويفضل عليه الموت، لأن الموت وحده هو الذي يستطيع أن يحمي التجربة من التغير ويحافظ عليها في توهجها وجمالها واكتماها ليصبح هنا هو الحامي والواهب للحياة». وتحدثت خلال المقال عن همه الوطني وعن خاصية التعميم والإطلاق والارتفاع بالحالة النفسية عند الشابي وعن غزله بالطبيعة وعن أسهل الطرق في تقسيم الزمن وتحدثت عن معالجة الشابي الأسطورية للتاريخ، وكانت دراستها طويلة ومتعددة الجوانب ومفصلة ومكتملة.

8- لحظة الإبداع عند الشابي، بقلم الدكتور إحسان عباس:

صدر الدكتور إحسان عباس دراسته بالقول: إن الشابي لم يحدثنا كثيراً عن لحظة الإبداع في حياته الشعرية، وهو في حديثه عن الخيال الشعري عند العرب يستشهد بتجارب غيره، ولا يقف عند تجربته الذاتية في هذا المجال، وتدلل آراؤه في الخيال الشعري عند العرب على أنه كان يرى الإبداع الشعري ثمرة مباشرة لنشوة مستغرقة في الجمال وبخاصة جمال الطبيعة.

ثم تحدث الدكتور عن ظاهرة التكثيف في شعر الشابي التي تخدم أغراضاً كثيرة، وأنها مبنوثة في شعره على نحو متميز، غير أنها ترتد في الاتكاء عليها إلى تلك «الحمى» التي تواكب التبجس لحظة الإبداع، وهذا يشير إلى أن خيال الشابي يتولد من ذاته «ولهذا لا يمكن أن يقال إن خيال الشابي تلفيقي... ومهما تحدث النقاد عن المؤثرات في شعره... فإن تلك المؤثرات تظل لقاء عاماً في حومة الرومنطيقية»

ثم أوضح: «وكي يصح لي ما أريد استنتاجه لا بد أن أفرض أن الشابي قرأ هذه القصيدة - قصيدة لأبي العلاء المعري - ودارت نغمتها في نفسه، وليس لدي شاهد يثبت ذلك على نحو يقيني».

9- الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي، للأستاذ إيليا الحاوي،

مهد الباحث لموضوعه بالحديث عن العبقرية المبكرة، وقارن بين الشابي في ذلك بالشاعر الفرنسي «أرتير رانبو».

ثم انتقل الباحث إلى موضوعات الشابي وخاصة شعر الطبيعة، وتحدث عن اللحظة القائمة واللحظة القادمة ومظاهر الكون في شعر الشابي ثم مزاجه الأشياء في ضميره، كما بين أن شعور الكآبة والغربة، إنما هي كآبة لا تفسر لها ولا تبرير، وأن الشاعر كان يشخص أمام الشيء ونقيضه في لحظتي وجوده وهمومه، وهناك دائماً موجودان في الموجود الواحد وبينهما تكمن الفاجعة.

ويرفض الكاتب بأن الشابي ارتدى أسهال الحزن والقنوط من الخارج، وذلك لأن نفسه بكل قواها الواعية واللاواعية تتنفس في شعره، وفسر أيضاً شعلة العذاب المتأججة في شعر الشابي والشعور بالغربة والتوحد، لكنه انتهى إلى تجربة روحية ميتافيزيقية تفصح عن عذاب الروح الأسيرة.

«يتأكد من جديد أن مشكلة الشابي الدائمة كانت مشكلة الخلود أي مشكلة الحياة والموت والزمن الذي هو أبو الصيرورة وناشر ألوية الزوال والعبث على مطارح الوجود».

وقد تحدث الكاتب عن النظرة التفاضلية العامة وعن علاقة الشابي بالشعب وعن التناقضات واللبس وتمثيل الطبيعة بمعبد الحب وعن معنى الشباب وملازمته للحب وتضاعف النزعة العدمية وفي الختام قال: «هكذا تحرر الشابي من حتمية العدم وانتصر عليه بالذوبان فيه وحلوله في قلبه، وبذلك عاد كل ما هو مادي عابراً طارئاً ولا حقيقة إلا في الذات الأخرى، الذات الروحية التي يتصل بها الشاعر في لحظات عبر الشعر والحب وفوق نواميس القهر والقدر». وأوضح «أن قيمة الشابي في فنيته التي انطلق بها إلى عالم بكر من الرؤى والصور وفاض فيها بألغاز وكأنها ابنة نفسه.. وفي النغمة الشجية التي تعزف على أوتار الروح... كان الشابي في شعره هو الذات والموضوع والمضحى والضحية أو الجرح والسكين...».

آثار الشابي

وُلد الشابي عام 1909 ودُفن عام 1934، وخلال هذه الحياة القصيرة عاش مريضاً يصطاف بأمر الأطباء، وكان شاعراً عربياً خالصاً، لم يعرف لغة أجنبية واحدة، ورغم ذلك فقد ترك لنا روائع شعرية كثيرة، ووثائق ونصوص خطها بقلمه تدل على وجود الشابي في صفحات يومياته، توضح نبوغه وعبقريته، التي طالما حاضرها المحاضرون، وألف المؤلفون وكتب الأدباء والكتّاب عنها. وقد وردت آثاره على النحو الآتي:

- 1- الخيال الشعري عند العرب، وقد طبع في حياته، وفي الأساس هو محاضرة ألقاها الشاعر وطبعها في تونس سنة 1929 ثم أعيد طبعها في تونس عام 1961.
- 2- أغاني الحياة، أو ديوان أبي القاسم الشابي، وهو الديوان الذي استند إليه الدارسون، وقد أعده الشابي ليرسله به إلى مصر ليتولى الدكتور أحمد زكي صاحب مجلة «أبولو» طبعه. وهو مجموع شعره، طبع أول مرة في القاهرة سنة 1955 ثم طبع ثانية في تونس عام 1966 وصدرت عن تونس طبعة أخرى عام 1970، وطبع بعد ذلك في بيروت عام 1972.
- 3- قصائد متفرقة نشرت في الجرائد والمجلات، وفي كتب الدراسات.
- 4- مقالات مختلفة، وهي مجموعة كبيرة تناول فيها شؤون الأدب العربي قديمه وحديثه، نشر بعضها وبقي البعض الآخر مغموراً.
- 5- رسائل الشابي: وهي مجموعة كبيرة تبادلها مع أدباء عصره في مصر وتونس وسورية ورسائل تبادلها مع بعض الشعراء، نشر بعض هذه الرسائل، ولم ينشر الكثير منها، بعضها كانت أدبية والبعض الآخر كانت رسائل شخصية.
- 6- مذكراته: وقد بدأ بتدوينها في كانون الثاني عام 1930، وهي مجموعة من المذكرات اليومية التي سجل فيها آراؤه وخواتمه. نشر بعضها في مجلة «مكارم الأخلاق» الصفاقسية.
- 7- شعراء المغرب الأقصى: وهي دراسة أعدها ليلقيها في النادي الأدبي ولكنه لم يجد سوى اثنين، فتركها مخطوطة في يد صديقه المحامي إبراهيم بورقعة بمدينة صفاقس.
- 8- جميل بثينة (قصة): وهي موجودة عند شقيقه الأستاذ الأمين الشابي حيث ظلت مسودة، وكان ينوي إلقاءها في النادي الأدبي، فحال المرض بينه وبين ذلك.

- 9- الهجرة المحمدية أو قصة الهجرة النبوية: محاضرة ألقاها الشاعر في «نادي الطلاب» بتوزر بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية نشرها في مجلة «العالم» التونسية.
- 10- في المقبرة: وهي رواية ذكرها الأستاذ محمد كرو، وتحدث عنها الأستاذ زين العابدين السنوسي عند ترجمته لحياة الشابي وهي من نوع الاعترافات يروي، فيها على لسان بطلها حوادثه وتأثراته النفسية.
- 11- صفحات دامية: وهي قصة.
- 12- السكر: مسرحية ذا فصلين.
- 13- الأدب العربي في العصر الحديث: دراسة قصيرة قدم بها ديوان «الينبوع» للشاعر أبي شادي، ذكرها الأستاذ عبداللطيف شرارة في كتاب الشابي ص 52 وطبع في القاهرة عام 1934.

هذا ما عثرت عليه من إنتاج أبي القاسم الشابي خلال عمره القصير، وتلك هي المؤلفات التي عرفها أصدقاؤه أثناء حياته وبعد موته، ويعتبر هذا الإنتاج ضخماً، فليهنأ الشابي، حبيب الفجر الجميل والصبح الجديد، وليخلد مع الخالدين في أجمل قصائده وأروع مؤلفاته وهو القائل:

سأعيش رغم الساء والأعداء كالنسر فوق القمة السواء

القسم الثاني

قصائد الشابي وروائعه

أثبت في هذا القسم من الكتاب ما
استطعت جمعه من قصائد الشابي وروائعه
وبدائعه، وقد قمت بترتيبها ترتيباً زمنياً
حسب تاريخ نظمها.

قائد عام 1923 ●

- قصيدة واحدة هي بواكيره الشعرية بعنوان «الغزال الفاتن».

الغزال الفانن

هذه أول قصيدة نظمها الشاعر بتاريخ 1923/2/23 وذلك بعد موت حبيبته التي اختطفها الموت منه قبل أن يكمل الشاعر الرابعة عشرة من عمره. هذا الحب الذي لم يعمر طويلاً.

ببذر الحبُّ ببذره
بلحظاظ نوافسث
وسعى فيهِ مُهره
في فؤادي فأورقنا
فجنى حظي الشقا
عاديلاً، ثم أعنقنا
* * *

رب ظبي علقته
ثم من وصله الجميل
سحر اللبِّ طرفه
بالبهنا قد ترقطنا
غدا القلبُ مُلقنا
مادهما الريق لورقي
وأوصب الصبَّ صده
صار مُلقى بحبه
صار ذا جنّة به
يرقب البدر جفنه
هسام في العين عربه
وهمي صوب دمعه
موثقاً ليس مطلقنا
ذا عذاب مؤرّقنا
ليناجيه ما لقي
وهمي ثم أغدقنا
فاستقى منه ما استقى
* * *

كم قلبوب تفتّرت
ودموع تسلّست
دون أن تبلع النفسو
وشقيق بخلدّه
ثغره من عقوده
خصره من نحافتي
مرشفاه بخده
من لظي جمر خلدّه
ودم صرار مُهرّقنا
مثل غسيم تدفقا
س رُضاً باباً مروّقنا
مهج الخلق شققنا؟
ودموعني تنسقا
ونحو لي تمنطقنا
ودمائي تحلّقنا
كبدي قد تحرقنا
* * *

غصن بان على نقا	قذة فوق ردفة
ببرق غصيم تألقا	جيدته تحت فرعه
قدرنالي فأحرقا	همتُ وجرماً بحبّه
نسباً صار مُغرقا	نسبي في غرامه



قصاصه عام 1924

قصيآان هما:

- أياها الحب.
- آله للموت.

أيها الحب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 1/ 8/ 1924، بعد القصيدة الأولى بعام تقريباً، في سن الخامسة عشرة، وقد قالها متغزلاً بالحبيبة قبل موتها.

أيها الحبُّ أنت سر بلائسي وهمومي، وروعتي، وعنائي
ونحولي، وأدمعي، وعذابي وسقامي، ولوعتي، وشقائي

* * *

أيها الحبُّ أنت سر وجودي وحياتي، وعزتي، وإبائي
وشعاعي ما بين ديجور دهري وألفسي، وقررتي، ورجائي

* * *

يا سُلَافَ الفؤادِ يا سُمَّ نفسي في حياتي، يا شدتي، ورخائي
ألهيبُ يثورُ في روضةِ النفسِ فيطغى؟ أم أنت نور السماء

* * *

أيها الحبُّ قد جرعتُ بك الحز ن كؤوساً وما اقتنصت ابتغائي
فبحقِّ الجمالِ يا أيها الحبُّ! حنانيك بي! وهون بلائسي

* * *

ليت شعري! بأنة القلب قل لي: من ظلام خلقت، أم من ضياء؟⁽¹⁾
أترى أنت جنّة، أم جحيم؟ لست أدري، بل أنت كالكهرباء⁽²⁾



(1) ورد البيت في ديوان أغاني الحياة: ليت شعري يا أيها الحب قل لي.

(2) هذا البيت غير مثبت في الديوان.

خلة للموت

نظم الشاعر الأبيات 2 / 8 / 1924، ويبدو أن بعضاً من أبياتها قد فُقد وتبقى منها هذه الأبيات الثلاثة التي يتحدث فيها عن الشعب الذي لا يثور مطالباً بحقه.

كل قلبٍ حمل الخسف ملّ من ذلّ الحياة الأردل
كل شعب قد طغت فيه الدّما دون أن يثار للحقّ الجلي
خلّه للموت يطويه ... فما حظّه غير الفناء الأنكل



● قصائد عام 1925

وعددها تسع قصائد:

- النجوى.
- شعري.
- في الظلام.
- من حديث الشيوخ.
- الحياة.
- تونس الجميلة.
- الصيحة.
- جمال الحياة.
- نظرة في الحياة.

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 1925/4/2 على النظام المعروف بلاغياً بالتقسيم، وهي من محاولات التجديد في بناء القصيدة أو الجديد مما لدى الشارع متأثراً في ذلك بشعراء الأندلس، حيث سار في القصيدة على النظام التالي:

فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلن فاعلن

قف قليلاً، أيها الساري القمر!
يا سميري! في أوقيات الكدر
واسقني من جدول النور البديع
علّني أفهم هينوم الربيع
كم فؤاد إذ تولّته الشجون
بثّ أسلاكه والدمع هتون
إن تكن تضحك سُخرًا بالبشر
فلكّم أحزنك الدهر الحطّير
أيها القاموس يا صوت الحياة!
وأغانيها العذاب الشاديات
مما لأواجك يُطغيها الغرور
ثم تأوي نحوها تيك الصخور
أتراها تذكر الأمس الجميل
فتحيي ذلك المجد النبيل
وتُغني، ثم لا تلبث أن
لوعنة اليوم، فتبكي وتئن

واصطبر
والضجر
قدحا
إن صحا
والهموم
ما يروم
يا قمر!
بالتكر
وصداها
وزداها!
فتشور
كالكسير
وسلامه
بابتسامه
تحتويها
لشقاها



نونس الجميلة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 2/6/1925، والقصيدة صرخة معذب قاسية من حياة الشاعر تحت وطأة الجهل.

لست أبكي لعسف ليلٍ طويلٍ
إنما عبرتي لخطبٍ ثقیلٍ
كلما قام في البلاد خطيبٌ
ألبسوا روحه قميصَ اضطهادٍ
أخذوا صوته الإلهي بالعسف
وتوخوا طرائق العسف والإر
هكذا المصلحون في كل صوبٍ
غير أننا تناوبتنا الرزايا

أو لربيع غدا العفاء مراخه⁽¹⁾
قد عرانا، ولم نجد من أراحه:
موقظٌ شعبه، يريد صلاحه
فاتك، شائك، يرد جاحه
ف، أماتوا صدادحه ونواحه
هاق مغه، وما توخوا السماحه
رشقات الردى إليهم مُتاحة
واستباححت حاننا وأي استباحه

* * *

أنا يا نونس الجميلة، في لجج
شرعتي جُبك العميق، وأني
لست أنصاع للواحي ولوو
لا أبالي... وإن أريقست دمائي
ويطسول المدى تريك الليالي

الهوى قد سبحت أيّ سباحة⁽²⁾
قد تذوقت مُرّه وقراحه!⁽³⁾
ت وقامت على شبابي المناحه⁽⁴⁾
فدماء العشاق دوماً مباحه!!
صادق الحب والولا وسجاجة

* * *

إن ذا عصرٍ ظلمة غير أني
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن

من وراء الظلام شمت صباحه
سترده الحياة يوماً وشاحه!!



(1) العفاء: الديار الدارسة، المراح: الموضع؛

(2) اللج: معظم الماء.

(3) القراح: الماء الخالص.

(4) اللواحي: جمع اللاحية وهي اللائمة.

قصيدة نظمها الشاعر بتاريخ 13/6/1925 يث فيها آلامه وكآبته، ويوضح أن شعره يأتي رضاً لضميره، لا يبغى منه رضاٌ أمير أو هدية أو مال.

شعري نفائسةٌ قلبي
لولا ما انجاب عني
ولا وجدت اكتئاب
بسه تراني حزينا
بسه تراني طروباً
إن جاش فيه شعوري
غيم الحياة الخطير
ولا وجدت سروري
أبكي بسدمع غزير
أجر ذيل جبوري

* * *

لا أنظم الشعر أرجو
بمدحسة أو رثاء
حسي إذا قلت شعراً
بسه رضاء الأمير!
تهدى لسرب السرير!
أن يرتضيه ضميري!!

* * *

ما الشعر إلا فضاء
فيها يسرُّ بلادي
وما يثير شعوري
يرف فيه مقالي
وما يسر المعالي!!
من خافقات خيالي

* * *

لا أقرض الشعر أبغي
الشعر إن لم يكن في
فإنها هو طيف
يقضي الحياة طريداً
بسه اقتناص نوال
جمال ذجال
يسع بوادي الضلال
في ذلقة، واعتزال

* * *

يا شعر أنت ملاكي
أنا إليك مُراد
قف لا تدعني وحيداً
وطباري وتلادي
وأنت نعم مرادي
ولا أدعك تنادي

فهل وجدت حُساماً ينسأط دون نجاد
 كهم حطم الدهر ذاهمة كثر الرماد
 ألقاه تحمت نعال من ذللة وحداد
 رفقاً بأهل بلادي يامنجنون العوادي⁽¹⁾



الصيحة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 13/6/1925، وقد حذر فيها من مغبة الجهل وخطورته، موضحاً الآثار المترتبة على الجهل الذي هو سبب بلاء الأمة والأفراد، والشاعر فيها يشكو حاله أمام شعبه.

يا قومي! عيني شامت
 تلوو سحاًباً زكاماً
 يثير في الأرض ريجاً
 تلفسي الشديّد صريعاً
 منها الفضاء ظلام
 قد أورثتهم دواراً
 لا يعرف المرء منها
 يخال كل خيال
 للجهل في الجسّونارا
 يتلو وقتاماً مثاراً
 يُسيج فيها غباراً
 تبقى الأديب حماراً!
 والناس منها سكاراً
 وأعقبهم تخاراً
 ليلاً رأى أم نهاراً
 سرى تسربل فزاراً

* * *

يا قوم سرتهم حثيثاً
 نبذتم العلم نبذ النوى
 لبستم الجهل ثوباً
 يا قوم مالي أراكم
 حطّيتي وراء كباراً
 قلى وصغاراً
 تخذتموه شحاراً
 قطنتم الجهل داراً؟

(1) منجنون: دولا ب ناعورة السقاية، ووردت في موضع آخر مجنون.

أضـعـتـم مـجـد قـوم
أبـقـوا سـمـاء المـعـالي
حـا كـوا لـكـم ثـوب عـزّ
ثـم أرتـدـيـتـم ...
شـادوا الحـيـاة فـخـارا
بـنـا أضـاء وامنـارا
خـلـعـتـمـوه احـتـقـارا
لبـوس خـزى وعـارا

* * *

يـالـيـت قـومـي أصـاخـوا
يـا شـعـر أنـسـمـعت لـكـنّ
فـلا تُبـالِ إذا مـا
واصـبـر عـلى مـا تـلاقـي
لـمـا أقـول جـهـارا
قـومـي أراهم سُـكـارى
أعـطـوا نـيـدك ازورارا
واصـدع وقـيـت العـثـارا



فـي الظـلـم

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 27/6/1925، وهي من التوشيح الثناة من بحر الرمل، الشطر الأول تام والثاني جزء من البحر وكل قسم منها له حرف روي خاص.

زمرة الأحلام
ملؤها الآلام
رفرفت في دُجَيّة الليل الحزين
فوق سرب من غمامات الشجون

* * *

شخصت لمأرت عين النجوم
ورمتها من سماها برجوم
بعثة العشاق
تسكب الأحراق

* * *

كنت إذ ذاك على ثوب السكون
والهوى يسكب أصدااء المنون
أنثرُ الأحزان
في فؤاد فان

* * *

ساكتاً مثل جميع الكائنات ...
هائماً قلبي بأعماق الحياة
راكداً الألمان
تائها حيران

إن للحبِّ على الناس يبدأ
ولله فجر على طول المدى

* * *

ثورة الشعر، وأحلام السلام
وابتسام الفجر في حزن الظلام



جمال الحياة

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 19/7/1925، يصف فيها الطبيعة والصبح والليل والشمس ليصل إلى أن الدهر بين غدو ورواح وضياء وظلام وسكون وحركة ونشيد وانقباض.

سرت في السروض وقصد
وجناح الفجر يومي
والدجى يسعى رويداً
ونسيم الصبح يسري
وخرير النهر سكرًا
فرننت نحو جلال الكون
ثم باننت في سفور
فاحتست خمراً ندي الدأ
واعتلست بلقيس عر
ثم مالت لغروب
واستوى الليل برغم الشمس في العرش الفساح

لاحت تباشير الصباح
نحو ربات الجناح
سعي غيغاء رذاح
سجسجاً فوق البطاح
نُ، وزهر السروض صاح
كون جوناه اللياح⁽¹⁾
فاضح أي افتضح
مس من كأس الأقاح
ش الليل في تلك السواحي
بعد إضرام الكفاح

* * *

(1) الجوناء: الشمس: واللياح: الضباح.

هكذا السدر بأزرياء
وضياء وظلام
ونشيد وفواح
إنما السدر وميثا

غُذُو، وروح
وسكون وصباح
وانقباض وانشرح
قُ اللبالي كـشجاح



من حديث الشيوخ

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 5 / 8 / 1925 .

ألا إن أحلام الشَّبَاب ضئيلةٌ
سألتُ الدِّيَاجي عن أمانِي شبيتي
ولما سألتُ الريح عنها أجابني:
«فصارت عفاءً، واضمحلَّت كذرةٌ
لقد خدعتني في الحياة شيشتي
قد كنت ألقى للدجى برغائبي

تخطَّها مثل الغصون المصائب
فقالَت: «ترامتْها الرِّياحُ الجوائِبُ»
«تلَقَّفها سيل القضا، والنوائِبُ»
على الشاطئ المحموم، والموجُ صاخِبُ»
ولكنني قد حنكتني التجارب⁽¹⁾
فأبصرها فوق الدنا تتخاطب



نظرة في الحياة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 30 / 9 / 1925، وهي من خواطر الشاعر الذاتية، ولها صفة تعليمية حكمية.

إن الحياء صراعٌ
ما فاز في ماضٍ غيها
للحُبِّ فيها شجون
ألكونُ كونُ شقاءٍ

فيها الضعيف يـداسُ
إلا شديدُ المراسِ
فكُنْ فتى الاحتراسِ
ألكونُ كونُ التباسِ

(1) البيتان الأخيران من كتاب زين العابدين السنوسي، الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، وغير واردة في الديوان.

وضوح حجة واخترت لاس
السرور، والابتسامة

* * *

للناس فيه مزايا
البيلا ينادي البلايا
سوى حقير الرزايا
سينة ضي بالمنايا
أما كنا، والخطايا
بين الجفون بقايا

* * *

في الليل ليست تُضام
من فوق كل نظام
إرهاب أو بالخطام
سيلاً، ويطغى الضرام
تفنى ويحيى السلام!
لا يرتضيه الكرام!

* * *

دجى، ويأتي الضياء
على مهاد العفاء
حيناً وطوراً فناء
موت يُثير الشقاء
توحي إليه الهناء
حياته للبلقاء

ألكون كون اختلاق
سبان عندي فيه

بين النوائب بؤن
ألبعض لم يندر إلا
والبعض ما ذاق منها
إن الحياة سُبات
وما الروى فيه إلا
فإن تيقظ كانت

إن السكينة روح
والروح شعلة نور
لا تنطفئ برياح الس
بل قد يُعجج لظاهما
كل البلايا .. جميعاً
والذل سبب عار

ألفجر يسطع بعد الس
ويرقد الليل قسراً
وللشعوب حياة
والياس موت ولكن
والجد للشعب روح
فإن تولت تصدت



الحياة

نظم الشاعر الأبيات 12 / 21 / 1925، ويمتزج فيها الفرح باليأس.

إن هذي الحياةَ قيثارُ الله ، وأهلُ الحياةِ مثلُ اللُّحونِ
نغمٌ يَسْتَبِي المشاعرَ كالسحر ، وصوتٌ يُجَلُّ بالتَّلحينِ
واللِّبالي مغاورٌ، تُلجِدُ اللُّخن وتَضِي على الصَّدى المسكينِ



قصاصه عام 1926

وعددها ست قصائد:

- أنشودة الرعد.
- مأثم الحب.
- شكوى اليتيم.
- غرفة من يم.
- الكآبة المجهولة.
- الزنبقة الداوية.

إنشودة الرعد

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 28 / 2 / 1926.

في سكون الليل لما
واختفى صوت الأماني
عنانك الكون الخشوع
خلف آفاق الهجوع

* * *

رتل الرعد نسيدياً
مثل صوت الحق إن صا
رددت له الكائنات
ح بأعماق الحياة

* * *

يتهادى بسحجيج
مثل جبار من الحق
في خلايا الأودية
بأقصى الهاوية

* * *

فسألت الليل والليل
شاخصاً بالليل والليل
ل كئيب ورهيب
ل جميل وغريب

* * *

أترى أنشودة الرعد
رمتها بخشوع
سدي أنين وحنين
مهجة الكون الحزين؟

* * *

أم هي القوّة تسعى
يستراى في ثنايا
باعتساف واصطخاب
صوتها روح العذاب؟

* * *

غير أن الليل قد ظ
صامتاً مثل غدير الـ
ل ركوداً جامداً
سقفر من دون صدى



غرفة من يبع (1)

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 27 / 3 / 1926.

ضعف العزيمة لحدّ في سكينته
وفي العزيمة قوآت مسخرة
والناس شخصان: ذا يسعى به قدم
هذا إلى الموت، والأجدات ساخرة
ماكل فعلٍ يجلل الناس فاعله
ففي التماجد تمويه، وشعوذة
ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها
وليس بالمجد ما تشقى الحياة به
هل الحروب سوى وحشية نهضت
فأيقظت في قلوب الناس عاصفة
فالدهر منتعل بالنار، ملتحف
والأرض دامية، بالإثم طامية
والموت كالمارد الجبار منتصب
وفي المهامه أشلاء ممزقة

تقضي الحياة، بناه اليأس والوجل
يخرّ دون مداها الشامخ الجبل
من القنوط، وذا يسعى به الأمل
وذا إلى المجد، والدنيا له خول
مجداً، فإن الورى في رأيهم خطل
وفي الحقيقة ما لا يدرك الدجل
فمُ الزمان إذا ما انسدت الحيل
فيحسد اليوم أمساً ضمّه الأزل
في أنفس الناس فانقادت لها الدول
غام الوجود لها وارىدت السبل
بالهول والويل والأيام تشتعل!
ومارد الشر في أرجائها ثمل!!
في الأرض يخطف من قد خانه الأجل
تلو على القفر شعراً ليس يُنتحل



(1) وردت الأبيات الثانية الأولى في كتاب الشابي لأبي القاسم محمد كرو بعنوان (الأمل والقنوط) ووردت الأبيات الستة الأخرى بعنوان (الحرب) في الكتاب السابق. أما في الديوان فقد جاءت بعنوان (غرفة من يبع) وعدد أبياتها 14 بيتاً وقد وجدت البيت السادس:

المجد صنفان: صنف في تمايله لحن الخلود، وصنف فوقه الخبل
والبيت الأخير:

تثير في النفس أحزاناً يرثني لها فم الفؤاد بتغريد فتنهل

مانع الحب⁽¹⁾

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 3 / 8 / 1927 .

ليت شعري !

أيُّ طيرٍ

يَسْمَعُ الأَحْزَانَ تَبْكِي بِمِينَ أعْماقِ القَلْبِ وَبِ
ثُمَّ لَا يَهْتَفُ فِي الفَجْرِ بِرِنَاتِ النَحِيْبِ

بِخُشُوعٍ وَاكْتِشَابِ؟

* * *

لست أدري

أيُّ أمرٍ

أخْرَسَ العَصْفُورَ عَنِّي؟ أَمْ تَرَى مَاتِ الشُّعُورِ
فِي جَمِيعِ الكَوْنِ حَتَّى فِي حَشَايَاتِ الطُّيُورِ
أَمْ بِكَيْ خَلْفَ الحِجَابِ؟

* * *

في الدياجي

كم أناجي

مَسْمَعِ القَلْبِ بِرِغْصَاتِ نَحِيْبِي وَشُجُونِي
ثُمَّ أَصْغِي ، عَدْنِي أَسْمَعُ تَرْدِيدَ أُنْبِي
فَأَرَى صَوْتِي فَرِيدُ

* * *

فأنادي

يا فؤادي !

مَاتَ مِنْ تَهْوِي وَهَذَا اللِّحْدُ قَدْ ضَمَّ الحَيْبِ

(1) نشرت في كتاب محمد كرو بعنوان (ماتم الحب) وفي مصادر اخرى ماتم القلب.

فإبكِ يا قلبُ! بما فيك من الحبِّ المذيب
إبكِ يا قلبُ! وحيثُ

* * *

ذَلِّ قلبي

مات حبي

فأذرفي يا مقلنةً الليلِ الدراري عسرات
حول حبي، فهو قد ودَّعَ آفاق الحياة
بعهد أن ذاقَ اللهيبُ

* * *

وانديه،

واغسله،

بدموعِ الفجرِ من أكوابِ زهر الزنبق
وادفنيه بهجلاً في ضفاف الشفق
ليرى روحَ الحبيبِ



الكاتب المجهول

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 7/8/1926

أنا كئيب،

أنا غريب،

كأبتي خالفت نظائرها

غريبة في عوالم الحزن

كأبتي فكرة مغرودة

مجهولة من مسامع الزمن

لكنني قد سمعت رنتها

بمهجتي، في شبابي الثمل
سمعتها، فانصرفت مكتسباً
أشدو بحزني، كطائر الجبل

سمعتها رنة، يعانقها
شوقٌ إلى عالم يضعضها
ضعيفةٌ مثل أنية صعدت
من مهجةٍ هدها توجعها

سمعتها أنة يرجعها
صوتُ الليالي، ومهجةُ الأزل
سمعتها صرخةً مضغضعةً
كجدولٍ في مضائق السبل

كآبةُ الناس شعلة، ومتى
مرت ليالٍ خبتت مع الأمد
أنا اكتسابي فلوعةٌ سكنت
روحِي، وتبقى بها إلى الأبد

* * *

أنا كئيب، أنا غريب،
وليس في عالم الكآبة من
يحملُ معشارَ بعضِ ما أجْدُ
كآبتي مُرّةً، وإن صرخت
روحِي فلا يسمعها الجسد

كآبتي ذات قسوة صهرت
مشاعري في جهنم الألم
لم يسمع الدهرُ مثل قسوتها
في يقظة قَطُّ، لا، ولا حلُم

كآبتي شُعلةٌ مؤجَّجة ،
تحت رماد الكون تستعر
سيعلم الكون ما حقيقتها
ويطلع الفجر يوم تنفجر

* * *

كآبتي شُعلةٌ ، مؤجَّجة
تحت رماد الكون تستعر
سيعلم الكون ما حقيقتها
ويطلع الفجر يوم تنفجر

* * *

كآبة الناس شعلة ومتى
مرت ليالٍ خبت مع الأمد
أما اكتئابي فلوعة ، سكنت
روحي ، وتبقى بها إلى الأبد



شكوى اليئيب

نظم الشاعر القصيدة في 31 / 8 / 1926 .

على ساحل البحر ، أنى يضحُّ صراخُ الصباح ، ونوحُ المساء
تهدَّتْ من مهجةٍ أترعتْ بدمعِ الشقاء ، وشوكِ الأسى
فضاعَ التهنُّهُدُ في الضجَّةِ
بما في ثناياهُ من لوعةٍ
فسرت وناديت يا أمُّ ! هيا
إليَّ ! فقد سئممتني الحياة

* * *

وَجِئْتُ إِلَى الْغَابِ ، أَسْكُبُ أَوْجَاعَ قَلْبِي ، نَحِيباً كَلْفَحِ الْلَهَيْبِ
 نَحِيباً تَرَقَّرَقَ فِي مُهْجَتِي وَسَالَ يَرِنٌ بِنَدْبِ الْقَلُوبِ
 فَلَمَّ يَفْهَمِ الْغَابُ أَشْجَانَهُ
 وَظَلَّ يُرَدِّدُ الْخَائِنَهُ
 فَسَرْتُ ، وَنَادَيْتُ يَا أُمَّ هَيَّا
 إِلَيَّ ! فَقَدْ عَذَّبْتَنِي الْحَيَاةَ

وَقَفْتُ عَلَى النَّهْرِ أَهْرُقُ دَمْعاً تَفْجَرُ مِنْ فَيْضِ حُزْنِي الْأَلِيمِ
 يَسِيرُ بِصَمْتٍ ، عَلَى وَجْتِيَّ وَيَلْمَعُ مِثْلَ دَمِوعِ الْجَحِيمِ
 فَمَا خَفَّفَ النَّهْرُ مِنْ عَدُوهِ
 وَلَا سَكَتَ النَّهْرُ عَنْ شَدُوهِ
 فَسَرْتُ ، وَنَادَيْتُ يَا أُمَّ هَيَّا
 إِلَيَّ ! فَقَدْ أَضْجَرْتَنِي الْحَيَاةَ

* * *

وَلَمَّا نَدَبْتُ ، وَلَمْ يَنْفَعِ وَنَادَيْتُ أُمِّي «فَلَمْ تَسْمَعِ»
 رَجَعْتُ بِحُزْنِي إِلَى وَحْدَتِي وَرَدَّدْتَ نَوْحِي عَلَى مَسْمَعِي
 وَعَانَقْتُ فِي وَحْدَتِي لِسُوعَتِي
 وَقُلْتُ لِنَفْسِي : أَلَا فَاسَكْتِي



الزنبقة الداوية

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 15/11/1926، ويقارن فيها الشاعر بين الزنبقة
 الداوية وزهرة عمره الأفل.

أَرْزُبَقَةَ السَّفْحِ ؟ مَا لِي أَرَاكَ تَعَانَقِكِ اللَّوْعَةَ الْقَاسِيَةَ ؟
 أَفِي قَلْبِكَ الْغَضُّ صَوْتُ الْلَهَيْبِ ، يَرْتَلُّ أَنْشُودَةَ الْهَاطِيَةِ ؟
 أَأَسْمَعُكَ اللَّيْلُ نَدْبَ الْقَلُوبِ أَرَشَفَكَ الْفَجْرُ كَأَسَ الْأَسَى ؟

أصَبَّ عليك شعاعُ الغروب
أأوقفك الدهرُ حيث يُفجَّجُ
وَيَبْثِقُ الليلَ طيفاً، كثيباً
نجيعَ الحياة، ودمعَ المسا
رُ نوحُ الحياة صُدوعَ الصدور؟
رهيباً، ويخفقُ حزنُ الدهور؟

* * *

إذا أضجرتك أغاني الظلام
وإن هجرتك بنات الغيوم،
وإن سكب الدهر في مسمعك
فقد أجبج الدهر في مهجتي
وإن أرشفتك شفاة الحياة
فإني تجرعتُ من كفها
فقد عدتني أغاني الوجوم
فقد عسانقني بنات الجحيم
وإن سكب الدهر في مسمعك
فقد أجبج الدهر في مهجتي
وإن أرشفتك شفاة الحياة
فإني تجرعتُ من كفها

* * *

أصيخي! فما بين أعشار قلبي
معيداً على مهجتي بحفيص
وقد أترع الليلُ بالحب كأسي
وجرّ عني من ثُمالاته
إلي! فقد وحدث بيننا
فقد فجرت في هذي الكلوم
كما فجرت فيك تلك الكلوم
يرفّ صدى نوحك الخافت
جناحيه صوت الأسي المائت
وشعشعها بلهيب الحياة
مرارة حزين، تُذيب الصفاة
قساوة هذا الزمان الظلوم
فقد فجرت في هذي الكلوم
كما فجرت فيك تلك الكلوم

* * *

وإن جرفتني أكف المنون إلى اللحد،
سحقتك الخطوب
فحزني وحزنك لا يرحان
أليقين رغم الزمان العصب
وتحت رواق الظلام الكتيب
إذا شمل الكون روح السحر
سُسمِع صوت، كلحن شجي
يردده حزننا في سكون
فترقدت تحت التراب الأصم
تطائر من خفقات الوتر
على قبرنا، الصامت المطمئن
جميعاً على نغمات الحزن



قصائده عام 1927

وعدددها إحدى عشرة قصيدة:

- يا شعر.
- السامة أو الملل الأليم.
- الدموع.
- المجد.
- جدول الحب.
- الذكرى.
- إلى الطاغية.
- أغنية الأحران.
- أيها الليل.
- الحب.
- سر مع الدهر.

يا شعر

نظر الشعر القصيدة بتاريخ 1927/1/18

يا شعر أنتَ فمُ الشعور، وصرخةُ الروح الكئيبِ
يا شعر أنتَ صدى نحيب القلب، والصبّ الغريب

* * *

يا شعر أنتَ مدامعُ علقنتُ بأهداب الحياة
يا شعر أنتَ دمٌ، تفجّر من كلِّ يوم الكائنات

* * *

يا شعر! قلبي - مثلها تدري - شقيّ، مظلمٌ
فيه الجراحُ، النجلُ، يقطر من مغاورها الدمُ

* * *

جمدت على شفتيه أرزاء الحياة العابسه
فهو التعيسُ، يُذيبه نوح القلبوب البائسه

* * *

أبدأ ينوح بحرقه، بين الأماني الهاوية
كالبلبل الغريد مابين الزهور الذاوية

* * *

كم قد نصحته له بأن يسلو، وكم عزّيته
فأبى، وما أصغى إلى قولي، فما أجديته

* * *

«صبراً يا فؤاد! ألا تكفّ عن النحيب؟»
«فإذا تجلّدت الحياةُ تبددتُ شعلُ اللهيب»
«يا قلب! لا تجزع أمام تصلّب الدهر الهصور»
«فإذا صرختَ توجّعاً هزئت بصرختك الدهور»

* * *

«يا قلبت ! لا تسخط على الأيام ، فالزهر البسديع»
 «يصغي لضجات العواصف قبل أنغام الريح»

* * *

«يا قلب ! لا تقنع بشوك اليأس من بين الزهور»
 «ف وراء أوجاع الحياة عذوبة الأمل الجسور»

* * *

«يا قلب ! لا تسكب دموعك بالفضاء فتندم»
 «فعلى ابتسامات الفضاء قساوة المتهكم»

* * *

لكن قلبي وهو - مُحضُّ الجوانب بالدموع -
 جاشت به الأحران ، إذا طفحت بها تلك الصدوع

* * *

يبكي على الخلم البعيد بلوعة ، لا تنجلي
 غرداً ، كصدّاح الهواتف في الفلا ، ويقول لي :

* * *

«طهر كلومك بالدموع ، وخلها ، وسبيلها»
 «إن المدامع لا تضع حقيرها وجليها»

* * *

«فمن المدامع ما تدفع جارفساً حَسَك الحياة»
 «يزمى لهاوية الوجود بكل ما بيني الطغاة»
 «ومن المدامع ما تآلق في الغياهب كالنجوم»
 «ومن المدامع ما أراح النفس من عبء الهموم»

* * *

فأرحم تعاسته ، ونُسخ معه على أحلامه

فلقد قضى الحلمُ البديعُ عليّ لظي أميه

* * *

يا شعر! يا وحيّ الوجودِ الحيّ، يا لغّة الملائك
غرّد، فأيامي أنا تبكي عليّ إيقاع نايك

* * *

ردّد عليّ سمع السدجى أناتِ قلبي الواهية
واسكب بأجفان الزهور دموع قلبي الدامية

* * *

فلعلّ قلب الليل أرحم بالقلوب الباكية
ولعلّ جفن الزهر أحفظ للدموع الجارية

* * *

كم حرّكت كفف الأسى أوتار ذبّاك الحنين
فتهاملت أحزان قلبي في أغارييد الأنين

* * *

فلكّم أرقفتُ مدامعي، حتى تقرّحت الجفون
ثمّ التفّت، فلم أجسد قلباً يقاسمني الشجون

* * *

فعسى يكون الليل أرحم، فهو مثلي يندب
وعسى يصبون الزهر دمعي، فهو مثلي يسكب

* * *

قد قنعتُ كفف المساء الموتَ بالصمت الرهيب
فغدا كأعماق الكهوف، بلا ضجيج أو وجيب

* * *

يسأتي بأجنحة السكون، كأنه الليل البهيم

لكن طيفَ الموتِ قاسٍ، والـدجى طيفُ رحيم

* * *

ما للمنيعة لا تـرقُ على الحياة النائحـه؟
سيان أفـدة تـئن، أو القلوب الصادحـه

* * *

يا شعـرُ! هل خلِقَ المـنـون بلا شعورٍ كالجماد؟
لا ريشة تعـرو يدَيْهـه إذا تمـلَّقه الفـؤاد؟

* * *

أرأيتَ أزهارَ الريبـع، وقد ذوت أوراقهـا
فهوت إلى صدر التراب، وقد قضت أشواقهـا؟

* * *

أرأيتَ شـحـرور الفـلا، مترنماً بين الغـصون
جمد النـشيدُ بـصدره لمـأ رأى طيفَ المـنـون؟

* * *

فقضى، وقد غاضت أغاريـدُ الحياة الطاهـره
وهوى من الأغصان، ما بين الزهور الباسـره؟

* * *

أرأيتَ أمَّ الطفـل تبكي ذلـك الطفـلَ الوحيـد
لما تناولـه، بعنـفٍ، ساعـدُ المـوت الشديـد؟

* * *

أسمعتُ نـوحَ العاشق الوهـان، ما بين القبـور
يكـي حبيـتـه؟ فيالمـصارع المـوت الجـسور!

* * *

طفحتُ بأعماق، الوجود سـكينةً الصبر الجليـد

لم أر أي عدل الحياة يضمه اللحدُ الكنود

* * *

فتدفقت لحناً، يرددّه على سمع الدهور
صوتُ الحياة بضجة ..، تسعى على شفة البحور

* * *

يا شاعر! أنتَ نشيدُ أمواج الخضم الساحر
الناصعات؛ الباسمات، الراقصات، الطاهر

* * *

السافرات، الصادحات مع الحياة إلى الأبد؟
كعرائس الأمل الضحوك، يمسن ما طال الأمد

* * *

ها إن أزهار الربيع تبسمت أكمأها
ترنو إلى الشفق البعيد، تغرأ أحلامها

* * *

في صدرها أملٌ، يحدّق نحو هاتيك النجوم
لكنه أملٌ، ستلحده جبارة الوجوم

* * *

فلسوف تغمض جفنها، عن كل أضواء الحياة
حيث الظلام مُحيمٌ في جو ذيك السبات

* * *

ها إنها همست بأذن الحياة غريداً
قتلت عصفائر الصباح، صدأحها ونشيداً

* * *

يا شاعر! أنتَ نشيد هاتيك الزهور الباسمة

يا ليتني مثل الزهور، بملا حياة واجمه

* * *

إن الحياة كثيفة، مغمورة بدموعها!!
والشمس أضجرها الأسى، في صحوها وهجوعها

* * *

فتجرعت كأساً دهاقاً، من مُشعة الشفق
فتايلت، سكرى إلى كهف الحياة .. ولم تُفترق

* * *

يا شاعر! أنت نحيها ألمها هوت لسيباتها
يا شاعر! أنت صدادها، في موتها وحياتها

* * *

انظر إلى شفق السماء، يفيض عن تلك الجبال
بشعاعه الخلاب، يغمرها ببسيمات الجبال

* * *

فيشير في النفس الكثيفة عاصفاً لا يركد
ويؤجج القلب المعذب شعله لا تخمد

* * *

يا شاعر! أنت جمال أضواء الغروب الساحر
يا همس أمواج المساء، الباسيمات الحائرة

* * *

ياناي أحلامي الحبيبة! يارفيق صبابتي
لولاك مت بلوعتي، وبشقتي، وكأبتي

* * *

فيك انطوت نفسي، وفيك نفخت كل شاعري

فاصدق على قلم الحياة بلوعتي، يا طائري



الى الطاغية⁽¹⁾

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 18/2/1927.

يقولون: «صوت المستذلين خافتُ
وفي صنيحة الشعب المسخر زعزعُ
ولعلعة الحق الغضوب لها صدى
إذا التفَّ حول الحق قوم فإنَّه

وسمع طغاة الأرض (أطرش) أضخمُ
تخرُّ لها شمُّ العروش، وتهدمُ
ودمدمة الحرب الضروس لها فمُ
بصرُّمُ أحداثَ الزمان ويُبزمُ

* * *

لك الويل يا صرَّح المظالم من غدٍ
إذا حطَّتم المستعبدون قيودهم
أغرَّك أن الشعب مُغضٍ على قذى
ألا إنَّ أحلامَ البلاد دفينَةٌ
ولكن سيأتي بعد لأيٍ نشورها
هو الحق يُغفي ... ثم ينهض ساخطاً
غدا الرُّوع، إن هبَّ الضعيفُ ببأسه
إلى حيث تجني كفه بذر أمسه
ستجرع أوصاب الحياة، وتنتشي
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التي
إذا صعق الجبار تحت قيده

إذا نهض المستضعفون، وصمَّوا!
وصبُّوا حميم السخط آيان تعلم ..!
وأنَّ الفضاء الرَّحَبَ وسانان، مظلم؟
تجمجم في أعماقها ما تجمجم
وينشق اليوم الذي يترنم
فيهدم ما شاد الظَّلام، ويحطمُ
ستعلم من منَّا سيجرفه الدَّمُ
ومُزدرعُ الأوجاع لا بد يندم
فتصني إلى الحق الذي يتكلم
قرارتها صابٌ مريِّرٌ، وعلقم
يصيخ لأوجاع الحياة ويفهم !!



(1) وردت عند محمد كرو بعنوان: لعلعة الحق.

السامة

او: الملل الاليج

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/3/1927

سئمتُ الحياةَ وما في الحياةِ
سئمتُ الليالي وأوجاعَها
فحطّمت كآسي، وألقيتها
فأنتُ وقد غمرتها الدموعُ
وألقى عليها الأسي ثوبه
فأين الأمانى وألحانها؟
لقد سحقتها أكَفُّ الظلام
فما العيشُ في حومةٍ، بأسها
كثيب، وحييد بالأمه
ذوت في الربيع أزاهيرها!
لوينَ النحسورَ على ذلّة
فحال الجمال، وغاض العبير

وما إن تجاوزتُ فجرَ الشبابِ
وما شعشتُ من رحيقِ بصبابِ
بوادِي الأسي وجحيمِ العذابِ
وقرّرتُ وقد فاض منها الحبابِ
وأقبرها الصمّتُ والاكْتئابِ
وأين الكؤوس، وأين الشراب؟
وقد رشفتها شفاه السرابِ
شديد، وصداحها لا يجاب!
وأحلامه، شدوه الانتحابِ
فنمت وقد مصهنّ الترابِ
ومتن وأحلامهنّ العذابِ
وأذوى الردى جفن تلك الكعابِ



اغنية الاحزان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 26/4/1927

غَنّني أنشودة الفجر الضّحوكُ

أيها الصّداخ!

فلقد جرّعني صوتُ الظلام
ألمأ علمني كره الحياة
إن قلبي ملّ أصداء النواح

غَنّني، يسا صاخ!

في يــــد الأحمــــلام

حطمت كفت الأسي قيثارتي

فقضت صمتاً، أناشيد الغرام
بين أزهار الخريف الداويه
وتلاشت في سكون الاكتئاب

كــــصدي الغرــــيد

* * *

كف عن تلك الأغاني الباسمة

أهــــال العــــصفور!

فحياتي ألفت لحن الأسي
من زمان قد تقضى، وعسى
أن يثير الشدو، في صمت الفؤاد

آتــــة الأوتــــار

* * *

لا تغنيني أغاريد الصباح

بلبل الأفــــراح!

ففؤادي وهو مغمور الجراح
بتباريح الحياة الباكية
ليس تستهويه ألحان السرور

وأغــــاني النــــور

* * *

إن من أصغى إلى صوت المنون

وصــــدي الأجمــــداث

ليس تستهويه ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحرة

وابتسامات الحياة، السافرة

عن حلال الله

* * *

غنني يا صاح، أناتَ الجحيم

واسقني الآلام

أترع الكأس بأوجاع الهموم

واسقني، إني كرهتُ الابتسام

غنني ندبَ الأماني الخائنه

والليالي السود

* * *

غنني صوت الظلام المكتئب

إنني أهواؤ

هاك كأس القلب فاملأها نواح

واسكب الحزنَ بها حتى الصباح!

إنها من طينة الحزن المرير

صاغها الخلاق

* * *

بئست الأفراح، أفراح الحياة

إنها أحلام

تخلب اللب بالحانٍ عذاب

وأغاريـد، كأملك السما

ثم لا تلبث أن تذوي كـ

تذبل الأزهار

* * *

ريانة الأحلام

خبريني ، ما الذي خلف الغيوم ...؟

أفتى الهول ، وجبارُ الهموم ؟

أم عروسُ الأملِ العذبِ الشroud

تتهادى بين لألاء الصباح ؟

كَمَـالِك النـور

* * *

أنا في درب الحياة الغامضة

تائنة ، حيران

بينما أبصر في وجه الحياة

ظلمة الأحزان في ظل الألم

إذ أرى في جفنها نوراً ، بدئ

باسماً ، فتان

* * *

ها أنا أسمع في قلب الحياة

صبيحة الآلام

مُرّة تنساب ، من قلب حطيم

ملاً الحزنُ أقاصيه دموع

ها أنا أسمع أصوات السرور

كَصَّتِ الأيـام



الدموع

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 20/6/1927 ، ويوح فيها بنوع من الشقاء

الوجودي ويعترف بتنازعه بين قوى الخير والشر .

والمنسى بين لوعة وتأسّي
لا ترومُ الرحيقَ في كأسِ رجسٍ
ضللَ الناسَ من إمامٍ وقسٍّ!
قو، تكفّ الحياةَ عن كلِّ همسٍ
يَسْتَبِينِي سِوَى سَكِينَةِ نَفْسِي
تتلاشى به أناشيدُ يَأْسِي

* * *

بالأمانى، فما تناولتُ كأسِي
بأَ تَجَرَّعْتُهَا، فإشَدَّ تعسِي!
كأ، بها مُرِّقَتُ زَنَابِقِ نَفْسِي
وقضى الدهرُ أن أَعِيشَ بِيَأْسِي!
ساعةَ الموتِ، بينَ سَخَطِ وَبُؤْسِ
سِ سِ سِ سِ لَوْعَةٍ تَهَبُّ وَتَرْسِي!
بسكون، وبينَ أوجاعِ نَفْسِي
بُ بِصَمْتِ، ما بينَ رَمْسٍ وَرَمْسِ

* * *

في جحيمِ الحياةِ أطيافُ نَحْسِ
كِرِهِ العيشِ: من نعيمٍ وَبُؤْسِ (1)

ينقضي العيشُ بين شوقٍ وَيَأْسِ
هكذا سُنَّةُ الحياةِ، ونفسي
مُلئى الدهرُ بالخداعِ، فكم قد
كلَّما أسألُ الحياةَ عن الحـ
لم أجد في الحياةَ لحناً بديعاً
فسمتُ الحياةَ، إلاَّ غراراً

ناولتني الحياةَ كأساً دهاقاً
وسقتني من التعاسةِ أكوا
إنَّ في روضةِ الحياةِ لأشوا
ضاعَ أمسي! وأين مني أمسي!
وقضى الحُبُّ في سكونٍ مُريعٍ
لم تخلف لي الحياةَ من الأملِ
تهادى ما بين غصاتِ قلبي
كخيالٍ من عالمِ الموتِ ينسا

تلك أوجاعٌ مهجوةٌ عذبتُها
تلك أحلامٌ غور روحٍ كئيبِ



أيها الليل

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 24 / 6 / 1927

أيها الليل! يا أبا البؤسِ والهـ ل! ويا هيكلَ الحياةِ الرهيبِ

(1) البيت غير موجود في الديوان.

فِيكَ تَجشُّو عرائسُ الأملِ العذِّ بَ ، تُصلي بصوتها المحبوبِ
فِيئيرِ النشيدُ ذكري حياةٍ حجبتهنا غيومُ دهرٍ كئيبِ
وترفُّ الشجون من حول قلبي بسكونٍ وهيبةٍ وقطوبِ
أنت يا ليل ! ذرة صعدتُ للكونِ من موطئ الجحيمِ الغضوبِ
أيها الليلُ ، أنت نغمٌ شجيٌّ في شفاه الدهور ، بين النحيبِ
إنَّ أنشودة السكون التي ترتجُّ في صوتك الركودِ الرحيبِ
تُسمعُ النفس في هدوء الأمانِ رنة الحقِّ والجمالِ الخلوبِ
فتصوغُ القلموبَ منها أغاريذَ تهزُّ الحياةَ هزَّ الخطوبِ
تتلوَّى الحياةُ من أم البؤس ، فتبكي بلوعةٍ ونحيبِ
وعلى مسمعيك تنهلُّ نوحاً وعويلاً مرّاً شجونُ القلوبِ
فأرى برقاً شفيفاً من الأو جاعٍ ، يلقي عليك شجواً الكئيبِ
وأرى في السكونِ أجنحةَ الجـ بارٍ ، مخضلةً بدمعِ صيبِ
فلك الله ! من فؤادِ رحيمِ ولك الله من فؤادِ كئيبِ
يهججُ الكونُ في طمأنينة العصفور ، طفلاً بصدرك الغريبِ
وبأحضانك الرحيمة يستيقظُ في نُضرة الضحوك الطروبِ
شادياً كالطيور بالأمل العذب ، جميلاً كبهجة الشؤبوبِ
يا ظلام الحياة ! يا روعة الحزن ! ويا معزفَ التعيس الغريب !
إنَّ في قلبك الكئيبِ لمرتاداً لأحلام كلِّ قلبِ كئيبِ
وبقيشارة المسكينة في كفيك تنهلُّ رنةً المكروبِ
فيك تنمو زنايق الحلم العذب ، وتذوي لدى لهيب الخطوبِ
خلف أعماقك الكثيبة تنسابُ ظلالُ الدهور ذات القطوبِ
وبفودئيك في ضفائرك السود تذبُّ الأيام أيَّ ديبِ

* * *

صاح ! إنَّ الحياة أنشودة الحزن ، فرتل على الحياة نحيبي
إنَّ كأس الحياة مترعةٌ بالدمع ، فاسكب على الصباح حبيبي

إنَّ وادي الظلام يطفح بالهول ، فما أبعد ابتسامَ القلوب !
لا يغزَّئك ابتسامُ بنى الأرض ، فخلَّفَ الشعاع لذعُ اللهيب
أنت تدري أن الحياة قطوبٌ وخطوبٌ ، فما حياة القطوب ؟
إنَّ في غيبة الدهور ، تباعاً ، لخطيبٌ يمرُّ إثرَ خطيب

* * *

سَدَدْتُ في سَكينة الكون للأعماق نفسي لحظاً بعيدَ الرسوب
نظرةً مزقت شغافَ الليالي فرأتُ مهجَّةَ الظلام الهيوب
ورأتُ في صميمها لوعةَ الحزن ، وأصغتُ إلى صراخ القلوب
لا تحاول أن تنكِرَ الشجورَ إني قد خبرتُ الحياةَ خَبْرَ لبيب
فتبرَّمتُ بالسكينة ، والضجَّة ، بل قد كرهتُ فيها نصيبي ...
كن كما شاءت السماء كئيباً أيُّ شيءٍ يسرَّ نفس الأديب ؟
أنفوس تموت ، شاخصة بالهول ، في ظلمة القنوط العصيب ؟
أم قلوبٌ محطَّاتٌ على ساحل لَجِّ الأسى ، بموج الخطوب ؟
إنما الناسُ في الحياة طيورٌ قد رماها القضا بوادٍ رهيب
يعصفُ الهول في جوانبه السود ، فيقضي على صدى العندليب

* * *

قد سألتُ الحياةَ عن نغمة الفجر ، وعن وجمة المساء القطوب
فسمعتُ الحياةَ في هيكل الأحزان تشدو بلحنها المحبوب :
ما سكوتُ السماءِ إلا وجوم ما نشيد الصباح غيرُ نجيب
ليس في الدهر طائر يتغنى في ضفافِ الحياة غيرَ كئيب
خضب الاكتئاب أجنحةَ الأيام بالدمع ، والدم المسكوب
وعجيبٌ أن يفرح الناس في كهف الليالي ، بحزنها المشبوب !

* * *

كنتُ أرنو إلى الحياة بلحظٍ باسمٍ ، والرجاء دونَ لغوبٍ
ذاك عهدٌ حسبته بسمة الفجر ، ولكنَّه شعاع الغروب

ذاك عهد، كأنه رتة الأفراح تنساب من فم العنديل
خُفِّفَتْ ريشاً أصخَتْ لها بالقلب خيناً وُبدَلَتْ بنحيب
إن خمر الحياة وردية اللون ولكنها ساموم القلوب

* * *

جرفت من قرارة القلب أحلامي إلى اللحد، جائرات الخطوب
فتلاشت على تخوم الليالي وتهاوت إلى الجحيم الغضوب
وثوى في دُجْنَةِ النفسِ ومضَّ لم يزل بين جيئةٍ وذهوبٍ
ذكرياتٍ تميسُ في ظلمةِ النفسِ، ضئلاً كرائعاتِ المشيبِ
يا لقلبٍ تجرَّع اللوعةَ المرةَ من جدولِ الزمانِ الرهيبِ!
ومَضَّتْ في صميمه شعلةُ الحزنِ، فغَشَّتْهُ من شعاعِ اللهبِ



المجد

نظم الشاعر الأبيات في غرة الشهر الثامن عام 1927.

يوذُ الفتى لو خاض عاصفة الردى وصدَّ الخميسَ المجرَّ والأسدَ الوُرُدا
ليدرك أجماد الحروب، ولو درى حقيقتَها ما رام من بينها مجداً
فما المجد في أن تُسكِرَ الأرض بالدماء وتركبَ في هيجائها فرساً نهداً
ولكنه في أن تصدَّ بهمةٍ عن العالم المرزوء، فيضَّ الأسى صداً



الحب

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 28/8/1927.

الحبُّ شعلة نورٍ ساحرٍ، هبطت من السماء، فكانت ساطعَ الفلق
ومزقت عن جفون الدَّهرِ أغشيَّةً وعن وجوه الليالي بُرَقَعَ الغسق
الحب روحٌ إلهيٌّ، مجتحةٌ أيامه بضياء الفجر والشفق

يوسف في هذه الدنيا، فيجعلها
لولاها ما سُمعت في الكون أغنيةٌ
الحبُّ جدولٌ خمير، من تذوقه
الحب غاية آمال الحياة، فما
نجماً، جميلاً ضحوكاً، جدَّ مؤتلقِ
ولا تآلفَ في الدنيا بُنو أفقِ
خاض الجحيم، ولم يُشْفِق من الحرق
خوفٍ إذا ضمّني قبوري؟ وما فرّقي؟



جدول الحب

بين الامس واليوم

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 30 / 8 / 1927

بالأمسِ قد كانت حياتي كالسماءِ الباسمةِ
واليوم قد أمست كاعماقِ الكهوفِ الواجمةِ

* * *

قد كان لي ما بين أحلامي الجميلةِ جدولُ
يجري به ماء المحبة طاهراً يتسلسلُ

* * *

تسعى به الأمواج باسمه كأحلام الصبا
بيضاء ناصعة، ضحوكاً مثل أزهار الربى

* * *

مياسة كعرائس الفردوس بين حقوله
تتلىو أناشيد الهوى في مَدَّه وُقُوله

* * *

هو جدول الحب الذي قد كان في قلبي الخضل
بمراشف الأحلام - منطلقاً - يسير على مهل

* * *

يتلو على سبمعي أغاريد الحياة الطاهره

ويُثِيرُ في قلبي أناشيدَ الخلودِ السّاحره

* * *

تقفُ العذارى الخالداً ... عرائسُ الشعرِ البديعِ
في ضفتيه، مُردّذات نغمّة الحلمِ البديعِ

* * *

يلمسَنَ من قيثارَةِ الأحلامِ أوتارَ الغزلِ
فتفيضُ ألحانُ الصبايةِ عذبةً مثلَ الأملِ

* * *

وتطيرُ بالبسّماتِ والأنغامِ أجنحةُ الصدى
في ذلك الأفقِ الجميلِ وذلك النّسمِ الرّخا

* * *

وهناك حيثُ تُعانقُ البسّماتُ ألحانَ الغزلِ
يتمايلُ الحلمُ الجميلُ .. كبسمةِ القلبِ الثّملِ

* * *

هو جدول، قد فجّرتُ ينبوعَه في مهجتي
أجفانُ فاتنةٍ أرّنتها الحياةُ لشقوتي

* * *

أجفانُ فاتنةٍ تراءت لي على فجرِ الشبابِ
كعروسة من غاياتِ الشعرِ في شفقِ السّحابِ

* * *

ثمّ اختفتُ خلفَ السماءِ وراءَ هاتيكِ الغيومِ
حيثُ العذارى الخالداً يمسَنَ ما بينَ النجومِ

* * *

ثمّ اخفتُ، أوّاه طائرةٌ بأجنحةِ المنونِ

نحو السماء، وها أنا في الأرض تمشال الشجون!

* * *

قد كان ذلك كله بالأمس! بالأمس البعيد
والأمس قد جرفته مقهوراً يد الموت العنيد!!

* * *

قد كان ذلك تحت ظلّ الأمس والماضي الجميل
قد كان ذلك في شعاع البدر من قبل الأفول

* * *

واليوم إذ زالت ظلال الأمس عن زهري البديع
وتجلبب الزهر الجميل بظلمة الليل المريع

* * *

ذبلت مراشفه، فأصبح ذاوياً، نضو الكلوم
وهوى لأنّ الليل أسمعه أناشيد الوجوم

* * *

بالأمس قد كانت حياتي كالسما الباسمة
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة

* * *

إذ أصبح النبع الجميل يسير في وادي الأم
متعثراً بين الصخور يغور في تلك الظلم

* * *

جفت به أمواج ذيك الغرام الأفل
فتدقت فيه السدموع بصوبها المتهاطل

* * *

قد حجبت به غيوم أحزان الوجود القائمة

قد أحرسته حرارة القلب التعيس الظالمة

* * *

جمدت على شفثيه أنغام الصباية والهوى
وقضت أغاني الحب في أعماقه لها هوى

* * *

وغدت به الأمواج جامدة الملامح قائمه
قد أسكتتها لوعة الروح الحزين الواجعه

* * *

غاضت أمانيتها وغار بها الجهال الساحر
فأصابها - لهفأ عليه - الاكتئاب الكافر

* * *

في ضفثيه عرائس الأشعار تنضب مائماً
يهرقن فيه الدمع، حتى يلطم الدمع الدما

* * *

فيسيل الدمع الدامي لقلب الجدول
حيث المارة والأسى بين الزهور الذبل

* * *

وينحن حتى يُنعم الآفاق صوت الانتحاب
فتسير أصداء النياحة نحو أطباق الضباب

* * *

وهناك ما بين الضباب الأتم الساجي الكئيب
تهتز آلامي وتختلج الكأبة، والنحيب



سر مع الدهر

نظم الشاعر الأبيات بتاريخ 7/9/1927 وهي أبيات في الحكمة.

سر مع الدهر، لا تضدّنك الأهوال، أو تفزعنك الأحداثُ
سر مع الدهر، كيفما شاءت الدنيا، ولا يخذعك النَّفَاثُ
فالذي يرهبُ الحياة شقيٌّ، سخرت من مصيره الأجداثُ



الذكرى

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24/11/1927.

كنّا كزوجي طائر، في دوحه الحب الأمين
نتلو أناشيد المنى بين الخمائيل والغصون
متغرّدَيْن مع البلابل في السهول وفي الحزون
مَلَأَ الهوى كأس الحياة لنا، وشعشعها الفُتُون
حتّى إذا كدنا نُرشّفُ خمرها، غضب المنون
فتخطّف الكأسَ الخلوبَ، وحطّم الجام الثمين
وأراق خمر الحسب في وادي الكآبة والأنين
وأهاب بالحبّ الوديع، فودّع العُشَّ الأمين
وشدا بلحن الموتِ في الأفق الحزين المستكين
ثم اختفى خلف الغيوم، كأنه الطيف الحزين ...

* * *

يا أيها القلب الشجيّ! إلام تحرسك الشجون
رحماك قد عدّبتني بالصمت والدمع الهتون
مات الحبيب، وكل ما قد كنتَ ترجو أن يكون!
اصبرْ على سبخط الزمان، وما تصرّفه الشؤون

فَلَسَوْفَ يُنْقِذُكَ مِنَ الْمَنُونِ ، وَيَفْرَحُ الرُّوحَ السَّجِينِ ..

* * *

وَرِزْدُ الْحَيَاةِ مُرْتَبِّقٌ ، وَالْمَيُوتُ مَوْرِدُهُ مَعِينِ
 وَلرَبِّمَا شَاقُّ الرَّدَى الدَّاجِي ، وَأَعْيَاقُ الْمَنُونِ
 قَلْبًا ، تَرَوُّعُهُ الْحَيَاةَ ، وَلَا تُهَادِنُهُ السُّنُونُ
 وَمَشَاعِرًا حَسْرَى ، يَسِيرُ بِهَا الْقَنُوطُ إِلَى الْجَنُونِ



قصائد عام 1928

وعددها أربع عشرة قصيدة:

- الطفولة.
- المساء الحزين.
- أغنية الشاعر.
- مناجاة عصفور.
- إلى الموت.
- صوت تائه.
- في ظلال الغاب أو نشيد الأسي.
- قالت الأيام.
- بقايا الخريف.
- في فجاج الآلام.
- يا رفيقي.
- إلى عازف أعمى.
- قبضة ضباب.
- قلت للشعر.

الطفولة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 5 / 1 / 1928.

لله ما أحلى الطفولة ! إنها حلم الحياة
عهدٌ كمعسول الرؤى ما بين أجنحة السبات ...
ترنو إلى الدنيا، وما فيها بعين باسمه
وتسير في عدوات واديها بنفس حامله ...

* * *

إن الطفولة تهتزُّ في قلب الربيغ
ريانةً من ريق الأنداء في الفجر الوديح
غنت لها الدنيا أغاني حبها وجورها
فتأودت نَشوى بأحلام الحياة ونورها

* * *

إن الطفولة حقبلةٌ شعريَّةٌ بشعورها
ودموعها، وسرورها، وطموحها، وغرورها
لم تمش في دنيا الكآبة، والتعاسة، والعذاب
فترى على أضوائها ما في الحقيقة من كذاب



قالت الأيام

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 28 / 1 / 1928، يعبر فيها الشاعر عن إيمانه بغلبة الحق وانتصار الحرية.

يا أيها السَّادر في غيِّه !
يا واقفاً فوق حطام الجبابة !
مهلاً ! ففي أنات من دسَّتْهم

صوتٌ رهيبٌ سوف يدوي صداه ...

* * *

لا تـأمننَّ السـدهر، إـمـا غـفـا
في كـهـفـه الـسـداجي، وطلـسـت رُؤاه
فإن قـضـى الـيـومُ ومـا قـبـلـه
ففي الغـد الحـيِّ صـبـاحُ الحـيـاه

* * *

يـا أيـمـا الجـبـار! لا تـزـدري
فالحق جـبـارٌ، طويـل الأـنـاه
يغـفـى، وفي أجفانـه يـقـظـة
ترنـو إلى الفـجـر الـذي لا تـراه ...



المساء الحزين

نظم الشاعر قصيدته في 20/1/1928.

أظـلَّ الـوجـودَ المـسـاء الحـزين، وفي كـفـه مـعـزف لا يُـيـن
وفي نـغـره بـسـمات الـشـجون، وفي طـرفـه حـسرات الـسـنين
وفي صـدره لوعـة لا تـقـرُّ، وفي قـلبـه صـعـقات المنـون
وقبـلـه قـبـلاً صـامـتات، كما يـلـثمُ المـوتُ وِزْدَ الغـصـون
وأفـضى إلـيـه بـوحـي النـجوم، وسر الظـلام، ولحن الـسـكون
وأوحى إلـيـه مـزاميرَه، فغـنَّتْ بـها في الظـلام الحـزُون
وعـلـمـه كـيـف تأسى النـفـوس، ويقـضي يـؤوساً لـديـها الحـنين
وأسمعه صرخات القلوب، وأنهله من سـلاف الشـؤون -
فأغـفى عـلى صـدره المـطمئن، وفي رُوحه حلـم مـسـتـكين
قويٌّ، غـلـوبٌ، كـسـجـر الجـفون، شـجـيٌّ، لـعـوبٌ، كـزهر حـزين

ضكوك، وقد بلّته الدموع، طروب، وقد ظلّته الشجون
تعانقه سكرات الهوى، وتحضنه شهقات الأنين
يشابه روح الشباب الجميل إذا مات ألق بين الجفون
أعاد لنفسه خيالاً جميلاً... لقد حجبتة صروف السنين
فطافت بها هجسات الأسي، وعادت لها خطوات الجنون
أظّل الفضاء جناح الغروب، فألقى عليه جمالاً كئيب
وألبسه حلّة من جلال، شجي، قويّ جميل، غلوب
فنامت على العشب تلك الزهور لمراى المساء الحزين الرهيب
وأبت طيور الفضاء الجميل لأوكارها، فرحات القلوب
وقد أضرمت بأغاريدها خيال السماء الفسيح الرحيب
وولّى رعاة السّوام إلى الحبيّ يزجونها في صمات الغروب
فتتغوّ، حنيناً لحملاتها، وتقطّف زهر المروج الخصب
وهم ينشدون أهازيجهم بصوت، بهيج، فأروح، طروب
ويستمنحون مزاميرهم، فتمنحهم كلّ لحن عجيب
تطير به نسائم الغروب إلى الشفق المستطير الخلوب
وتوحي لهم نظرات الصبايا أناشيد عهد الشباب الرطيب
وأقبل كلّ إلى أهله، سوى أملي، المستطار، الغريب
فقد تاه في معسبات الحياة، وسدّت عليه مناجي الدروب
وظلّ شريداً، وحيداً، بعيداً، يغالب عنف الحياة العصب
وقد كان من قبلّ ذا غبطة، يرفرف حول فؤادي الخصب

* * *

ولما أظّل المساء السماء، وأسكر بالحزن روح الوجود
وقفت، وساءلته: «هل يؤوب لقلبي ربيع الحياة الشّرد؟»
«فتخفق فيه أغاني الورود ويحضر فردوس نفسي الحصيد؟»
«وتختال فيه عروس الصباح، وتمرح نشوى بذاك النشيد؟»

«ويرجع لي من عراض الجحيم سلامُ الفؤاد، الجميلُ، العهد؟»
«فقد كَبَلْتَهُ بناتُ الظلام، وألقينَه في ظلام اللحدود؟»
فأصغى إلى هَفْسي المستمرِّ، وخاطبني من مكانٍ بعيد:
«تعوُّدٌ اذْكَاراتُ ذاك الهوى، ولكنَّ سحر الهوى لا يعود»
فجاشتُ بنفسي مآسي الحياة، وسخطُ القنوط القويُّ المرِيد
ولما طغيت عَصَفاتُ القنوط فمادتْ بكلِّ مكين، عتيد
أهبت بقلبي، الهلوع، الجزوع، وقد كان من قبلُ جلدًا، شديد:
«تجلَّد، ولا تستكنُ للَّيالي، فما فاز إلاَّ الصبورُ، الجليد»
«ولا تأسَّ من حادثات الدهور، فخلف الدياتير فجرٌ جديد»
«ولولا غيومُ الشتاء الغضابُ لما نضدَّ الروضُ تلك الورود»
«ولولا ظلام الحياة العبوسُ لما نسحَّ الصبحُ تلك البرود»



بقايا الخريف

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 27 / 2 / 1928.

كرهتُ القصورَ، وقطائنها، وما حولها من صراعٍ عنيفٍ
وكيدٍ الضعيف لسعي القويِّ، وعصف القويِّ بجهد الضعيف
وجاشت بنفسي دموع الحياة، وعجَّت بقلبي رياح الصروف
لقلب الفقير الحطيم، الكسير ودمع الأيامي السفيح الذريف
ونوح اليتامي على أمهات، تواريَن خلف ظلام الحتوف
فسرَّت إلى حيث تأوي أغاني الربيع، وتذوي أماني الخريف
وحيث الفضاء شاعرٌ، حالمٌ، يناجي السهول بوحي، طريف
وقد دثرتَه غيومُ المساء بظُلِّ، حزينٍ، ضريحٍ، شفيف
وبين الغصون التي جرَّدتها ليالي الخريف، القويِّ العسوف
وقفَّت، وحوَّلِي غديرٌ، مواتٌ، تمادتْ به عَفَواتُ الكهول

قضت في حفافيه تلك الزهور، فكفنها بالصقيع الخريف
سوى زهرة شقيت بالحياة، وملئتها بالمقام المخيف
يروّعها فيه قصف الرعود، ويمزنها فيه نذب الزيف
ويتنأها في الصباح السديم، وفي الليل حلم، مريع مخيف
وتزهبها غاديات الغمام، وتؤلها كل ريح عصف
فترنوا لحوها من زهور، وماتم إلا السحيق، الجفيف
فتبكي بكاء الغريب، الوحيد، بشجو كظيم، ونوح ضعيف
تباكي به لبها المستطار، وترثي به ما طوته الخُوف
وتشكو أساها بياض النهار، وتندب حظ الحياة السخيف
ولكن لقد فقدت في الوجود رفيقاً مُصيخاً، وقلباً رؤوف
فماتت إلا الصخور القواسي، وإلا الصدى المستطار اهتوف
فجادت بروح شقي، شجي، لقد عذبتة الليالي صنوف
وماتت، وقد غادرتها بقاع من الأرض صنك، حياة الصروف
فبانَتْ حبال الغدير الأصم، وقد أخرس الموت ذاك الحفيف
وقد خضبت غيوم المساء، كغانية ضرّجتها السيوف
فسلها: «تري كيف غاض الأريج؟
وكيف خبث بسامات الحياة
وكيف لوت جدها الحداثات
ذكرت بمضجها المطمئن
مصارع أمالي الغابرات
فقلبت طرفي بمهوى الزهور
وقلت: «هو الكون مهّد الجمال
وأطرقت، أصغي لهمس الأسى
وغاضت ثمالة نور النهار

وكيف ذوى سحر ذاك الرفيف؟
بأجفانها، وعراها الكسوف؟
وألوت بذاك القوام اللطيف؟
ومرقدتها في السّفير الجفيف
وخببته في الصراع العنيف
وصعدته في الفضاء الأسيف
ولكن لكل جمال خريف! ...
وقد غشي النفس همّ كثيف
وأزحى ظلام الوجود السجوف



اغنية الشاعر

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 8 / 3 / 1928 .

يا ربّة الشعرِ والأحلام ، غنّيني
 إن الليالي اللواتي ضمّخت كبدي
 ناخت بنفسي مآسيها ، وما وجدت
 وهداً من خلدي نوح ، ترجّعه
 على الحياة أنا أبكي لشقوتها
 ياربة الشعرِ ، غنّيني ، فقد ضجرت
 تبرّمت ببني الدنيا ، وأعوزها
 وراحة الليل ملأى من مدامعه
 فهل إذا لُذت بالظلماء ، متجباً
 ياربة الشعر ! إني بائس ، تعسّ
 وفي يدك مزاميرٌ يخالجهما
 ورثلي حول بيت الحزن أغنيةً
 فإن قلبي قبرٌ ، مظلمٌ ، قُبرث
 لولاك في هذه الدنيا لملمست
 ولا تغنّيتُ مأخوذاً ... ، ولا عدّبتُ
 ولا أصخّتُ إلى الأصداء ، راقصة
 ولا ازدهى النفس في أشجانها شفقٌ
 ولا استخفّ حياتي ، وهي هائمةٌ

فقد سئمتُ وجوم الكون ، من حين
 بالسّحر أضحت مع الأيام ترميني
 قلباً عطوفاً يُسليها ، فعزّيني
 بلوى الحياة ، وأحزان المساكين
 فمن إذا متُّ يبيها ويكيني !
 نفسي من الناس أبناء الشياطين
 في معزف الدهر غرّيد الأرانين
 وغادة الحب ثكلى ، لا تغنّيني
 أسلو؟ وما نفعُ محزون لمحزون؟
 عدمتُ ما أرتجّي في العالم الدون
 وحي السماء ؛ فهاتيها ، وغنّيني
 تجلّو عن النفس أحوان الأحيين
 فيه الأمانى ، فما عادت تناغيني
 أوتارَ روعي أصوات الأفانين
 لي الحياة لدى غصن الرياحين
 بين الكهوف ، على عزف الشياطين
 يلوّن الغيم لهواً أيّ تلوين
 فجرّ الهوى في جفون الخرد العين



في فجاج الآله

نظم الشاعر هذه القصيدة في غرة الشهر الرابع لعام 1928 .

يا لابتسامة قلبب مظلولة بدموعه

غاضبت ، فلم تبق إلا الدموع بين صدوعه
 ظلَّ يهتف من شجوه ، وفزط ولوعه
 «وَيْسَحُ الحَيَاةُ ! أَمَا تَنْقُضِي لَهَا الرِّزَايَا؟!»
 «أَمَا يُكْفِكُفُ هَذَا الزَّمَانُ صَوْبَ البَلَايَا؟!»
 «يَا دَهْرُ ! رَفَقَا ! فَإِنَّ القُلُوبَ أَمْسَتْ شَطَايَا»

* * *

يا قلب نهته دموع الأسى ، ولوعه روعك
 إن الدهور البواكي غنيّة عن دموعك
 حسب الحياة أساها فاطو الأسى في صدوعك
 واحلهم بفجر الليالي .. ، ففجرها في هجوعك
 وإن غفوت فإن الحياة ليست تروّعك
 وسوف يمضي شتاء الأسى ، ويسأتي ربيعك

* * *

بين القبور فتاة جاز الزمان عليها
 فافتك منها بعنف كفت الردى أبوها
 تقول والليل ساج والقبير مصغ إليها:
 «يا ليتني متُّ من قبل أن تسوء حياتي»
 «ويَنْضَبَ الدَّمْعُ مِنْ لَوْعَتِي ، وَمِنْ حَسْرَاتِي»
 «مَنْ لِي بِحَفْرَةِ قَبْرِ تَضْمُنِي وَشَكَاتِي!»

* * *

في الحبي صبب يعاني في الصدر داء دفيناً
 وفي الفؤاد جوى كما مناً وحنناً مكيناً
 حتى دهنه الليالي وجرعتُه منوناً
 فشيع الميت جمع من حيه ، يندبوناه

حتى إذا ما أرادوا رَضَفَ الصَّفاحِ دَوْنَهُ
 ناحت عليه فتاة: «ويلي، لمن تركونه!»

* * *

كان الصَّبِيُّ يَصِيدُ الفَرَّاشَ بِسِنِّ الزَّهْوِ
 فداس زهراً ندياً ألقى به في الغدير
 فأخرجوه، ولكن بعد القضاء الأخير...
 فخرت الأم حول الصَّبِيِّ، تصرح: «ويلي!»
 فقلقت، والقلب دام والناس ييكون حولي
 «ما أسخف العيش تقضي عليه زلّة نعل»

* * *

شَيْخٌ، شَاءَ دَهْرَ الأَسَى، وحيّد شيتيت
 بين الخرائب يُمسِي على الطَّوَى، ويبيت
 في ظلمة الليل فاضت على الوجود حياتهُ
 وطرفه يرمق النَجْمَ مِنْهُ عبرتُهُ
 وما حوالبه إلا الخراب يُشجِي صمائه
 فما بكاه فتاه ولا بكتاه فتاتُهُ

* * *

يا زهرة سأمها العابرون خسفاً وهوناً!
 لو كنتِ شوكاً عَضوضاً ما داسك العابروننا
 لأنهم يجهلون الوحي الذي تُضميرنا
 هم يسخرون بهمس الزهور، وهو بديع!
 ويُنتصتون لـصوت الأشواك، وهو مُريع!
 فلا تبالي بقوم الحق فيهم صريعُ

* * *

رباه! كم من فتاة، تشكو الحياة وتبكي

ومُعْـلِـمٍ ، بَوَّأْتُهُ الـذُّهُورُ مَقْعِدَ ضَمْنِكَ
 وَيَسَائِرِ مَمَاتٍ فِي لُبِّهِ المَسْرَامِ الوَحِيدِ
 وَتَائِسِهِ ، ضَمَاعِ بَيْنِ القَفَارِ ، وَهَوِ فَرِيدِ
 حَتَّى طَوْتَسَهُ مَن العَاصِفَاتِ رِيحِ شَرُودِ
 رَبَّاهِ ! رُحْمَاكَ إِن الزَّمَانَ فَضُّ شَمِيدِ

* * *

يَا طَائِرَ الشَّعْرِ ! رَوِّحْ عَلى الحَيَاةِ الكَثِيبَةَ
 وَأَمْسِخْ بِرِيـشِكَ دَمْعَ القَلْبِ وَفَهِي غَرِيبَةَ
 وَعَزِّهْ عَن أَسَاها فَفَقَد دَهْتَهَا المَصِيبَةَ
 وَأَنْتَ رُوحٌ جَمِيلٌ ، بَيْنَ الهَضَابِ الجَدِيدِ
 فَانفِخْ بِهَا مَن لَهَيْبِ السَّمَاءِ رُوحاً خَضِيبَةَ
 وَابْعَثْ بِسِحْرِكَ فِي قَلْبِهِ ضَرَامَ الشَّيْبَةَ



مناجاة عصفور

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 16 / 7 / 1928.

يَا أَيُّهَا الشَّادِي المَغْرَدُ هَاهُنَا	تَمَلَّأَ بَغْطَةَ قَلْبِهِ المَسْرُورُ
مَتَنَقِّلاً بَيْنَ الخَمَائِلِ ، تَالِيَاً	وَحَيِّ الرِّيْعِ السَّاحِرِ المَسْحُورِ
غَرَّدَ ، فَفِي تِلْكَ السَّهُولِ زَنَابِقُ	تَرْنُو إِلَيْكَ بِنَاطِرٍ مَنظُورِ
غَرَّدَ ، فَفِي قَلْبِي إِلَيْكَ مَوْدَةٌ	لَكِن مَوْدَةٌ طَائِرٍ مَأْسُورِ
هَجَرْتَهُ أَسْرَابِ الحَمَائِمِ ، وَأَنْبَرَتْ	لِعَذَابِهِ جَنِيَّةُ السِّدِّجُورِ ...
غَرَّدَ ، وَلَا تَرَهَّبْ يَمِينِي ، إِنَّنِي	مِثْلَ الطَّيُورِ بِمَهْجَتِي وَضَمِيرِي
لَكِن لَقَدْ هَاضَ التَّرَابِ مَلَا مِحِي	فَلْبِثْتُ مِثْلَ البَلْبَلِ المَكْسُورِ
أَشْدُو بَرْنَاتِ النِّيَاحَةِ وَالْأَسَى	مَشْبُوبَةً بَعِوَاطِفِي وَشَعُورِي

غُرْدٌ، ولا تحفل بقلبي، إنه

كالعزف، المتحطم، المهجور

* * *

رَتَّلْ على سمع الربيع نشيدَهُ

واصدح بفيضِ فؤادك المسجور

وانشد أناشيد الجمال، فإنها

روحُ الوجود، وسلوة المهجور

أنا طائر، متغرّد، مترنّم

لكن بصوت كآبتي وزفيري

يهتاجني صوتُ الطيور، لأنه

مُتدفقٌ بحرارة وطهور

ما في وجود الناس من شيء به

يَرْضَى فؤادي أو يُسِرُّ ضميري

فإذا استمعتُ حديثهم أَلْفَيْتُهُ

غثاً، يفيض بركةٍ وفتور

وإذا حضرتُ جموعهم أَلْفَيْتَنِي

ما بينهم كالبلبل المأسور

متوحّداً بعواظي، ومشاعري،

وخواطري، وكآبتي، وسروري

يَتَّأبِنِي حَرَجُ الحياة كأنني

منهم بوهدة جنادل وصخور

فإذا سكّتُ تَضَجَّرُوا، وإذا نظقت

تذمروا من فكري وشعوري

أوه من الناس الذين بَلَوْتُهُم

فقلوبهم في وحشتي وحبوري!

ما منهم إلا خبيث غادر

متربّص بالناس شرّ مصير

ويودُّ لو ملك الوجودَ بأسره

ورمى الورى في جاحم مسجور

لِيُبَلِّ غَلْتَهُ التي لا ترتوي

ويكصّ تهمة قلبه المغفور

وإذا دخلتُ إلى البلاد فإن أفكا

ري ترفرف في سفوح الطّور

حيث الطبيعة حلوة فتأنةٌ

تختال بين تبرّج وسفور

ماذا أودُّ من المدينة، وهي غارقةٌ

بمؤار السدّم المهذور!

ماذا أودُّ من المدينة، وهي لا

ترثي لصوت تفجّع الموتور؟

ماذا أودُّ من المدينة، وهي لا

تغنو لغير الظالم الشّير؟

ماذا أودُّ من المدينة، وهي مُرتابِدٌ

لكل دعارة وفجور؟

* * *

يا أيها الشادي المغرّد هاهنا

ثملاً بغطّة قلبه المسرور!

قَبْلَ أَزَاهِيرِ الرَّبِيعِ ، وَغَنِّهَا
 وَاشْرَبْ مِنَ النَّبْعِ ، الْجَمِيلِ ، الْمَلْتَوِيِّ
 وَاتْرِكْ دَمَوْعَ الْفَجْرِ فِي أَوْرَاقِهَا
 فَلَرَبِّهَا كَانَتْ أُنَيْنَاً صَاعِداً
 ذَرَفْتَهُ أَجْفَانِ الصَّبَاحِ مَدَامِعاً
 رَنَمَ الصَّبَاحِ الضَّاحِكِ الْمَجْبُورِ
 مَا بَيْنَ دَوْحِ صَنْوِيرٍ وَغَدِيرِ
 حَتَّى تُرَشِّفَهَا عُرُوسُ النُّورِ
 فِي اللَّيْلِ مِنْ مَتَوَجِّعٍ ، مَقْهُورِ
 الْأَقَّةِ ، فِي دَوْحَةِ وَزْهُورِ ...



يَا رَفِيقِي

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 16 / 7 / 1928.

يَا رَفِيقِي ! وَأَيْنَ أَنْتَ ؟ فَفَقَدَ أَعْمَتَ جَفُونِي عَوَاصِفَ الْأَيَّامِ
 وَرَمْتَنِي بِمَهْمِهِ ، قَاتِمٍ ، قَفَرٍ ، تُغَشِّيه دَاجِيَاتُ الْغَمَامِ ..
 خُذْ بِكَفِّي ، وَغَنَّنِي ، يَا رَفِيقِي ، فَسَبِيلَ الْحَيَاةِ وَعَرُّ أَمَامِي
 كَلَّمَا سَبَرْتُ زَلَّ بِي فِيهِ مَهْوَى ، تَتَضَاغَى بِهِ وَحُوشُ الْحِمَامِ
 شَعَبَتْهُ الدُّهُورُ ، وَانطَمَسَ النُّورُ ، وَقَامَتْ بِهِ بَنَاتُ الظَّلَامِ
 رَاقِصَاتٍ ، يُجْلِبْنَ فِي حَلْكِ اللَّيْلِ ، وَيَلْعَبْنَ بِالْقُلُوبِ الدَّوَامِي
 غَنَّنِي ، فَالْغِنَاءُ يَدْرَأُ عَنَّا السَّاحِرَ الْجِنِّ ... ، سَاكِنَ الْأَجَامِ ..

* * *

قَدْ تَفَكَّرْتُ فِي الْوُجُودِ ، فَأَعْيَانِي ، وَأَدْبَرْتُ آيَساً لظَّلَامِي
 أَنْشُدُ الرَّاحَةَ الْبَعِيدَةَ ، لَكِنْ خَابَ ظَنِّي وَأَخْطَأْتُ أَحْلَامِي
 فَمَعِي فِي جِوَانِحِي أَبَدَ الدَّهْرِ فَوَؤَادٌ إِلَى الْحَقِيقَةِ ظَامِي
 مَا تَرَاحَى الزَّمَانُ إِلَّا وَأَلْقَى فِي طَوَايَاهِ قَبْضَةً مِنْ صَرَامِ
 تَتَلَطَّى ، يَدَ الْحَيَاةِ ، وَزَادَتْ مُعْضَلَاتُ الدُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ
 أَظْمَأْتُ مَهْجَتِي الْحَيَاةَ ، فَهَلْ يَوْمًا تُبَلِّ الْحَيَاةَ بَعْضُ أَوْامِي ؟
 يَا رَفِيقِي ! مَا أَحْسِبُ الْمُنْبَعِ الْمُنْشُودَ إِلَّا وَرَاءَ لَيْلِ الرَّجَامِ
 غَنَّنِي ، يَا أَحْيَى ، فَالْكُونُ تُهَيِّئُ ، بِهَا قَدْ تَمَزَّقَتْ أَقْدَامِي

غَنَّنِي ، عَلَّنِي أُنَيْمُ هُمُومِي ، إِنَّنِي قَدْ مَلَلْتُ مِنْ تَهِيَامِي

* * *

يا رفيقي ! أما تفكَّرتَ في الناس ، وما يحملون من آلام ؟
فلقد حَزَّ في فؤادي ما يَلْقَوْنَ من صولة الأسي الظلام
فإذا سرَّني من الفجر نُورٌ ساءني ما يُسرِّرُ قلبُ الظَّلام
كم بقلب الظلام من أتة تهفو بغصَّات صبيبة أيتام
ونشيج مُضَرَّمٍ من فتاة ، أبهظتها قوارع الأيام
ونواح يفيض من قلب أم فُجعت في وحيدها البسام ،
فطم الموت طفلها ، وهو نورٌ في دجاها ، من قبل عهد الفطام
وأنين من معدم ، ذي سقام ، عضه الدهر بالخطوب الجسام
ما إخال النجوم إلا دموعاً ، ذرقتها محاجر الأعوام
فلقد ضرَّم الشجون بنوها ، فإذا بالشجون سيل طام
وإذا بالحياة في ملعب الدهر تدوس الرؤوس بالأقدام
وإذا الكون فلذة من جحيم تنغذى ، بكل قلبٍ دام
وهُم في جحيمهم يتناغون بما في الوجود من أنغام !
عجباً للنفوس ، وهي بواكٍ ، عجباً للقلوب ، وهي دوام
كيف تشدو وفي محاجرها الدمع ، وتلهو ما بين سُودِ الموامي ؟!

* * *

يا رفيقي ! لقد ضللتُ طريقتي ، وتخطتُ محجَّتي أقدامي
خذ بكفي ، فإنني تائهٌ ، أعمى ، كثير الضلال والأوهام
وانفخ النَّاي ، فالحياة ظلامٌ ، ما لمرتاده من الهول حام
ملاء أفاقه فحسبُ الأفاعي ، وعجيبُ الأثام والآلام
فانفخ النَّاي ، إنه هبةُ الأملاك للمستعيزد بالإلهام
واغذذِ السَّير ، فالنهارُ بعيدٌ ، وسبيلُ الحياة جُمُ الظلام ...



نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 12 / 8 / 1928 .

صبيّ الحياة ، الشقيّ العنيدُ ألا قد ضللت الضلال البعيدُ !
أئنشدُ صوتَ الحياة الرخيمَ ، وأنت سجينٌ بهذا الوجودُ ؟!
وتطلب وَرَدَ الصباح المخصَّب من كف حقلٍ ، جديبٍ ، حصيدُ ؟!
إلى الموت ! إن شئتَ هَوْنُ الحياة ، فخلف ظلام الردى ما تريد ..

* * *

إلى الموت يا ابن الحياة التعيسَ ، ففي الموت صوتُ الحياة الرخيم
إلى الموت ؟ إن عدّبتك الدهور ، ففي الموت قلبُ الدهور الرخيم
إلى الموت ! فالموت رُوحٌ جميل ، يرفرف من فوق تلك الغيوم
فروحاً بفجر الخلود البهيج ، وما حوله من بنات النجوم

* * *

إلى الموت ! فالموت جامٌ رويُّ لمن أظمأته سُمومُ الفلاة
ولست براؤ - إذا ما ظمئت - من المنبع العذب قبل الممات
فما السدمع إلا شراب الدهور ، وما الحزن إلا غذاءُ الحياة
إلى لموت ! فالموت مهْدٌ وثير ، تنام بأحضان الكائنات

* * *

إلى الموت ! إن حاصرتك الخطوبُ ، وسدّت عليك سبيل السلام
ففي عالم الموت تنضو الحياة رداءً الأسي ، وقناع الظلام
وتبدو ، كما خلقت غضةً يفيض على وجهها الابتسام
تعيدُ عليها ظلال الخلود ، وتهفو عليها قلوبُ الأنعام

* * *

إلى الموت ! لا تخشى أعماقه ففيها ضياء السماء الوديع
وفيهاتميس عذارى السماء ، عواري ، ينشدن لحناً بديع ...

وفي راحهنَّ غصونُ النخيلِ يحرِّكُنَّها في فضاءٍ يَضوع ...
تضيءُ به بسماة القلوب، وتخبو به حسرات الدموع

* * *

هو الموت طيفُ الخلودِ الجميلُ، ونصف الحياة الذي لا ينوخ
هنالك ... خلف الفضاء البعيد، يعيش المنونُ القويُّ الصَّبُوخُ
يضمُّ القلوب إلى صدره، ليأسو ما مضى منها من جروح
ويبعث فيها ربيعَ الحياة، ويهجهها بالصباح الفَروح



الك عازف اعمى

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 18 / 8 / 1928.

وأدركت فجر الحياة أعمى	وكنت لا تعرف الظلام
فأطبقت حولك الدِّياجي	وغمام من فوقك الغمام
وعشت في وحشة، تقاسي	خسوا طراً، كلهما ضرام
وغربة، ما بهار فيق	وظلمة، ما لها ختام
تشقُّ تية الوجودِ فرداً	قد عضك الفقر والسقام
وطاردت نفسك المآسي	وفر من قلبك السلام

* * *

هوّن على قلبك المعنى	إن كنت لا تبصر النجوم
ولا ترى الغاب، وهو يلغو	وفوقه تخطر الغيوم
ولا ترى الجدول المغنّي	وحوله يرقص الغيم
وكلنا بانس، جدير	برأفة الخسالت العظميم
وكلنا في الحياة أعمى	يسوقه زعزع عقيم
وحوله تزعق المنايا	كأنها جنّة الجحيم:

* * *

مسرّوع ، مـاؤه سـراب
عواطف الشوك والتراب
لا يبصر الهول والمصاب
تذوب في وقدة العذاب
فيها بألحانك العذاب
من آهة الناي والرّباب

يا صاح ! إن الحياة قفرٌ
لا يجتنى الطّرفُ منه إلّا
وأسعد الناس فيه أعمى
ولا يرى أنفَسَ البرايا
فاحمد إله الحياة ، واقنع
وعش ، كما شاءت الليالي



صوت نائه

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 20 / 8 / 1928

في الكائنات ، معدّياً ، مهموما
ووجدت فردوسَ الزمان جحيما
مشبوبة ، تذرّ الجبال هشيما
إلا شراباً ، آجناً ، مسموما
إلا سكوناً ، مُتعباً محموما
وتموتُ أشواقُ النفوس وُجوما
إلا أنيناً ، دامياً ، مكلوما
ويصيرُ أفراح الحياة هموما

قَصَّيتُ أذوارَ الحياة ، مفكِّراً
فوجدتُ أعراسَ الوجود مآثماً
تدوي مخارمه بضجّة صرير ،
وحضرتُ مائدة الحياة فلم أجد
ونفضتُ أعماق الفضاء ، فلم أجد
تبخّرُ الأعماق في جنباتِه
ولمست أوتار الدهور ، فلم تُفض
يتلو أقاصيص التعاسة والأسى

* * *

ما كان يوماً واجماً ، مغموما
شردتُ عن وطني الجميل ... ، أنا الشقي ، فعشت مشطورَ الفؤاد ، يتما ...
أشواقها تقضي ، عطاشاً ، هيماً ...
في الناس يحيا ، سائماً ، مستوما
فيها يُروغُ راحلاً ومقيماً
ليدسّه تحت التراب رميماً

شردتُ عن وطني السماوي الذي
شردتُ عن وطني الجميل ... ، أنا الشقي ، فعشت مشطورَ الفؤاد ، يتما ...
في غربّة ، روحية ، ملعونة
يا غربّة الروح المفكّر ! إنه
شردتُ للدنيا .. ، وكلّ نائفة
يدعو الحياة ، فلا يُجيبُ سوى الرّدى

وتظلل سائرةً، كأنَّ فقيدها ما كان يوماً صاحباً وحميماً!

* * *

يا أيها الساري! لقد طال السرى حتامَ ترقب في الظلام نجوماً..؟

أتخالُ في الوادي البعيد المُرَجَّى؟ هيهات! لن تلقى هناك مَرُوماً

سراً ما استطعت، فسوف تُلْفِي - مثلها خلفت - تمشوق الغصون حطياً



قبضة من ضباب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 20/10/1928.

مهما تأملت الحياة، وجبت مجهلها الرهيب
ونظرت حولي، لم أجد إلا شكوك المستريب
حتى دَهَشْتُ، وما أفدت بدهشتي رأياً مصيب
لكنني أجهدتُ نفسي، وهي بادية اللغوب
ودفعتُها وهي الهزيلةُ في مغالبة الكروب
في مَهْمَةٍ متقلِّب، تُخَشِي غوائله، جديب
فإذا أصابت من مناهله شرباً تستطيب
أروت جوانحها وذلك حسبها كَيْباً تَووب
ومن ارتوى في هذه الدنيا تسنمها خطيب؟
أولا فقد ركبت من الأيام مركبها العصب
رقضت كما شاء الخلود، وفي جوانحها اللهب!



في ظلال الغاب

او: نشيد الآسى

نظمها الشاعر بتاريخ 28/10/1928.

يا ليت شعري! هل ليل النفس من صبح قريب..

فتفرُّ عاصفةُ الظلام .. وتهجع الريح الغضوب ..
ويرتُّل الإنسانُ أغنيةً مع الدنيا طروب ..؟!!

* * *

ما للرياح تهبُّ في الدنيا، ويدركها اللغوب
إلا رباحي، فهي جامحةٌ تمرُّدها عاصيب؟
مالي تعدُّبني الحياةُ كأنني خلقُ غريب؟
وتهدُّ من قلبي الجميل، فهل لقلبي من ذنوب؟
وإذا سألتُ: لم الوجودُ، وكلُّه همٌّ مذيّب؟
قالتُ: «نواميسُ السماءِ قضتُ وما لك من هروب»
آه على قلبي! وإن شقيتُ كشقوتهِ قلبوب
أنقى من الموجِ الوضيءِ ... ومن نشيدِ العندليب
لم تقترفِ إثمَ الحياةِ وكان مأواها اللهب

* * *

يا مهجة الغابِ الجميلِ ألم صدعك النحيب؟
يا وجنة السوردِ الأنيقِ ألم تشوهك النُّدوب؟
يا جدولَ الوادي الطروبِ ألم يرتقك القطوب؟
يا غيمةَ الأفقِ الخضيبِ ألم تمزقك الخطوب؟
يا كوكبَ الشفقِ الضحوكِ أما ألم بك الشحوب؟
ها أنتَ ذا في الأفقِ تضحك لا تهمُّ ولا تخيب!
تلقني على قُننِ الجبالِ رداءً لألاءِ قشيب
لتنام أوراदِ الجبالِ الشَّمِّ، في مهده عجيب
ولكبي تغنيك الجدولُ لحنها العذبِ الحبيب
وترى جمالك من بناتِ الغابِ معطارٍ لعبوب
معشوقة في فرعها تاجُ من السوردِ الخضيب
تتلو أناشيدَ الربيعِ كأنها نجوی القلبوب

يا كوكبَ الشفقِ الجميلِ ! وأنتَ مبتَهَلُ الكئيبِ
لُجُجٍ في السماء... وغنَّ أبناءَ الشقاوةِ والخطوبِ
أنشودةَ تَهَبُّ العزاءَ لكلِّ مبتئسٍ غريبِ
فالطيرُ قد أغفَتْ وأسكت صوتها الليلُ الهيبُ
وابسط جناحَكَ في الوجودِ... فإتته عذبُ خلوبِ
متألقُ بينَ النجومِ كأنه حلْمُ طروبِ
وانشر ضيائك ساطعاً لينسيرَ أعماقَ القلوبِ
فعلَى جوانبها من الأحزانِ ديجور رهيبِ

* * *

ما للمياهِ نقيّة حـولي، ونبـوعـي مشوب؟
ما للصبحِ يعـودُ للـدنيا، وصبـحـي لا يـؤوب؟
ما لي يـضيق بي الـوجودُ، وكلُّ ما حـولي رحيب؟
ما لي وجمـتُ، وكلُّ ما في الغـابِ مغـتردُ طـروب؟
ما لي شـقيتُ، وكلُّ ما في الكـونِ أخـاذٌ عجيب؟
في الأرضِ أقـسداً الربيـعِ تلامـسُ السهـلِ الجـديبِ
فإذا به يـجـيـأ ويـنبـتُ رائـسُ الزهـرِ الرطيـبِ
وهناك أنوار النـهار تـطلُّ من خـلف الغـروبِ
فتخـضب الأمـواج والأفـاق، والجـبل الخـصيبِ
إن الـوجودَ الرحيبَ والغـاباتِ والأفـقَ الخـضيبِ
لم تخـسبُ أشـواق الحـياةِ بهـا، فغادرها القطـوبِ
أمّا أنـا ففـقـدتها والليـلُ مُرَبِّدٌ عـصيبِ
والريـحُ تعـصفُ بالورودِ فعـشتُ سـخريّة الخطـوبِ

* * *

مهـما تـضاحكتِ الحـياةُ فـإنني أبـداً كئيبُ
أصـغـي لأوجـاع الكأبـسة... والكأبـسةُ لا تُجيبُ

في مهجتي تتأوه البلوى ويعتلج النحيب
ويضج جبار الأسى وتجيش أمواج الكرب
إني أنا الروح السذي سيطل في الدنيا غريب
ويعيش مظلماً بأحزان الشبية والمشب



قلنت للشعر

١٥: مناجاة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 28 / 10 / 1928

أنت يا شعر، فلذة من فؤادي
فيك ما في جوانحي من حنين
فيك ما في خواطري من بكاء
فيك ما في مشاعري من وجوم
فيك ما في عوالمي من ظلام
فيك ما في عوالمي من نجوم
فيك ما في عوالمي من ضباب
فيك ما في طفولتي من سلام،
فيك ما في شببتي من حنين،
فيك - إن عانق الربيع فؤادي -
ويغني الصباح أنشودة الحب،
ثم أجنني في صيف أحلامي
فيك يبدو خريف نفسي مملواً،
جللته الحياة بالحزن الددا
فيك يمشي شتاء أيامي البا
وتجف الزهور في قلبي الدا

تنغنى، وقطعة من وجودي
أبدي إلى صميم الوجود
فيك ما في عواظي من نشيد
لا يغني، ومن سرور عهيد
سرمدي، ومن صباح وليد
ضاحكات خلف الغمام الشroud
وسراب، ويقظة، وهجود
وابتسام، وغبطة، وسعود
وشجون، وبهجة، وجمود
تثنى سنانيلي وورودي
على مسمع الشباب السعيد
الساحر مالذ من ثمار الخلود
شاحب اللون، عاري الأملود
مي وغشته بالغيوم السود
كي، وترغي صواعقي ورعودي
جي، وتهوي إلى قرار بعيد ...

أنت يا شعر قصة عن حياتي
 أنت يا شعر - إن فرحتُ - أغار يدي
 أنت يا شعر كأسُ خميرٍ عجيبٍ
 أتحسّاه في الصباح، لأنسى
 وأناجيّه في المساء، ليلهيني
 أنا لولاك لم أطق عنتَ الدهر،
 أنت ما نلتُ من كهوف الليالي
 فيك ما في الوجود من حلك، دا
 فيك ما في الوجود من نغم،
 فيك ما في الوجود من جبل، وغير،
 فيك ما في الوجود من حسيك، يُذمي،
 فيك ما في الوجود...، حَبَّ بنو الأرض قصيدي،
 فسواءً على الطيور - إذا غنّنت - هُتافُ السُّؤوم والمستعيد
 وسواءً على النجوم - إذا لاحت - سكونُ الدجى وقصفُ الرعود
 وسواءً على النسيم أفي القفر تَغَنَّى، أم بين غصن السورود
 وسواءً على السورود، أفي الغيران فاحت، أم بين نهدي وجيد



قوائد عام 1929

وعددها ست قوائد:

- يا ابن أمي.
- إلى قلبي التائه.
- يا موت.
- أغاني التائه.
- أكثرت يا قلبي فماذا تروم؟
- إلى الله.

يا ابن امي

نظم الشاعر قصيدته هذه بتاريخ 20 / 2 / 1929 .

خُلِقْتَ طليقاً كضيفِ النسيم
تغرد كالطير أين اندفعت
وتمرحُ بين ورود ... الصباح
وتمشي كما شئت بين المروج
وجراً كنورِ الضحى في سماه
وتشدو بما شاء وحيُّ الإله
وتنعّم بالنورِ أنى ... تراه
وتقطّف وردَ الربى في رُباه

* * *

كذا صاغك الله يا ابن الوجود
فما لك ترضى بذلّ ... القيود
وتُسكّت في النفس صوت الحياة
وتطبّق أجفانك النيرات ...
وتقنعُ بالعيش بين الكهوف
أتخشى نشيدَ السماء الجميل ؟
ألا انهض وسر في سبيل الحياة
ولا تخشّ مما وراء القلاع
وإلا ربيعُ الوجودِ الغريّر .. ،
وإلا أريجُ زهورِ الصباح
وإلا حمامُ المروجِ الأنيقِ
إلى النور فالنور عذب جميل

وأقتك في الكون هذي الحياه
وتخني لمن كبلوك الجباه ؟!
القويّ إذا ما تغنّى صده
عن الفجرِ والفجرُ عذبُ ضياه
فأين النشيدُ ؟ وأين الأياه ؟
أترهب نور السما في ضحاه
فمن نام لم تنتظره الحياه !!
فما ثمّ إلا الضحى في صباه
يطرّزُ بالورد ضافي رده !
ورقص الأشعة بين المياه !!
يغرّد منطلقاً في غناه !
إلى النور فالنور ظلّ الإله !



اغاني النائه

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 27 / 3 / 1929 .

كان في قلبي فجرٌ ونجوم
وبحارٌ لا تغشّيها الغيوم

وأنا شيد وأطياراً تحوم
 كان في قلبي صباح وإياه
 وربيعٌ مشرقٌ حلوٌ جميل
 آه ما أهول إعصار الحياه
 وابتسامات ولكن وأساءة!
 آه ما أشقى قلوب الناس آه!

كان في قلبي فجرٌ ونجوم
 فإذا الكُلُّ ظلامٌ وسديم
 كان في قلبي فجرٌ ونجوم

يا ابن أمي! أتري أين الصباح؟
 وطغى الوادي بمشبوب النواخ
 وقد تقضى العمرُ والفجرُ بعيد
 أين نايي؟ هل ترامته الرياح؟
 وانقضت أنشودة الفصل السعيد
 أين غابي، أين محراب السجود؟
 خبروا قلبي فما أقسى الجراح
 كيف طارت نشوة العيش الحميد؟

يا ابن أمي! تری أين الصباح ..؟
 وراء البحر؟ أم خلف الوجود ..؟
 يا ابن أمي! تری أين الصباح ..؟

ليت شعري هل ستسليني الغداة
 وتريني أن أفراح الحياة
 وتعزيني عن أمس الفقيذ
 زمراً تمضي وأفواج تعود
 فإذا أحلامي الأولى وروذ
 وإذا الشحرور حلوا النغماث
 وإذا الغاب ضياءً ونشيد؟

ليت شعري هل ستسليني الغداة؟
 أم ستسساني وتبقيني وحيداً؟
 ليت شعري هل تعزيني الغداة؟



الى قلبي النائه

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 20 / 4 / 1929 .

ما لآفاقك ينا قلبي سوداً، حالكات؟

ولأورادك بين الشوك صفرأ، ذاويات ؟
 ولأطيارك لا تلغو؟ فأين السنغمات ؟
 ما لمزممارك لا يشدو بغير الشهقات ؟
 ولأوتومارك لا تخفلق إلا شساكيات
 ولأنغامك لا تنطق إلا باكيات
 ولقد كانت صباح الأمس بين النسفات
 كعذارى الغاب، لا تعرف غير البسفات ؟
 هوذا يا قلبي البحر، وأمواج الحياة !
 هوذا القارب مشدوداً إلى تلك الصفاة !
 هوذا الشاطئ ! لكن أين ربأئك ؟ مات !
 أين أحلامك يا قلبي ؟ لقد فات الفوات !
 تلك أطيارٌ، أنيقاتٌ، طرابٌ، فرحات
 غردتٌ، ثم توارت في غيابات الحياة

* * *

أنت يا قلبي قلبٌ، أنضجت الزفرات
 أنت يا قلبي عشٌ، نفرت عنه القطاة
 فأطارتته إلى النهسر الرياح العاتيات
 فهو في التيار أوراق، وأعواد عرارة
 أنت حقلٌ، مجذبٌ، قد هزئت منه الرعاة
 أنت ليلٌ، مغتيمٌ، تندب فيه الباكيات
 أنت كهفٌ، مظلمٌ، تأوي إليه البائسات
 أنت صرْحٌ، شاده الحب على نهر الحياة
 لبنات الشعر ..، لكن قوضته الحادثات
 أنت قبرٌ، فيه من أيامي الأولى رفات
 أنت عودٌ، مزقت أوتارَه كفف الحياة

فهو في وحشته الخرساء ، بين الكائنات
صامتٌ كالقبر ، إلا من أنين الذكريات
أنت لحنٌ ساحرٌ ، يخبط في التيه الموات
أنت أنشودةٌ فجبر .. رتلتها الظلمات ..

* * *

أيها الساري مع الظلمة ، في غير أناة
مطرقاً ، يخبط في الصحراء ، مكبوح الشكاة
تُهت في الدنيا ، وما أبست بغير الحسرات
صل يا قلبي إلى الله ، فإن الموات آت
صل فالنازع لا تبقي له غير الصلاة



أكثرن يا قلبي فماذا نروح ؟

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 20/7/1929 ، والقصيدة مليئة بعبارات الشكوى وهو يتحرى الخلاص دون العثور عليه.

يا قلبي السدامي ! إلام الوجوم ؟
يكفيك ! إن الحزن فظ ، غشوم
هذي كؤوسي مُرّة ، كالردي
ما ملؤها إلا عَصير الهموم
وذاك نسايب صامت ، واجم
يُصغى إلى صوت الغرام القديم
يا قلبي البساكي إلام البكوى ؟
ما في فضاء الكون شيء يبدوم
فانثر غبار الحزن فوق الدجى
واسمع إلى صوت الشباب الرخيم

وانقُزْ عـلى دَفِّ الهـوى الحنـه
وارقـص مع النـور، السـضحوك الوسـيم
يا قلبـي السـداجي! إلام الـوجـوم؟
إن لم أُمُّ قلبـي فَمَنْ ذَا أَلـوم؟
مالـك لا تـصغي لـغـير الأـسى؟
مالـك لا تـزُنُّ ولـغـير الكـلـوم؟
مالـك قـد أصـبـحت لا تـصـرف الأيـام
إلا في شـعـاب الجـحـيم؟
أما تـر البـلبـل في غـابـه
يـشـدو وفـوق الغـاب تـخـطـو النـجـوم؟
أما تـرى الأـسـحـار تـبـدو بهـا الغـابـات
كـالأحـلام - خـلُـفَ السـسـيم
أما تـرى الآمـال في سـحـرـها؟
أما تـرى الـليـل يـنـاغـي النـجـوم؟

* * *

يا قلبـي السـداجي! إلام الـوجـوم؟
أكثـرت يا قلبـي، فـما ذَا تـروم؟
هـل تـحـسبُ الأيـام في زَخـفـهـا
تـرثـي لـمن قـد هـدَمْتـه الرـجـوم،
كـلا! فـإن الـدـهر يـمـضي ولا
يـلـوي عـلى ما خـلـفـه مـن كـلـيم
والـسـيمُّ لا يـرثـي لـمن طَمَّـه
والـسـيل لا يـبـكي لـنـوح الـهـشـيم
والعـاصـف الجبَّـار في سـخـطـه
لا يـرحـم الغـصـن، الرـشـيق، القـويم

هـنـدي هـي الـدنـيا فـهـاذا الـأسـى
يا قـلبـي الـسـدامـي، وـمـاذا الـوجـوم؟



ياموت

نظم الشاعر هذه القصيدة في بداية الشهر العام 1929 وهي صرخة من صرخات نفس الشاعر المملوءة بالأحزان والذكريات وشظية من شظايا قلبه المحطم على صخور الحياة، قالها في أيام الأسى التي تلت نكبته بوفاة والده.

ياموت! قد مزقت صدري

وقصنت بالأرزاء ظهري
ورميتني من حالي، وسخرت مني أي سخر
فلبثت مرضوض الفؤاد اجبرُّ أجنحتي بدُعر...
وقسوت إذ أبقيتني في الكون أذرع كلِّ وغر
وفجعتني فيمن أحب، ومن إليه أبتُّ سري
وأعدّه، فجري الجميل، إذا ادلهممَّ عليَّ دهري
وأعدّه، وزدي، ومزمماري، وكاساتي، وخمري
وأعدّه، غابي، ومحرابي، وأغنيتي، وفجري...
ورزأتني في عمدي، ومشورتي في كل أمر
وهدمت صرحاً، لألـوذ بغيره، وهتكت سرتي
ففقدتُ روحاً، طاهراً، شهماً، يجيش بكل خير
وفقدتُ قلباً، همُّه أن يستوي في الأفق بسدري
وفقدتُ كفياً، في الحياة صُدُّ عنِّي كل شر
وفقدتُ وجهاً، لا يُعبّسه سوى حزني وُضري
وفقدتُ نفساً، لا تنسي عن صون أفراسي وبشري
وفقدتُ رُكني في الحياة، ورايتني، وعماد قصري

وقصمت بالأرزاء ظهري
ياموت! ماذا تبغني مني وقد مزقت صدري؟
ماذا تودُّ، وأنت قد سودت بالأحزان فكري
وتركتني في الكائنات أئسُّ، منفرداً بإضري
وأجوبُ صحراء الحياة، أقول: «أين تُراه قبري؟»
ماذا تودُّ من المعذب في الوجود بغير وزر؟
ماذا تودُّ من الشقيِّ بعيشه، النكيد، المضر؟
إن كنت تطلبني فهات الكأس، أشربها بصبر
أو كنت ترقبني فهات السهم، أرشقه بنحري
خذني إليك، فقد تبخَّرَ في فضاء الهمِّ عمري ...
وتهدلت أغصانُ أيامي، بلا ثمير وزهر
وتناثرت أوراق أحلامي على حسك الممر ...
خذني إليك! فقد ظمئتُ لكأسك، الكدير، الأمر ...
خذني فقد أصبحت أرقبُ في فضاء الجون فجري
خذني، فما أشقى الذي يقضي الحياة بمثل أمري ...

* * *

ياموت! قد مزقت صدري

وقصمت بالأرزاء ظهري
ياموت! قد شاع الفؤاد، وأففرت عرصات صدري
وغدوت أمشي مطرقاً من طول ما أثقلت فكري
ياموت! نفسي ملئت الدنيا، فهل لم يأت دوري



إلى الله

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 29/10/1929 ونفسه متشحة بلهب آلامها الحزينة الدامية.

يا إله الوجود! هذي جراح
هذه زفرة يصعدها الهَمُّ
هذه مهجة الشقاء تناجيك
أنتَ أنزلتني إلى ظلمة الأرض
كالشعاع الجميل، أسبَحُ في الأفق
وأغنى بين النياييع للفجر
أنتَ أوصلتني إلى سبل الدنيا
ثم خلقتني وحيداً، فريداً
أنتَ أوفقتني على جُنة الحزن
أنتَ أنشأتني غريباً بنفسي
أنتَ كرهتني الحياة وما فيها
أنتَ جَبَلتَ بين جنبي قلباً
عقريّ الأسى: تعذّب به الدنيا
أنتَ عدّبتني بدقة حسّي
بالأسى، بالسقام، بالهم، بالوحشة، باليأس، بالشقا المتناهي
بالمنايا تغتال أشهى أمانيّ
فذا من أحب حفنة تُرَب
وإذا فتنة الحياة وسحر الكون
يتلاشى فوق الخضم: ويبقى اليمُّ - كالعهد مُزِيدَ الأمواه ...

* * *

يا إله الوجود! مالك لا ترثني
لحزن المعذب الأواه

قد تأوّهتُ في سكون الليالي ثم أطبقتُ في الصباح شفاهي
وتغزّلتُ بالحياة، وبالحبِّ، وغنّيتُ كالسعيد اللاهي
وزرعتُ الأحلام في قلبي الدامي، وحوّطتها بكل انتباهي
ثم لما حصدت لم أجن إلا الشوك، ماذا تُرى فعلتُ؟ إلهي!

* * *

يا رياح الوجود! سيري بعنفٍ وتغنّي بصوتك الأواه
وانفحيني من روحك الفخم ما يُبلغُ صوتي أذانَ هذا الإله
فهو يُصغي إلى القوي، ولا يُصغي لصوتِ بين العواصف واه
وانثري الوردَ للثلوج بداداً واصعقي كلّ بلبل تيّاه
فالوجود الشقي غير جدير بالأغاني، وبالجمال الزاهي
واسحقي الكائنات كزناً بكونٍ، قبل أن تنتهي أذلّ تناه
فالإله العظيم لم يخلق الدنيا سوى للفناء تحت الدواهي

* * *

يا ضمير الوجود! يا عالم الأرواح! يا أيها الفضاء الساهي!
يا خضمّ الحياة، يزخر في الأفاق في التراب، في قرار المياه!
خبروني، هل للورى من إله، راحم - مثل زعمهم - أو اه
يخلق الناسَ باسماء، ويواسيهم، ويرنو لهم بعطف إلهي
ويرى في وجودهم روحه السامي، وآيات فنّه المتناهي
إنني لم أجد في هاته الدنيا، فهل خلف أفقها من إله؟!

* * *

ما الذي قد أتيت يا قلبي الباكي؟! وماذا قد قلته يا شفاهي
يا إلهي! قد أنطق الهَمُّ قلبي بالذي كان...، فاغفر يا إلهي!
قدّم اليأس والكآبة داست قلبي المتعب، الغريب، الواهي

فتشظي، وتلك بعضُ شظاياها ..، فسامخ فنوطه المتناهي
فهو ياربُّ معبُدُ الحقِّ، والإيمانِ والنورِ والنقاءِ الإلهي
وهو نايُّ الجمالِ، والحبِّ، والأحلامِ، لكن قد حطَّمته الدواهي



قصائده عام 1930

وعددتها ثمانى قصائد:

- الأبد الصغير.
- الجمال المنشود.
- يا حماة الدين.
- الأشواق التائهة.
- النبي المجهول.
- صفحة من كتاب الدموع.
- طريق الهاوية.
- شجون.

النبى المجهول

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 1930 / 1 / 20

أيتها الشعبُ ! ليتني كنتُ حطاً
ليتني كنتُ كالسيول إذا سا
ليتني كنتُ كالرياح فأطوي
ليتني كنتُ كالشتاءِ أغشيَّ
ليت لي قوَّة العواصف يا شعـ
ليت لي قوَّة الأعاصير إن ضجَّـ
ليت لي قوَّة الأعاصير! .. لكن
أنتَ روحٌ غيبية تكره النو
أنتَ لا تُدركُ الحقائق إن طافـ

* * *

في صباح الحياة ضمختُ اكوا
ثمَّ قدمتُها إليك فأهرقـ
فتألمتُ ... ثمَّ أسكتُ آلا
ثمَّ نضدتُ من أزاهير قلبي
ثمَّ قدمتُها إليك فمزقـ
ثمَّ ألبستني من الحزن ثوباً

* * *

ها أنا ذاهبٌ إلى الغاب يا شعـ
ها أنا ذاهبٌ إلى الغاب عليَّ
ثم أنساك ما استطعتُ فما أنـ
سوف أتلو على الطيور أناشيـ

سبي لأقضي الحياة وحدي بيأس⁽¹⁾
في صميم الغابات أدفنُ بؤسي
تت بأهلٍ لخمرتي ولكأسي
سدي وأقضي لها بأشواق نفسي

(1) هاأنا: في الديوان إنني أليتة والبيت الذي تلاه.

فهني تدري معنى الحياة وتدري
ثم أقضي هناك في ظلمة الليـ
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـ
وتظلل الطيورُ تلغو على قبـ
وتظلل الفصولُ تمشي حوالِيَّ

* * *

أنَّ مجدَ النفوس يقظةٌ حسَّ !
لل وألقى إلى الوجود بيأسِي
و تخُطَّ السيولُ حفرةَ رمسي
ري ويشدو النسيمُ فوقِي همس
كما كنَّ في غضارة أمس

* * *

أيها الشعبُ ! أنتَ طفلٌ صغيرٌ
أنتَ في الكون قوة لم تُسْئِها
أنتَ في الكون قوَّة كَبَلْتها
والشقيُّ الشقيُّ من كان مثلي

* * *

هكذا قال شاعرٌ ناول النا
فأشاحوا عنها ، ومروا غَضاباً
« قد أضاعَ الرشادُ في ملعب الجنِّ
« طالما خاطب العواطف في الليل
« طالما رافقَ الظلامَ إلى الغا
« طالما حدَّثَ الشياطينَ في الوا
« إنه ساحرٌ تعلَّمه السح
« فابعدوا الكافرَ الخبيثَ عن الهيكل ،
« اطرُدوه ، ولا تُصيخوا إليه

* * *

هكذا قال شاعرٌ فيلسوفٌ
جهلَ الناسَ روحه وأغانيه
فهو في مذهب الحياة نبيُّ

* * *

لاعبٌ بالتراب والليل مُغسي !
فكرة عبقرِيَّة ذاتُ بأس !
ظَلَّمت العصور من أمس أمس
في حساسيتي ورقَّة نفسي !

* * *

س رحيقَ الحياة في خير كأس
واستخفوا به وقالوا بيأس :
« فيا بؤسَه أصيبَ بمسَّ ! »
وناجى الأموات في غير رمس
ب ونادى الأرواح من كلِّ جنس
دي وغنَّى مع الرياح بجرس
رَ الشياطينُ كلَّ مطلع شمس
« إنَّ الخبيثَ منبعُ رجس
فهو روحُ شريعة ذاتُ نحس !

* * *

عاش في شعبه الغبيِّ بتعس
ها ، فساموا شعوره سَومَ بخس
وهو في شعبه مصابُّ بمسَّ !

ب، ليحيا حياة شعيرٍ و قدس

هكذا قال .. ، ثم سار إلى الغا

* * *

ب الذي لا يُظَلِّه أيُّ بؤس

وبعيداً هناك في معبد الغا

تَوْن يقضي الحياة : حرساً بحرس

في ظلال الصنوبر الخلو والزيب

ير ، ويمشي في نشوة المتحمسي

في الصباح الجميل يشدو مع الط

ورودُ الربيع من كل قنس

نافخاً نايه حوالبه تهتزُّ

حُ - على منكبيه مثلَ الدمقَس

شعره مُرسَل - تداعبه الريب

ه ، وتلغو في الدوح من كل جنس

والطيور الطراب تشدو حوالب

ول يرنو للطائر المتحمسي

وتراه عند الأصيل لدى الجدد

نو إلى سُذفة الظلام الممسي

أو يُغنِّي بين الصنوبر أو ير

ظلماتُ الوجود في الكون تُغسي (1)

فإذا أقبل الظلام وأمسّت

يسأل الكون في خشوع وهمس

كان في كوخه الجميل مُقياً

وصميم الوجود أيان يُرسي ؟

عن مصب الحياة أين مداه ؟ ..

ونشيد الطيور حين تُمسي

وأريج الورد في كلِّ وإد

ورسوم الحياة من أمسِ أمس

وهزيم الرياح في كلِّ فجج

ها سكونُ الفضا ؟ وأيان تُمسي ؟

وأغاني الرعاة أين يوارى

* * *

حلقات السنين : حرساً بحرس

هكذا يصرف الحياة ويُفني

غابِ تُضحى بين الطيور وتُمسي !

يا لها من معيشة في صميم الـ

سها نفوسُ الوري بخبثٍ ورجسٍ

يا لها من معيشة لم تدنَّ

ن حياة غريبة ذاتُ قدسٍ

يا لها من معيشة هي في الكو



الابن الصغير

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/2/1930.

يا قلبُ ! كم فيكَ من دنيا محجَّبةِ
يا قلب ! كم فيكَ من كونٍ قد اتَّقدت
يا قلبُ ! كم فيكَ من أفقٍ تنمَّقهُ
يا قلبُ ! كم فيكَ من قبرٍ قد انطفأت
يا قلبُ ! كم فيكَ من غابٍ ومن جبلٍ
يا قلبُ ! كم فيكَ من كهفٍ قد انبجست
تمشي ، فتحملُ غصناً مزهراً نضراً
أو نحلةً جرَّها التيارُ مندفعاً
أو طائرًا ساحراً ميتاً ، قد انفجرت
يا قلبُ ! إنَّكَ كَوْنٌ مدهشٌ عجبٌ
كأنَّكَ الأبدُ المجهولُ قد عجزتْ

* * *

يا قلبُ ! كم من مسرَّاتٍ وأخيلةِ
غنت لفجرك صوتاً حالمًا ، فرحاً
وكم رأى ليُّلك الأشباحَ هائمةً
ورفرف الألمُ الدامي بأجنحةِ
وكم مشت فوقك الدنيا بأجمعها
وشيدت حولك الأيامُ أبنيةً

* * *

تمضي الحياةُ بماضيها وحاضرها
وأنت ، أنت الخضمُّ الرحبُ ، لا فرحُ
وتذهبُ الشمسُ والشيطانُ والقمُّ
يبقى على سطحك الطاغِي ، ولا ألمُ

* * *

راقصتها مَرَحاً ما مسك السأم
ومن صباح توشّي ذيله السُدُم
قد مزقتها الليالي وهي تبتسم
طارت بهازعزغ تدوي وتخدم
هذي العوالم والأحلام النظم
بالحور ثم تلاشت واختفى الحلم
وتستجد حياة ما لها قدم
مثل الطبيعة: لا شيب ولا هرم!

يا قلب! كم قد تملّيت الحياة، وكم
وكم توشّحت من ليلٍ ومن شفقٍ
وكم نسجت من الأحلام أريّة
وكم ضفّرت أكاليلاً موردة
وكم رسمت رسوماً لا تشابهها
كأنها ظلّل الفردوس حافلة
تبلو الحياة، فتبليها وتخلعها
وأنت أنت: شباب خالد نضر



صفحة من كتاب الدموع

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 7/6/1930.

غناه الأمس، وأطربه
قد كان له قلب، كالطفل،
مذ كان له ملك في الكون
في جوف الليل، يناجيه
وعلى المضبات، يغنيه
للولاه لما عذبت في الكون
ولما فاضت بالشعر الحيّ مشاعره وقصائده
أفراح الحب، وتنشده
زمرأ في النور، تُراصده
أحلام الحب تغرده
بسمات الحب توادده
وجمال العالم يسعده!
ونجوم الليل تضاحكه!

وشجاء اليوم، فما غده؟
يبد الأحلام تهدمه
جميل الطلعة، يعبده
وأمام الفجر، يمجده
آيات الحب، ويُنشده
ون صادده وموارده
مشاعره وقصائده
تنشده
تُراصده
تغرده
توادده
يسعده!
تضاحكه!

فِرْحاً ، فتعابثه يده ! ..
ونسيمُ الصُّبْحِ يجعده
نسماتُ الغاب تـردده
بين الأشجار تشهد
فيجل . « الحب » ويمده

ويخال السورد يداعبه
ويرى ينبوع ، ونضرتة ،
وخريرُ الماء له نغم
ويرى الأعشاب وقد سمقت
ونطفُ الطفـل تنمُّها

* * *

قلباً في الناس لتكمده
تسقيه الخمر .. ، وتطرده !
كالشهد ، ليسلبها غده !

يا للأيام ! فكتم سرت
هي مثل العاهر ، عاشقها
يعطيك اليوم حلاوتها

* * *

ويضاجعها ، فتوسده
أضناه الحزن ، ونكده
وجذوعُ السرو تسانده
منهم يشجيه تفرده
وبكهف الوحدة مرقده
وخيال الموت يهدده

بالأمس يعانقها فرحاً
واليوم ، يسايرها شبحاً
يتلو في الغاب مرثية
ويماشي الناس ، وما أحد
في ليل الوحشة مسراه
أصوات الأمس تعذبه

* * *

يضيء الأفق تورده
فسما في العالم يسعده
وشجاء اليوم ، فما غده ؟

بالأمس له شفق في الكون
واليوم ، لقد غشا الليل
غناه الأمس وأطربه



إلى عذارى الجمال

(1) الجمال المنشود

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/7/1930.

يا عذارى الجمال ، والحب ، والأحلام ، بل يا بهاء هذا الوجود !

كَلَّلْتُ حَسَنَهَا صِبَاخُ الْوَرُودِ
 بِالنُّورِ، بِالْهَوَى، بِالنَّشِيدِ ..
 فَأَمَّنْ مِنْ سِحْرِ تِلْكَ الْخُدُودِ!
 مِنْ الْوَرْدِ، غَضَّةً، أَمْلُودِ
 فِي نَشْوَةِ الشَّبَابِ السَّعِيدِ
 وَلَكِنْ مَاذَا وَرَاءَ النَّهْودِ؟
 فِي ذَلِكَ الْقَرَارِ الْبَعِيدِ ..؟
 تَشْدُو بِسَاحِرِ التَّغْرِيدِ
 فِي مَوْلِدِ الرِّبِيعِ الْجَدِيدِ؟
 ضَوَاعَةً، كَفَضِّ الْوَرُودِ؟
 وَهَوَلٌ يُشِيبُ قَلْبَ الْوَلِيدِ
 وَالشَّرِّ، وَالظَّلَالِ الْمَدِيدِ؟
 قَاتِلِ رَغْمِ حَسَنِهِ الْمَشْهُودِ
 وَمِنْ ضَلَّةِ الضَّمِيرِ الْمُرِيدِ
 سِرْمِدِي الْأَسَى، شَنِيعِ الْخُلُودِ
 وَيَشْقَى بَعِيْشِهِ الْمُنْكَوودِ
 وَيَمِضِي بِحَسَنِهِ الْمَعْبُودِ
 الرُّوحُ غَضًّا عَلَى الزَّمَانِ الْأَبِيدِ

قَدِ رَأَيْنَا الشُّعُورَ مِنْ سِدَلَاتِ
 وَرَأَيْنَ الْجَفُونَ تَبْسُمُ ..، أَوْ تَحْلِمُ
 وَرَأَيْنَا الْخُدُودَ، ضَرَّجَهَا السُّخْرُ،
 وَرَأَيْنَا الشَّفَاةَ تَبْسُمُ عَنِ دُنْيَا
 وَرَأَيْنَا النَّهْودَ تَهْتَزُّ، كَالْأَزْهَارِ
 فَتَنَّةً، تَوْقِظُ الْغَرَامَ وَتَذَكِّيهِ،
 مَا الَّذِي خَلَّفَ سِحْرَهَا الْحَالِمَ، السَّكْرَانَ،
 أَنْفُوسَ جَمِيلَةً، كَطَيُورِ الْغَابِ
 طَاهِرَاتٍ، كَأَنَّهَا أَرْجُ الْأَزْهَارِ
 وَقُلُوبٌ مُضِيئَةٌ، كَنَجُومِ اللَّيْلِ
 أَمْ ظِلَامٌ، كَأَنَّهُ قَطَعُ اللَّيْلِ،
 وَخِضْمٌ، يَمُوجُ بِالْإِثْمِ وَالتَّنْكَرِ،
 لَسْتُ أَدْرِي، فَرُبَّ زَهْرٍ شَذِيٍّ
 صَانِكَنَّ الْإِلَهَ مِنْ ظَلْمَةِ الرُّوحِ
 أَنْ لَيْلَ الْنَّفُوسِ لَيْلٌ مُرْبِعٌ
 يَرْزَحُ الْقَلْبَ فِيهِ بِالْأَلْمِ الْمَرِّ،
 وَرَبِيعَ الشَّبَابِ يُدْبِلُهُ الدَّهْرُ،
 غَيْرَ بَاقٍ فِي الْكُونِ إِلَّا جَمَالَ

(2) طريق الهاوية

بَلْ يَا بَهَاءَ هَذَا الْوُجُودِ!
 وَخُلِقْتِنَّ لِلْغَرَامِ السَّعِيدِ
 مَا تُجَلِّينَ مِنْ قُطُوبِ الْوُجُودِ
 مَوْتٌ مُثْقَلٌ بِالْقِيُودِ ...
 إِلَى الْمَوْتِ فِي طَرِيقِ كَوُودِ ...

يَا عَذَارَى الْجَمَالِ، وَالْحُبِّ، وَالْأَحْلَامِ
 خُلِقَ الْبَلْبَلُ الْجَمِيلُ لِيَشْدُو
 وَالْوُجُودُ الرَّحِيبُ كَالْقَبْرِ، لَوْلَا
 وَالْحَيَاةُ الَّتِي تَخْرُهَا الْأَحْلَامُ
 وَالشَّبَابُ الْحَبِيبُ شَيْخُوخَةٌ تَسْعَى

خريفٌ يُذوي ريفَ الورود ...
شوكٌ، مُصْفَحٌ بالحديد ...
عَيْشها في ترنمٍ وغريد؟
عبء الحياة بالتغريد ...
تشظى من كل قلب عميد ...
سَفَقُ الحسن فوق تلك الخُدود

* * *

ولكنه مُخيفُ الورود
وافرُّ الهول، مستراب الصعيد
عبقريٌّ، ما إن له من مزيد
وتُشجِّي جوانح الجلمود
ما بين غامضٍ وشديد
اللواتي تفرشنه بالورود
رائع السحر، ذا جمالٍ فريد
ويقضي على بهاء الوجود
مظلم الأفق ميّت التغريد

والربيعُ الجميلُ في هاته الدنيا
والورودُ العذابُ في ضفّة الجدول
والطيورُ التي تُغني، وتقضي
إنها في الوجود تشكو إلى الأيام
والأناشيد إنها شهقات
صورة للوجود شوهاه، لولا

يا زهور الحياة، للحب أنتنَّ
فسبيلُ الغرام جِسمُ المهاوي
رغم ما فيه من جمالٍ، وفنَّ
وأناشيد، تُسكِرُ المَلَأَ الأعلى،
وأريج، يكاد يذهب بالألباب
وسبيلُ الحياة رُحْبٌ، وأنتنَّ
إن أردتُنَّ أن يكون بهيجاً
أوبشوكٍ، يُدمي الفضيلةَ والحبَّ
إن أردتُنَّ أن يكون شنيعاً،



يا حماة الدين

نظم الشاعر هذه القصيدة، وكتب التاريخ بخط الشاعر 16 جمادى الأولى 134 هـ
ولم أجد هذه القصيدة إلا في الديوان، وأعتقد أنها بتاريخ 1349 هـ.

لقد نام أهل العلم نوماً مغنطساً
ولكن صوتاً صارخاً، متصاعداً
سيوقظُ منهم كل من هو نائمٌ
فلم يسمعوا ما ردّدته العوالمُ
من الروح يدري كنهه المتصائمُ
ويُنطقُ منهم كل من هو واجمٌ

* * *

ونتمم بملء الجفن ، والسيلُ داهم
 علائكمُ كفرٍ ثائرٍ ومعالم
 تضحُّ ، وهال إنَّ الفضاء مآثم
 ولاحت لآلاءِ الصباح علائم
 هي الموت ، مما أورثته التمام
 تقدُّ قوام الدين ، والدينُ قائم
 ولا تُحجموا ، فالوُتُّ في الجبن جائمُ
 تبرقت الشرّ الذي لا يقاومُ
 أثاروا على الإسلام من قد يهاجم
 سوى مصنع فيه تُصاغُ السخائم
 على دينه ، إن داهمته العظام
 يُصوبها نحو الديانة ظالم

سكتكم حماة الدين ! سكتة واجم
 سكتكم وقد شتمتم ظلاماً غضونه
 مواكب الحادٍ وراء سكوتهكم
 أفيقوا فليلُ النوم ولئى شبابه
 فدون ضجيج الفاسقين سكيئةُ
 عوائد تحيي في البلاد نوابيا
 أفيقوا وهبوا هبةً ضيغميةً
 فدون نقاب الصمت تنمو ملامح
 فقدفت في زناد الديانة معشرُ
 فوالحق ، ما هذي الزوايا وأهلها
 لحى الله من لم تستثره حميةً
 لحى الله قوماً ، لم يبالوا بأسهم



شجون

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 28/10/1930 ، وهي تجربة ترفد بالتأمل وإن كانت
 معاناة مخضبة بالتشاؤم وقد حاول الشاعر فيها فهم الكون وفهم نفسه .

عجباً لي ! أودُّ أن أفهمَ الكونَ ،
 لم أفيدُ من حقائق الكون إلاّ
 كلَّ دهرٍ يُمرُّ فيجمع قلبي
 في ظلام الكهوف أشباحِ شؤمٍ
 وخلال القصور أنأتُ حُزني
 والقضاء الأصمُّ يعتسف النـ

ونفسي لم تستطع فهم نفسي !
 أنني في الوجود مُرتادُ رمس
 لبت شعري ! أين الزمان المؤسّي
 وبهذا الفضاء أطيافُ نحس
 وتلك الأكواخ أنضاء بؤس !
 ساسٍ ويقضي ما بين سيف وقوس !

* * *

هذه صورة الحياة وهذا
 لوئها في الوجود ، من أمس أمس

صورةٌ للشقاء دامعة الطرف ولونٌ يسودُّ في كل طرس



الإشواق النائية

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 26/12/1930.

يا صميمَ الحياةِ إني وحيد
يا صميمَ الحياةِ إني فؤاد
يا صميمَ الحياةِ قد وجمَ الناي
يا صميمَ الحياةِ أينَ أغانيكِ
مسدِّجٌ تائهٌ فأينَ شروقكُ؟
ضائعٌ ظامئٌ فأينَ رحيقكُ؟
وغامِ الفضا فأينَ بروقكُ؟
فتحتَ النجومِ يُصغي مشوقكُ؟

* * *

كنتُ في فجرِك الموشح بالأحلام
حالمًا ينهل الضياء ويُصغي
ثم جاء الدجى فأمسيتُ أوراقاً
وضباباً من الشذى يتلاشى
كنتُ في فجرِك المغلفِ بالسحرِ
وسحاباً من الرؤى يتهادى
وضياءُ يُعانتُ العالمَ الرحبَ
وانقضى الفجرُ ، فأنحدرتُ من الأفقِ
عطراً يرفُّ فوقَ ورودكُ
لك في نشوةٍ بوحىٍ نشيدكُ
بداداً من ذابلاتِ الوردِ
بينَ هولِ الدُّجى وصمتِ الوجودِ
فضاءً من النشيدِ الهادي
في ضميرِ الآزالِ والأبـادِ
ويَسري في كلِّ خافٍ وبادي
تراباً إلى صميمِ الوادي

* * *

يا صميمَ الحياةِ كمَ أنا في الدنيا
بين قومٍ لا يفهمون أناشيدَ
في وجودٍ مكبَّلٍ بقيودِ
فاحتضني وضمَّني لكِ كالماضِ
غريبٌ أشقى بغربةٍ نفسي
فؤادي ولا معاني بؤسي
تائهٌ في ظلامِ شكِّ ونحسِ
في فهذا الوجودُ علَّةٌ يأسِي

* * *

لم أجسد في الوجود إلا شقاءً
وأماناً يُغرقُ الدمعُ أحلامها
وأناشيداً يأكلُ اللهبُ الدامي
ووروداً تموتُ في قبضةِ الأشـ
سر مدياً ولذذةً مضمحلةً
ويُفني يَمُّ الزمان صداها
مسرّاتها ويُبقي أساها
سواك... ما هذه الحياة المملنة

* * *

سأّم هذه الحياة معاداً
ليتني لم أفسد إلى هذه الدنيا
ليتني لم يُعانيق الفجرُ أحلامي
ليتني لم أزل كما كنتُ ضوئاً
وصباحٌ يكرُّ في إثر ليلى
ولم تسبح الكواكبُ حولي
ولم يلمس الضياءُ جفوني
شائعاً في الوجود غير سجين



قصائد عام 1931

وعدها إحدى عشرة قصيدة:

- أحلام شاعر أو أمل شاعر.
- حيرة أو؟
- أنا أبكيك للحب.
- صلوات في هيكل الحب.
- فكرة الفنان.
- قلب الأم.
- قيود الأحلام.
- رثاء فجر.
- أبناء الشيطان.
- أراك.
- سر النهوض.

احلام شاعر

١٥ : امل الشاعر

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 4/4/1931، والقصيدة من نوع الحلم الرومانسي الماثور الذي يعني التفرد والاعتزال بين أحضان الطبيعة ابتعاداً عن أذى البشر وشرورهم.

ليت لي أن أعيش في هذه الدنـ
أصرفُ العمرَ في الجبالِ وفي الغـ
ليس لي من شواغلِ العيشِ ما يصـ
أرقب الموت والحياة وأصغي
وأغني مع البلبـلِ في الغابِ
وأناجي النجومَ والفجرَ والأطـ
عيشةً للجمالِ والفنِّ أبغيـ
لا أعني نفسي بأحزانِ شعبي
وبحسبي من الأسى ما بنفسي
وبعيداً عن المدينة والنـ
فهو من معدنِ السخافةِ والإفـ
أين هو من خريـرِ ساقيةِ الوادي
وحفيفُ الغصونِ نمقها الطـ
هذه عيشةٌ تُقدِّسها نفسي

يا سعيداً بوحدتي وانفرادي
باتِ وبينَ الصنوبرِ الميادِ
عرفُ نفسي عن استماعِ فؤادي
لحديث الأزالِ والآبـادي
وأصغي إلى خريـرِ الوادي
يارَ والنهرَ والضياءَ الهادي
ها بعيداً عن أمتي وبلادي
فهو حيٌّ يعيش عيشَ الجهادِ
من طريفِ مُستحدِّثِ وتلادِ
س بعيداً عن لغو تلك النوادي
ك، ومن ذلك الهراء العادي
وخفق الصدى وشدو الشادي
لُ وهنسُ النسيمِ للأورادِ
وأدعو لمجديها وأنادي



قيود الاحلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24/6/1931.

وأودُّ أن أحيـا بفكرة شاعر
إلا إذا قطعتُ أسبابي مع الدنيا
فأرى الوجودَ يضيـق عن أحلامي
وعشتُ لوحدتي وظلامي

في الغاب ، في الجبل البعيد عن الوري
وأعيشُ عيشةً زاهِدٍ مُتَنَسِّكٍ
هَجَرَ الجماعةَ للجبال ، توَرُّعاً
تمشي حوالينه الحياة كأنها
وتخَرُّ أمواج الزمان بهيبةٍ
فأعيش في غايي حياةً ، كلها
لكنني لا أستطيع ، فإن لي
وصغارَ إخوانٍ ، يرون سلامهم
فقدوا الأب الحاني ، فكنتُ لضعفهم
ويقيهم وهَجَّ الحياة ، ولفحها
فأنا المكبَّلُ في سلاسل ، حيةً ،
وأنا الذي سكنَ المدينة ، مُكْرَهاً
يصغي إلى الدنيا السخيفة راغماً
وأنا الذي يجيب بأرض ، قفرة
هجمت بي الدنيا على أهوالها
من غير إنذارٍ فأحمل عُدَّتِي
فتحطمت نفسي على شطآنه

حيث الطبيعة ، والجمال السامي
ما إن تُدَنَّسه الحياة بذا
عنها وعن بطش الحياة الدامي
الحلمُ الجميل ، خفيفة الأقدام
قدسية ، في يَمِّها المترامي
للفنِّ للأحلام ، للإلهام
أما ، يصدُّ حنائها أوهامي
في الكائنات معلقاً بسلامي
ويذود عنهم كفناً يصدُّ غوائل الأيام
ضحيتُ من رأفي بها أحلامي
ومشي إلى الآتي بقلبٍ دام
ويعيش مثل الناس بالأوهام
مدحوةً للشكِّ والآلام ...
وخضمتها الرحب ، العميق الطامي
وأخوضه كالسباح العوام
وتأججت في جوّه آلامي

* * *

الويل في الدنيا التي في شرعها * * * فأسُ الطعام كريشة الرسام ؟



حيرة

١٠: [؟]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 10/8/1931 ، وقد وردت في الديوان بلا عنوان (؟) ونشرتها مجلة المباحث التونسية بعنوان (حيرة).

أرى هيكلاً الأيام يعلو منشيداً ولا بد أن يأتي على أسفه الهدم

فيصبح ما قد شيد الله للورى
فقل لي ما جدوى الحياة وكرها
وفوج تغذيه الحياة لبائها
وعقل من الأضواء في رأس نابغ
وأفئدة حسرى تذب كآبة
لتعس الورى شاء الإله وجودهم
خراباً كأن الكل في أمسه وهم
وتلك التي تذوي وتلك التي تنمو؟
وفوج غدا تحت التراب له ردم؟⁽¹⁾
وعقل من الظلماء يحمله قدم؟
وأفئدة سكرى يرف لها النجم؟
فكان لهم جهل وكان لهم فهم ..



رثاء فجر

نظم الشاعر أبياته بتاريخ 14 / 9 / 1931.

يا أيها الغاب ، المنمق بالأشعة والورود!
يا أيها النور النقي! وأيتها الفجر البعيد!
أين اختفيت؟ وما الذي أقصاك عن هذا الوجود
أه! لقد كانت حياتي فيك حاملة، تميد
بين الخماثل، والجداول، والسترنم، والنشيد
تصمي لنجواك الجميلة، وهي أغنية الخلود
وتعيش في كون من العفلات، فتان، سعيد
أه! لقد غنى الصباح، فدمدم الليل العتيد
وتألق النجم الوضيء، فأعتم الغيم الركود
ومضى الردى بسعادتي، وقضى على الحب الوليد



(1) ورد في الديوان عجز البيت : وفوج يرى تحت التراب له ردم.

إنا بكيك للحب

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 21/9/1931.

لست يا أمسي أبكيك لمجيدٍ أو لجاه
سلبتني مني الدنيا، وبزنتني رداه
فأنا أحتقرُ المجدَّ، وأوهامَ الحياة

* * *

أو لعمري، بلغت منه الليالي منتهاه
وتلاشت في خضم الزمن الطاغى قسواه
فأنا ما زلت في فجرٍ شبابي أو ضحاه

* * *

لا، ولا أبكيك يا أمسي، إذا ما قلت آه
لنعيم لم ينل قلبي منه مشتهاه
فبنوا الأيام في الدنيا كما شاء الإله

* * *

إنما أبكيك للحب، الذي كان بهاه
يملاً الدنيا، فأتى سرت في الدنيا أراه
فإذا ما لاح فجرٌ، كان في الفجر سناه
وإذا غرد طيرٌ، كان في الشدو صداه
وإذا ما ضاع عطرٌ، كان في العطر شذاه
وإذا ما راف زهرٌ، كان في الزهر صباه
فهو في الكون جمالٌ، يملاً الأفق ضياه
وتوشى هذه الأكوان بالسحر رؤاه
وهو في قلبي - الذي عانقه الفجر - إله!
عقري السحر، بمراحٍ وديعٍ في سماه

ينسجُ الأحلامَ في قلبي بأضواء الحياة
ويغنيني فأنسى في مسراتِ غناها
كل ما في الكون من حزنٍ وأفراحِ عداها



ابناء الشيطان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 30 / 9 / 1931 .

أيُّ ناسٍ هذا الورى؟ ما أرى إلا مرايا، شقيّة، مجنونه
جبلتها الحياة في ثورة اليأس من الشرّ، كي تُجنّ جنونه
فأقامت له المعابد، في الكون، وصلّت له وشادت حصونه

* * *

كم فتاة، جميلة، مدحوها وتغنّوا بها لكي يُسقطوها
فإذا صانت الفضيلة عابوها، وإن باعت الخنا عبدوها
أصبح الحسنُ لعنةً، تهبّ الأرض، ليغوى أبناءها وذووها

* * *

وشقي، طاف المدينة، يستجدي ليحيا، فخيّموه احتقارا
أيقظوا فيه نزعة الشرّ، فانفضّ على الناس فاتكأ جبارا
يبذر الرعبَ في القلوب، ويذكي - حيثما حلّ - في الجوانح نارا

* * *

ونبي قد جاء للناس بالحق، فكالواله الشتائم كيلا
وتنادوا به: «إلى النار! فالنار بروح الخبيث أحرى وأولى»
ثمّ ألقوه في اللهب، وظلّوا يملأون الوجودَ رُعباً وهولاً
وشعوبٍ ضعيفة، تتلظى في جحيم الآلامِ عامماً فعاماً
والقويّ الظلومُ يَغصِرُ من آلامها السُّودَ لذةً ومُداماً

يتحسّاه ضاحكاً ..، لا يراها خُلِقْتَ في الوجود إلا طعاماً!

* * *

وفتاةٍ حسبتُها مَعْبَدَ الحَبِّ، فألْفَيْتُ قلبَهَا مَا خورا!

ونبيلٍ وجدته في ضيَاءِ الفجرِ قلباً مَدَنَساً شَرِيراً!

وزعيمٍ أجلّه النَّاسُ حتى ظنَّ في نفسه إلهاً صغيراً!

* * *

وخبيثٍ، يعيشُ كالفأسِ، هَدَاماً، لِسَيْغِي بَيْنَ الخرابِ بِنَاءً

وقمعي، يُطَاوِلُ الجِبَلَ العَالِي، فلله مَا أَشَدَّ غَبَاءً!

ودنسي، تَارِيخُهُ فِي سِجِلِّ الشَّرِّ: إِفْكٌ، وَقِحَّةٌ، ودِنَاءٌ

* * *

كان ظنِّي أَنَّ النفوسَ كِبَارٌ فوجدتُ النفوسَ شيئاً حقيراً

لَوُتُّهُ الحَيَاةُ ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ تَبْذُرُ العَالَمَ العَرِيضَ شُرورا

فاحصدوا الشُّوكَ ...، يَا بِنِيهَا وَضَجُّوا وَأَمَلُوا الأَرْضَ والسَّمَاءَ حُبورا



طلوات في هيكل الحب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 13/10/1931.

عذبةٌ أنتِ كالطفولة كالأحلام كاللحنِ، كالصباح الجديد!

كالسَّماءِ الضحوكِ، كالليلة القمراء كالوردِ، كابتسامة الوليد!

يا لهامن وداعة وجمال وشباب مُنعم أملود!

يا لهامن طهارة تبعثُ التقديسَ، في مهجة الشقيِّ العنيد!

يا لهارقةً، يكاد يرفُّ الور دُمنها في الصخرة الجلمود!

أُتِي شَيْءٌ تَرَكَ؟ هل أنتِ «فينيد» س «تهادت بين الوري من جديد؟

لتعيد الشباب والفرح المعسول للعالم التعيس العميد!

أم ملاك الفردوس جاء إلى الأَرْضِ ليحيي روحَ السلام العميد!

عبقريّ من فنّ هذا الوجود
وجمالٍ مقدّسٍ معبودٍ!
سحرٌ تجلّى لقلبي المعمودٍ!
وجلّى له خفايا الخلود!
نيا، فتهتزُّ رائعات الورود
ويدوي الوجودُ بالتغريد!
كلما أبصرتك عيناى تمشينَ بخطو، موقع كالنشيدي
خفق القلبُ للحياة ورفّ الزهرُ في حقل عمري المجرود
وانتشت روعي الكنيئة بالحبّ
أنت تحمين في فؤادي ما قد
وتشيدين في خرائب روعي
من طموح إلى الجمال، إلى الفنّ
وتبئين رقّة الشوق والأحلام
بعد أن عانقت كآبة أيامي
أنت أنشودة الأناشيد غنا
فيك شبّ الشباب وشحه الـ
وتراءى الجمال يرقص رقصاً
وتهاوت في أفق روجك أوزا
فتمايلت في الوجود كلحين
خطوات سكرانة بالأناشيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان
كلّ شيءٍ موقع فيك حتّى
أنت... أنت الحياة في قدسها السامي وفي سحرها الشجيّ الفريد

أنت ما أنت؟ أنت رسم جميل
فيك ما فيه من غموضٍ وعمقٍ
أنت ما أنت؟ أنت فجر من الـ
فأراه الحياة في مونتق الحسن
أنت روح الربيع تختال في الدُّ
وتهبُّ الحياة سكرى من العطر،
كلما أبصرتك عيناى تمشينَ بخطو، موقع كالنشيدي
خفق القلبُ للحياة ورفّ الزهرُ في حقل عمري المجرود
وانتشت روعي الكنيئة بالحبّ
أنت تحمين في فؤادي ما قد
وتشيدين في خرائب روعي
من طموح إلى الجمال، إلى الفنّ
وتبئين رقّة الشوق والأحلام
بعد أن عانقت كآبة أيامي
أنت أنشودة الأناشيد غنا
فيك شبّ الشباب وشحه الـ
وتراءى الجمال يرقص رقصاً
وتهاوت في أفق روجك أوزا
فتمايلت في الوجود كلحين
خطوات سكرانة بالأناشيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان
كلّ شيءٍ موقع فيك حتّى
أنت... أنت الحياة في قدسها السامي وفي سحرها الشجيّ الفريد

أنتِ ... أنتِ الحياةُ في رقةِ الفجرِ وفي رونقِ الربيعِ الوليدِ!
 أنتِ ... أنتِ الحياةُ كلُّ أوانٍ في رواءِ من الشبابِ الجديدِ!
 أنتِ ... أنتِ الحياةُ في وفي عينيكِ آياتُ سحرها الممدودِ
 أنتِ دنيا منن الأناشيد والأحلام، والسحر، والخيال المريدِ!
 أنتِ فوق الخيال، والشعر، والفنِّ، وفوق النهى، وفوق الحدودِ!
 أنتِ قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي، ونشوتي، وخلودي!
 يا ابنةَ النورِ إنني أنا وحدي مَنْ رأى فيكِ روعةَ المعبودِ!
 فدعيني أعيشُ في ظلِّكِ العذبِ وفي قربِ حسنِكِ المشهودِ!
 عيشةً للجمالِ والفنِّ والإلهامِ والظهورِ والسنى، والسجودِ!
 عيشةً الناسكِ البتولِ يُناجي السربَ في نشوةِ الذهولِ الشديدِ!
 وامنحيني السلامِ والفرحَ الروحي، يا ضوءَ فجرِ المنشودِ!
 وارحميني فقد تدممتُ في كونٍ من اليأسِ والظلامِ مَشِيدِ
 أنقذيني من الأسى فلقَدْ أُمسيتُ لا أستطيعُ حملَ وجودي
 في شعابِ الزمانِ والموتِ أمشي تحتَ عبءِ الحياةِ جمَّ القيودِ
 وأماشي الورى ونفسي كالقبرِ، وقلبي كالعالمِ المهودِ!
 ظلمةً ما لها ختامٌ وهولٌ شائعٌ في سكونها الممدودِ!
 وإذا ما استخفني عَبَثُ الناسِ تبسَّمتُ في أسى وجمودِ
 بِسمةٍ مُرَّةٍ كأنِّي أستلُّ من الشوكِ ذابلاتِ الورودِ!
 وانفخي في مشاعري مروح الدنيا وشدي من عزمي المجهودِ!
 وابعثي في دمي الحرارةَ عليّ أتغنى مع المنى من جديدِ!
 وأبثَّ الوجودَ أنعامَ قلبِ بلبلي مكبلٍ بالحديدِ!
 فالصباحُ الجميلُ يُنعشُ بالدفءِ حياةَ المحطَّمِ المكودِ!
 أنقذيني فقد سئمتُ ظلامي أنقذيني فقد مللتُ ركودي

* * *

أه يا زهرتي الجميلةً لو تدرين ما جدَّ في فؤادي الوحيدِ!

في فؤادي الغريبِ مُخلَقُ أكوانٍ من السحر ذات حسنٍ فريدٍ
 وشموسٌ وضياءٌ ونجومٌ تنشرُ النورَ في فضاءٍ مديدٍ
 وريبعٌ كأنه حلمُ الشاعرِ في سكرةِ الشبابِ السعيدِ
 ورياضٌ لا تعرفُ الحلكَ الداجي، ولا ثورةَ الخريفِ العتيدِ
 وطيورٌ سحريةٌ تتناغى بأناشيدَ حلوةٍ التغريدِ
 وقصورٌ كأنها الشفقُ المخضوبُ، أو طلعةُ الصباحِ الوليدِ
 وغيومٌ رقيقةٌ تنهدى كأباديدَ من نثارِ الورودِ
 وحياةٌ شعريةٌ هيَ عندي صورةٌ من حياةِ أهلِ الخلودِ
 كلُّ هذا يشيده سحرُ عينيكِ وإلهامُ حسنِكِ المعبودِ!
 وحرامٌ عليكِ أن تهدي ما شاده الحسنُ في الفؤادِ العميدِ
 وحرامٌ عليكِ أن تسحقي آمالَ نفسي تصبو لعيشٍ رغيدِ!
 منكِ ترجو سعادةً لم تجدها في حياةِ الورى وسحرِ الوجودِ
 فالإله العظيمُ لا يرجمُ العبدَ، إذا كان في جلالِ السجودِ!



أراك

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24/10/1931.

أراك، فتحلوا لسديّ الحياة
 وتنمو بصدري وُردٌ عذابٌ
 ويفتنني فيك فيضُ الحياة
 ويفتنني سحرُ تلك الشفاه
 فاعبُد فيك جمالَ السماء،
 وطهرَ الثلوج، وسحرَ المروج
 ويملا نفسي صباحُ الأمل
 وتحنو على قلبي المشتعل
 وذاك الشبابُ الوديعُ، الثمّل
 ترفرف من حولهن القبل
 ورقّة وزد الريع، الخفيل
 مؤسحةً بشعاع الطفّل

* * *

أراك، فأخلقُ خلقاً جديداً
 كأنّي لم أبُل حربَ الوجودِ

ولم أحتمل فيه عبثاً، ثقيلًا
وأضغاث أيامي، الغابرات
ويغمُرُ روجي ضياءً، رقيقٌ
وتُسْمَعُنِي هاتيه الكائناتُ
وترقص حولي أمان، طرابُ
أراك فتخفق أعصاب قلبي
ويجري عليها الهوى في حنوٍ
فتخطو أناشيد قلبي، سكرى
وتملأني نشوة، لا تُحَدِّثُ
أودُ بروحي عناق الوجود
وليل يفِرُّ وفجر يكرُرُ

من الذكريات التي لا تبيدُ
وفيهما الشقي، وفيها السعيدُ
تكلكله رائعاتُ الورد
رقيق الأغاني، وحلو النشيد
وأفراح عُمرِ خالي، سعيد
وتهتز مثل اهتزاز الوتر
أنامل لُذنا كرطب الزهر
تغرّد، تحت ظلال القمَر
كأنني أصبحت فوق البشر
بما فيه من أنفيس أو شجر
وغيم يُوسِّي رداء السحر



فكرة الفنان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 7/11/1931، ويوضح الشاعر فيها رأيه في الفن ويدعو إلى إعمال المشاعر فيه التي تفتح كوى النفس.

عش بالشعور، وللشعور فإنما
شيدت على العطف العميق، وإنها
وتظل جامدة الجمال، كثيبة
وتظل قاسية الملامح جهمة
لا الحب يرقص فوقها، متغنياً
متوردة الوجنات سكران الخطى
متكللاً بالورد ينثر للورى
كلاً، ولا الفن الجميل بظاهر
متوشحاً بالسحر ينفخ نايه المشد

دياك كون عواطف وشعور
لتجف لو شيدت على التفكير
كاهيكل المتهدم، المهجور
كالموت .. مقفرة بغير سرور
للناس بين جداول وزهور
يهتز من مرج، وفرط حبور
أوراق «ورد اللذة» المنظور
في الكون تحت عمامة من نور
ببواب بين خمائل وغدير

للموتِ ، للأيامِ ، للديجورِ
والسحرِ ، واللذاتِ ، والتغرييرِ
فيها بصوتِ الحالمِ المحبورِ
عزَمَ الشبابِ ، وغبطةَ العصفورِ

* * *

فهو الخبيرُ بتيهها المسحورِ
بينَ الجماجمِ والدمِ المهودورِ
متغنياً من أعصرِ ودهورِ
ما زالَ في الأيامِ جِدَّ صغيرِ !
متوجعاً كالطائرِ المكسورِ
متنطعاً في خفةٍ وغرورِ⁽¹⁾
من سرَّ هذا العالمِ المستورِ
من ساذجِ متفلسفِ مغرورِ

* * *

للليمِّ ، للأمواجِ ، للديجورِ
للهورِ ، لالآلامِ للمقدورِ
في أفقها المتلبِّدِ المقرورِ
في ليلها المتهيبِ المحذورِ
من ثغرها المتأججِ المسجورِ
يقظُ الشاعرِ حالمِ مسحورِ
هي خير ما في العالمِ المنظورِ

أو يلمسُ العودَ المقدَّسَ ، واصفاً
ما في الحياةَ من المسرةِ ، والأسى
أبدأ ، ولا الأملُ المجنحُ منشدُ
تلكَ الأناشيدُ التي تهبُّ الورى

واجعلْ شعوركِ في الطبيعةِ قائداً
صحبَ الحياةَ صغيرةً ومشى بها
وعداها فوقَ الشواهِقِ باسمِ
والعقلُ رغمَ مشييه ووقاره
يمشي فتصرعه الرياحُ فينشئ
ويظل يسألُ نفسه متفلسفاً
عما تُحجِّبه الكواكبُ خلفها
وهو المهشمُ بالعواصفِ ياله

وافتح فؤادك للوجودِ وخلِّه
للثلجِ تنشره الزوابعُ للأسى
واتركه يقتحمُ العواصفَ هائماً
ويخوضُ أحشاءَ الوجودِ مقامراً
حتى تعانقه الحياةُ ويرتوي
فتعيشُ في الدنيا بقلبِ زاخِرِ
في نشوة صوفيةٍ قدسيةِ



(1) متنطعاً: وردت في الديوان متنطساً.

سر النهوض

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 12/11/1931.

لا ينهض الشعبُ إلا حين يدفعه عزمُ الحياة ، إذا ما استيقظت فيه
والحُبُّ يخرقُ الغبراء ، مندفعاً إلى السماء ، إذا هبَّت تناديه
والقيْدُ يألفُه الأمواتُ ، ما لبثوا أمَّا الحياةُ فيبليها وتبليها



قلب الإله

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 16/12/1931.

يا أيُّها الطفلُ الذي قد كانَ كاللحنِ الجميلِ
والوردةِ البيضاءِ تعبقُ في غياباتِ الأصيلِ
يا أيُّها الطفلُ الذي قد كانَ في هذا الوجودِ
حُلماً يناجي هاتِهِ الدنيا بمعسولِ النشيدِ⁽¹⁾
ويعلمُ الناسَ البراءةَ ، والمحبةَ ، والسروءَ
ويُنيرُ أعماقَ القلوبِ بروحِهِ العذبِ النضيرِ
ها أنتَ ذا قد أطبقتَ جفنيكَ أحلامَ المنونِ
وتطايَرتَ زمرُ الملائكِ حولَ مضجِعِكَ الأمينِ
ومضتَ بروحِكَ للسماءِ عرائسُ النورِ الحبيبِ
يحملنَ تيجاناً مذهبةً من الزهرِ الغريبِ
ها أنتَ ذا قد جللتك سكينَةُ الأبدِ الكبيرِ
وبكتك هاتيكِ القلوبِ وضمَّتْ القبرُ الصغيرِ
وتفرَّقَ الناسُ الذينَ إلى المقابرِ شيعوكِ
ونسوكِ من دنياهم ، حتى كأنَّ لم يعرفوكِ

(1) حلاً: وردت في لديوان فرحاً.

شغلتهم عنك الحياة وحرب هذي الكائنات

إنَّ الحياة - وقد قضيتُ قبيلَ معرفة الحياة -

بحرّ، قرارته الردى، ونشيدُ جتته شكاة

وعلى شواطئه القلوبُ تئنُ داميةَ عراة

بحرّ، تجيشُ به العواصفُ في العشيّة والغداة

وتُظلّه سُحُبُ الظلام، فلا سكونٌ ولا إياة

نسيتك أمواج البحيرة والنجوم اللامعة

والبلبل الشادي وهاتيك المروج الشاسعة

وجداول الوادي النضير، برقصها وخريرها

ومسالك الجبل الصغير، بعشبهها وزهورها

حتى الرفاق ...، فإتهم لبشوا مدى يتساءلون

في حيرة مشبوبة: «أين اختفى عنا الأمين»؟

لكنهم علموا بأنك في الليالي الداجية

حملتك غيلان الظلام إلى الجبال النائبة

فسوك مثل الناس وانصرفوا إلى اللهو الجميل

بين الخمائل، والجداول، والروابي، والسهول

ونسوا وداعة وجهك الهادي ومنظرِكَ الوسيم

ونسوا تغنيك الجميل بصوتك الحلو الرخيم

ومضوا إلى المرج البهيج يطاردون طيوره

ويُزحزون صخوره، ويعابثون زهوره

ويشيّدون من الرمال البيض والحصب النضير

غُرفاً، وأكواخاً، تُكلّلها الحشائش والزهور

وينضّدون من الرُبى بين التضاحك والحبور

طاقاتٍ وردٍ آبدٍ، تُزري بأوراد القصور

يلقونها في النهر، قرباناً لآلهة السروز

فتسيرُ في التيسارِ ، راقصةً على نغمِ الخريزِ

كلّ نسوك .. ولم يعودوا يذكرونك في الحياة
والدهرُ يدفنُ في ظلامِ الموتِ حتّى الذكريات

إلا فؤادٌ ظلَّ يخفقُ في الوجودِ إلى لقاءك
ويودُّ لو بذلَّ الحياةَ إلى المنيّةِ ، وافتداكُ

فإذا رأى طفلاً بكاك ، وإن رأى شبحاً دعاكُ
يُصغي لصوتك في الوجودِ ، ولا يرى إلا بهاكُ

يُصغي لنغمتك الجميلةِ ، في خريزِ الساقيةِ
في آتةِ المزمارِ ، في لغوِ الطيورِ الشاديةِ

في ضجّةِ البحرِ المجلجلِ ، في هديرِ العاصفةِ
في لجةِ الغاباتِ ، في صوتِ الرعودِ القاصفةِ

في نغمةِ الحملِ الوديعِ ، وفي أناشيدِ الرعاةِ
بينَ المروجِ الخضِرِ والسفحِ المجللِ بالنباتِ

في آهةِ الشاكي ، وضوضاءِ الجموعِ الصاخبةِ
في شهقةِ الباكي يؤججها نواحُ النادبةِ

في كلّ أصواتِ الوجودِ : طروبها وكثيبها
ورخيمها ، وعنيفها ، وبغيضها وحبيبها

ويراكُ في صورِ الطبيعةِ : حلوها ودميمها
وألِفها ومخيفها ، وحقيرها ، وعظيمها⁽¹⁾

في رقّةِ الفجرِ الوديعِ ، وفي الليالي الخاملةِ
في فتنةِ الشفقِ البديعِ ، وفي النجومِ الباسمةِ

في رقصِ أمواجِ البحيرةِ تحتَ أضواءِ النجومِ
في سحرِ أزهارِ الربيعِ ، وفي تهاويلِ الغيومِ

(1) وألِفها ومخيفها : ورددت في الديوان: وحزينها وبهيجها.

في لمعة البرق الخفوق ، وفي هوي الصاعقة

في ذلة الوادي ، وفي كبر الجبال الشاهقة

في مشهد الغاب الكئيب ، وفي الورود العاوية⁽¹⁾

في ظلمة الليل الحزين ، وفي الكهوف العارية

أعرفت هذا القلب ، في ظلماء هاتيك اللحود ؟!

هو قلب «أمك» أمك السكرى بأحزان الوجود !!

هو ذلك القلب الذي سيعيش كالشادي الضريف

يشدو بشكوى حزنه الداجي إلى النفس الأخير

لا ربة النسيان ترحم حزنه ، وترى شقاه

كلا ! ولا الأيام تبلى في أناملها أساه

إلا إذا صفرت له الأقدار إكليل الجنون

وغدا شقياً ضاحكاً تلهو بمرآة السنون

هو ذلك القلب الذي مهما تغلبت الحياة

وتدفع الزمن المدمدم في شعاب الكائنات

وتغنت الدنيا ، وغرد بلبل الغاب الجميل

سيظل يعبد ذكرياتك ، لا يمل ولا يميل

كالأرض تمشي فوق تربتها المسرة والشباب

والليل ، والفجر المجتج ، والعواطف والسحاب

والحب ، تنبت في مواطنه الشقائق والورود

والموت ، يحفر أينما يخطو المقابر واللحود

وتمر بين فجاجها اللذات راقصة تميذ

سكرى .. وأحلام الورى ترنو إلى الأفق البعيد

وتظل ترقص للأسى ، للهو ، أشباح الدهور

(1) الورود: جمع ورد وهو الأسد.

حتى يوارىها ضبابُ الموتِ في وادي الدثور

وتظل تورقُ ، ثم تُزهَرُ ، ثم ينشرها الصباح

للموت ، للشوكِ الممزَّق ، للجداولِ ، للرياح

بسماتِ ثغريِّ حالمٍ يفتَرُّ في سهوِ السروز

وورودِ روضٍ باسمٍ يُصغي لألحانِ الطيوز

وتظلُّ تخفُّقُ ، ثمَّ تشدو ، ثمَّ يطويها التراب

قُبُلٌ وأطيَارٌ تغرِّدُ للحياة وللشباب

وتظلُّ تمشي في جوارِ الموتِ أفراحِ الحياة

ويغرِّدُ الشحورُ ما بينَ الجماجمِ والرفات

والأرضِ حاملةٌ تغني بين أسرابِ النجوم

أنشودةَ الماضي البعيدِ وسورةَ الأزلِ القديمِ !



قصائد عام 1932

وعددها ثلاث قصائد:

- حديث المقبرة.
- في ظل وادي الموت.
- الساحرة.

حديث المقبرة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 3 / 4 / 1932 .

وهو حوار فلسفي، مداره الحياة والموت، والخلود والكمال.

في ليلة مظلمة، من ليالي الصيف، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة النائمة في سفح الجبل، وفي ذلك السكون الشامل، والظلام المركوم، أخذ يمشي بين أشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد، ثم اعتلى تلك الربوة الصغيرة، حيث كانت مدافن القرية وحيث ينام الموتى في صمت الدهور.

وبين القبور الخرساء الجاثمة تحت أضواء النجوم، حيث يتحدث كل شيء بجلال الموت وتفاهة الحياة، جلس الشاعر بأقدام متعبة، ونفس ثائرة، وأجفان قد أذبلتها الأحزان، فطافت بنفسه الأحلام والأفكار والذكريات، وتقلبت أمامه صور الموت وأمواج الحياة، وتتابع أمامه رسوم الأيام الكثيرة، ما نام منها في قلب الأزل وما لم يزل ينمو في أحشاء الأبد الكبير، وجاشت في قلبه هاته العصور والخواطر، وعجت في صدره عجيج الأمواج الثائرة، فألقاها إلى الليل في النشيد التالي:

وتنحس وتوهجُ تلك الخدود؟	أتفنى ابتسامات تلك الجفون؟
وتهوى إلى الترب تلك النهود؟	وتذوي وُرَيْداتُ تلك الشفاه؟
وينحلُّ صدرٌ، بدیعٌ، وجيد	وينهدُّ ذاك القوامُ الرشيق
وفتنَّةُ ذاك الجمال الفريد	وتريد تلك الوجوه الصُّباح
أنيقُ الغدائر، جعدٌ، مديد	ويغبرُّ فرعٌ كجُنح الظلام
هباءٌ، حقيراً، وتُرْباً، زهيد	ويُصبحُ في ظلِّمات القبور
وسُكْرُ الشباب، الغرير، السعيد	وينجاب سحرُ الغرام القويِّ

* * *

ويذهب هذا الفضاء البعيد؟	أتطوى سماءات هذا الوجود؟
ويهرم هذا الزمان العهد	وتهلك تلك النجومُ القدامى؟
وليلُ الوجود، الرهيب، العتيد!	ويقضي صباحُ الحياة البديعُ؟

وشمسٌ توشّي رداء الغمام؟
 وضوءٌ، يرصّع موجَ الغدير؟
 وبحرٌ فسيحٌ، بعيد القرار،
 وريحٌ، تمرُّ مرورَ الملاك،
 وعاصفةٌ، من بنات الجحيم،
 تعجُّ، فتدوي حنايا الجبال
 وطيرٌ، تغنّي خلال الغصون
 وزهرٌ، ينمقُ تلك التلال
 ويعبقُ منه أريجُ الغرام

* * *

أيسطو على الكلّ ليلُ الفناء
 وينثرها في الفراغِ المخيف
 فينضب يمُّ الحياة، الخضم
 فلا يلثم النورُ سحرَ الحدود

* * *

كبيرٌ على النفس هذا العفاء!
 وماذا على القدرِ المستمرّ
 ولم يُخفّروا بالخراب المحيط
 ولم يسلكوا للخلود المرجى
 فدام الشبابُ، وسحرُ الغرام،
 وعاش الورى في سلام، أمين
 ولكن هو القدرُ المستبدُّ

وصعبٌ على القلب هذا الهمود!
 لو استمرّأ الناسُ طعمَ الخلود
 ولم يُفجّعوا في الحبيب الودود
 سبيلَ الردى، وظلامَ اللحد
 وفنُّ الربيعِ، ولطفُ الورد
 وعيشٍ، غضيرٍ، رخيٍّ، رغيد؟
 يلدُّ له نوحنا، كالنشيد!

* * *

وكانت بين القبور روح فيلسوف قديم مجهول فجاءت تزور جسمها الذي أصبح رمة بالية في أحشاء التراب، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية وحيrote الظامنة، فأرادت أن تعلمه الحكمة وتسكب في قلبه برد اليقين فخاطبته بهاته الأبيات:

تبرّمتْ بالعيش خوف الفناء
وعشت على الأرض مثل الجبال
فلم ترتشف من رُضاب الحياة
ولم تدر ما فتنة الكائنات
وما نشوة الحب عند المحبِّ
ولم تفتكر بالغد المستراب
وماذا يُرَجى ريب الخلود
وماذا يوَدُّ، وماذا يخافُ
تأمّل ..، فإنَّ نظام الحياة
فما حبَّ العيش إلاّ الفناء
ولولا شقاء الحياة الأليم
ومن لم يرُغه قطوبُ السدياجر

ولو دمت حيا سئمت الخلود
جليلاً، رهيباً، غريباً، وحيد
ولم تصطبغ من رحيق الوجود
وما سحر ذاك الربيع الوليد
وما صرخة القلب عند الصدود
ولم تحتفل بالمرام البعيد
من الكون - وهو المقيم البعيد - ؟
من الكون - وهو المقيم الأبد - ؟
نظام، دقيق، بديع، فريد
ولا زانه غير خوف اللحد
لما أدرك الناس معنى السعد
لم يغتبط بالصباح الجديد

* * *

وراق حديث الروح الشاعر العائش بين الهواتف والأشباح، فقال مجاورها:

إذا لم يكن من لقاء المنايا
فأيُّ غناء لهذي الحياة
وذاك الجمال الذي لا يُمَلُّ
وهذا الظلام، وذاك الضياء
لماذا نمرب بوادي الزمان
فنشرب من كل نبع شراباً
ومنه اللذيذ، ومنه الكريه،

مناصّ لمن حلّ هذا الوجود
وهذا الصراع، العنيف، الشديد
وتلك الأغاني، وذاك النشيد؟؟
وتلك النجوم، وهذا الصعيد
سراعاً، ولكننا لا نعود
ومنه الرفيع، ومنه الزهيد
ومنه المُشيد، ومنه المُبيد

وتحمل عِبْثاً من الذكريات
ونشهد أشكال هذي الوجوه
وفيهما البديع ، وفيهما الشنيع ،
فُصِّحَ منها الوليُّ ، الحميم
وكلُّ - إذا ما سألنا الحياةَ -
أتيناه من عالمٍ ، لانراه
وما شأنُ هذا العداء العنيفِ ؟

وتلك العهد التي لا تعود
وفيهما الشقي ، وفيها السعيد
وفيهما الوديح ، وفيها العنيد
ويصبح منها العدو ، الحقُّود
غريبٌ لعمري بهذا الوجود
فُرادى ، فما شأنُ هذي الحقُّود ؟
وما شأنُ هذا الإخاء الودود ؟

* * *

روح الفيلسوف:

خلقنا لنبلغ شأو الكمال
وتطهر أرواحنا في الحياة
ونكسب من عثرات الطريق
ومجداً ، يكون لنا في الخلود
ونصبح أهلاً لمجد الخلود
بنهار الأسسى ... (1)
قُوي ، لا تُهدُّ بدأب الصعود
أكاليل من رائعات الورد

ومر بالمقبرة سرب من الأرواح ، في طريقها إلى العالم المجهول ؛ فطارت معها روح
الفيلسوف ، وخلفت عالم الشك والكآبة لأبنائه البائسين. وظل الشاعر يردد بينه وبين
نفسه:

«خلقنا لنبلغ شأو الكمال
ولكن أفكاره الثائرة التي لا تهدأ كانت لا تزال تلح عليه بالأسئلة الكثيرة المرهقة
فقال يناجي روح الفيلسوف التي حسبها ما زالت قريبة منه:

ولكن إذا ما لبسنا الخلود
فهل لا نَمَلُّ دوام البقاء ؟
ونلنا كمال النفوس البعيد
ماذا تراه ؟ وكيف الحدود ؟
وكيف يكوننَّ هذا «الكمال» :

(1) هكذا ورد البيت في الديوان وفي غيره.

وما دام «فكراً» يُرى من بعيد
يُحسُّ، وأصبح شيئاً شهيداً؟
وتصبح أشواقاً في خمود
وفوق الخلود لسبعض المزيد؟
فذاك لعمري شقاء الجدود
ونصرٌ، وكسرٌ، وهمٌ مديد
وإن كان في عرصات الخلود

وإنَّ جمالَ «الكمال» «الظَّموحُ»
فما سحره إنَّ غداً «واقعاً»
وهل ينطفي في النفوس الحنين
فلا تطمح النفس فوق الكمال
إذا لم يزل شوقها في الخلود
وحرَبٌ، ضروسٌ، - كما قد عهدتُ -
وإن زال عنها فذاك الفناء

* * *

كذلك ناجى الشاعر روح الفيلسوف، ولكنها كانت إذ ذاك بعيدة عنه في عالم بعيد لا يسمع نجواه، وكذلك ضاعت أسئلة الشاعر في ظلمة الليل الذي لا يسمع ولا يجيب.



في ظل وادي الموت

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 5/4/1932.

نحنُ نمشي وحوّلنا هذه الأكو
نحنُ نشدو مع العصافير للشمس، وهذا الريحُ ينفخُ نايه ..؟
نحنُ نتلو رواية الكون للمو
ت، ولكن ماذا ختام الروايه ..؟
هكذا قلتُ للرياحِ فقالتُ:
سَلْ ضميرَ الوجودِ كيفَ البداية؟!

* * *

وتغشَى الضبابُ نفسي فصاحتُ
قلتُ: سيرى مع الحياة فقالتُ:
فتهافتُ كالهشيمِ على الأُر
هاتيه، علّني أخطُ ضريحِي
في ملالٍ مرّاً: إلى أينَ أمشي ..؟
ما جنينا ترى من السيرِ أمسٍ ..؟
ضِ وناديتُ: أينَ يا قلبُ رفشي؟
في سكونِ الدجى، وأدفنُ نفسي

* * *

هاتِه ، فالظلامُ حولي رهيبٌ وضبابُ الأسي مُنِيخٌ عليّ
وكؤوسُ الغرامِ أترعها الفجرُ . ولكنْ تحطّمت في يدَيّ !
والشبابُ الغريِرُ ولّى إلى الما ضي ، وخلّى النحيبَ في شفّيتيّ
هاتِه يا فؤادُ إنّنا غريبًا ن ن صوغُ الحياةَ فنّا شجياً

* * *

قد رقصنا مع الحياةَ طويلاً وشدونا مع الشبابِ سنينا
وعدونا مع الليالي حفاةً في شعابِ الزمانِ حتّى دُمينا⁽¹⁾
وأكلنا الترابَ حتّى مللنا وشربنا الدموعَ حتّى روينا
ونثرنا الأحلامَ والحبَّ والآلا م والياس والأسي حيث شينا

* * *

ثمّ ماذا ..؟ هذا أنا صرتُ في الدنيا بعيداً عن لهوها وغناها
في ظلامِ الفناء ، أدفنُ أيّا مي ولا أستطيعُ حتّى بُكاها !
وزهورُ الحياةِ تهوي بصمتِ محزنٍ ، مضجِرٍ ، على قدميّ
جف سحرُ الحياةِ . يا قلبي البَا كي فهيا نجربُ الموت .. هيا !



الساحرة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/7/1932 .

راعها منه صمته ووجومه وشجاها شحوبه وسهومة
فأطلت بوجهها الباسمِ الحلـ و على خدّه بسحرٍ يهيمه
وأمرت كفاً على شعره العا ري برفقٍ كأنها ستئيمة
ثم قالت كأنها تتغنّى بشجّي من الأغاني تلوّمه: ⁽²⁾

(1) في شعاب الزمان: وردت في الديوان في شعاب الحياة.

(2) هذا البيت محذوف من الديوان ..

إِنَّ شِدْوَ الطَّيُورِ حَلْوٌ رَخِيمَةٌ
 أَمْصَابٌ؟ أَمْ ذَاكَ أَمْرٌ تَرُومُهُ؟
 بَانَ جَمٌّ أَحْزَانِهِ وَهَمُومُهُ
 كَأَنَّ لَيْسَ لِلوُجُودِ زَعِيمَةٌ
 بِمَحْيَا كَالصَّبِيحِ طَلَقٌ أَدِيمُهُ
 سَيَا وَتَمَشِي بِوَقْرَهَا لَا تَرِيمُهُ
 ضِي فَهِيَ أَنْتَ رَبِّهِ فَتَقِيمُهُ
 فَحَوَالِيكَ وَرَدَهُ وَكِرُومُهُ
 كَ وَخَلَّ الشَّقَاءُ تَدْمِي كَلُومُهُ
 يَتَوَارَى هَذَا الدَّجَى وَنَجُومُهُ
 فَكَمْ يُسْكِرُ الظَّلَامَ رَنِيمُهُ
 سَدِي وَنَهْودِي وَفَعَلَ بِهِ مَا تَرُومُهُ
 سَوِ وَلِلْكَوْنِ حَرِبَهُ وَهَمُومُهُ
 سَرَى فَالْهُوَى سَاحِرُ الدَّلَالِ وَسِيمُهُ
 مَرَعِبَ إِنْ ذُوِي وَجَفَّ نَعِيمُهُ
 فَتَكَ الْعَابَسَ الْكَثِيرَ وَجُومُهُ
 سَوَلُ تَشْدُو أَفْنَانَهُ وَنَسِيمُهُ
 بَانَ بَلِّ لَبُّ فَهِيَ وَصَمِيمُهُ
 نِ وَوَحْيِ الْوُجُودِ هَذَا قَدِيمُهُ
 سَهُ وَإِلَّا فَلْغَرَامِ جَحِيمُهُ

* * *

سَكْرَةُ الْحَبِّ وَالْأَسَى وَغِيومُهُ
 مِنْهُ سَكْرَانَةُ الشَّبَابِ رُؤُومُهُ
 قُبُلٌ أَجْفَلَتْ لَدَيْهَا هَمُومُهُ

أَيُّهَا الطَّائِرُ الْكَثِيبُ تَغْرُدْ
 وَأَجْنِبِي - فَدَتِكَ نَفْسِي - مَاذَا؟
 بَلْ هُوَ الْفَنُّ وَاكْتِنَابُهُ وَالْفَنُّ
 أَبَدًا يَحْمِلُ الْوُجُودَ بِمَا فِيهِ
 خَلَّ عِبَاءَ الْحَيَاةِ عَنْكَ وَهَيَّا
 فَكَثِيرَ عَلَيْكَ أَنْ تَحْمِلَ الدَّنَى
 وَالْوُجُودَ الْعَظِيمَ أَقْعَدَ فِي الْمَا
 وَأَمَشِي فِي رَوْضَةِ الشَّبَابِ طَرُوبًا
 وَاتَلُّ لِلْحَبِّ وَالْحَيَاةِ أَغَانِي
 وَاحْتَضَنِي فَإِنِّي لَكَ حَتَّى
 وَدَعِ الْحَبَّ يُنْشِدُ الشَّعْرَ لِلَّيْلِ
 وَاقْطِفِ الْوَرْدَ مِنْ خُدُودِي وَجِي
 إِنَّ لَلْبَيْتِ لَهُوَ النَّاعِمِ الْحَلَى
 وَارْتَشَفْ مِنْ فَمِي الْأُنَاشِيدَ سَكَى
 وَانْسَ فِي الْحَيَاةِ فَالْعَمْرُ قَفْرُ
 وَارْمِ لِلَّيْلِ وَالضُّبَابِ بَعِيدًا
 وَالْهُوَى وَالشَّبَابِ وَالْمَرْحَ الْمَعَى
 هِيَ فَنُّ الْحَيَاةِ يَا شَاعِرِي الْفَنَى
 تَلِكُ يَا فَيْلَسُوفَ فِلْسَفَةِ الْكُورَى
 وَهِيَ إِنْجِيلِي الْجَمِيلِ فَصَدَقْ

فَرْمَاهَا بِنَظْرَةِ غَشِيَّتَيْهَا
 وَتَلَاهَا بِبَيْسَمَةِ رَشَفْتَيْهَا
 وَالتَّقَّتْ عِنْدَهَا الشِّفَاهُ وَغَنَّتْ

ما تريد الهموم من عالم ضا ءت مسراته وغنّت نجومه

* * *

ليلة أسبل الغرام عليها سحره الناعم الطير نعيمه
وتغنى في ظلها الفرح اللا هي فجف الأسي وخرّ هشيمه
اغرق الفيلسوف فلسفة الأح زان في بحرها ، فمن ذا يلومه

* * *

إن في المرأة الجميلة سحرأ عبقرياً يُذكي الأسي ويُئمه !



قصائد عام 1933

وعدددها سبع عشرة قصيدة:

- اللجنة الضائعة.
- من أغاني الحياة أو من أغاني الرعاة.
- السعادة.
- للتاريخ.
- أيتها الحاملة بين العواصف.
- ذكري صباح.
- صوت من السماء.
- الصباح الجديد.
- الرواية الغربية.
- إرادة الحياة.
- ألحاني السكري.
- إلى الشعب.
- تحت الغصون.
- متاعب العظمة.
- الناس.
- زوبعة في الظلام.
- نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميشيوس.

الجنة الضائعة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 9 / 1 / 1933.

كَمْ مِنْ عَهودٍ عذبةٍ من عدوةِ الواديِ النضيرِ
فضيةِ الأسحارِ مذهبيةِ الأصائلِ والبكـورِ
كانتْ أرقَّ من الزهورِ ومِن أغاريدِ الطيورِ
والذَّم من سحرِ الصبا في بسمَةِ الطفلِ الغريرِ
قضيتُها ومعِيَ الحبيبةُ لا رقيبَ ولا نذيرِ
إلاّ الطفولةِ حولنا تلهو مع الحُبِّ الصغيرِ
أيامَ كانتْ للحياةِ حلاوةُ الروضِ المطيرِ
وطهارةُ الموجِ الجميلِ، وسحرُ شاطئهِ المنيرِ
ووداعةُ العصفورِ بينَ جداولِ الماءِ النـميرِ
أيامَ لم نعرفِ من الدنيا سوى مَرِحِ السـرورِ
وتبُّعِ النحلِ الأنيقِ وقطفِ تيجانِ الزهورِ
وتسلُّقِ الجبلِ المكَّملِ بالصنوبرِ والصخورِ
وبناءِ أكواخِ الطفولةِ تحتَ أعشاشِ الطيورِ
مسقوفةٍ بالوردِ، والأعشابِ، والورقِ النـضيرِ
نبني فتهدمها الرياحُ فلا نضحُّ ولا نثورِ
ونعودُ نضحكُ للمروجِ وللزنايقِ والغديرِ
ونخاطبُ الأصدقاءِ، وهي ترفُّ في الواديِ المنيرِ
ونعيدُ أغنيةَ السواقي وهي تلغو بالخريرِ
ونظـل نركضُ خلفَ أسرابِ الفراشِ المستطيرِ
ونفرُّ ما بينَ المروجِ الخضرِ في سُكرِ الشعورِ
نشدو ونرقصُ كالبلابلِ، للحياةِ وللحبورِ
ونظـل ننشرُ للفضاءِ الرحبِ والنهرِ الكبيرِ

ما في فؤادينا من الأحلام أو حلو الغرور
 ونشيد في الأفق المنور من أمانينا قصور
 أزهى من الشفق الجميل وروني المرح الخضير
 وأجل من هذا الوجود وكل أمجاد الدهور
 أبداً، تدلنا الحياة بكل أنواع السرور
 وتبت فينا من مزاح الكون ما يغوي الوقور
 ففسير، نُشدُّ لهونا المعبود في كل الأمور
 ونظّل نعبث بالجليل من الوجود وبالحقير :
 بالسائل الأعمى ، وبالمعتوه ، والشيخ الكبير
 بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعه ، بالحمير
 بالعشب ، بالفن المنور ، بالسنابل ، بالسفير
 بالرميل ، بالصخر المحطم ، بالجداول ، بالغدير
 واللهو والعبث البريء الحلو مطمحننا الأخير
 ونظّل نقفز ، أو نُغنّي ، أو نثرثر أو نردور
 لانسام اللهو الجميل ، وليس يدركنا الفتور
 فكأنتنا نحيا بأعصاب من المرح المثير
 وكأنتنا نمشي بأقدام مجتحة تطير
 أيام كنا لب هذا الكون ، والباقي قشور
 أيام نفرش سبلنا الدنيا بأوراق الزهور
 وتمر أيام الحياة بنا ، كأسراب الطيور
 بيضاء ، لا غيرة ، مغردة ، مجتحة بنور
 وترفرف الأفرح فوق رؤوسنا أتى نسير

* * *

آه تواري فجري القدي في ليل الدهور
 وفنى ، كما يفنى النشيد الحلو ، في صمت الأثير

أواه! قد ضاعت عليّ سعادة القلب الغريز
 وبقيتُ في وادي الزمان الجهنم أدبُ في المسيز
 وأدوسُ أشواك الحياة بقلبي الدامي الكسيز
 وأرى الأباطيل الكئسيرة والمآثم والشروز
 وتصادم الأهواء بالأهواء في كلّ الأموز
 ومذلة الحقّ الضعيف وعزة الظلم القدير!
 وأرى ابن آدم سائراً في رحلة العمر القصير
 ما بين أهوال الوجود، وتحته أعباء الضمير
 متسلّماً جبل الحياة الوعر كالشيخ الضير
 دامي الأكف، ممزق الأقدام، مغبر الشعور
 مترنح الخطوات ما بين المزالق والصخور
 هائلته أشباح الظلام، وراعته صمت القبور
 ودوي إعصار الأسى، والموت في تلك الوعور!

* * *

ماذا جنيت من الحياة ومن تجارب الدهور
 غير الندامة والأسى واليأس والدمع الغزير؟
 هذا حصادي من حقول العالم الرحب الخطير!
 هذا حصادي كلّه في يقظة العهد الأخير!

* * *

قد كنتُ في زمن الطفولة والسذاجة والطهور
 أحياء كما تمحيا البلابل والجداول والزهور
 لا أحفل، الدنيا تدور بأهلها أو لا تدور
 واليوم أحياء مُرَهَقَ الأعصاب مشوبَ الشعور
 متأجج الإحساس، أحفل بالعظيم وبالحقير
 تمشي على قلبي الحياة، ويزحف الكون الكبير!

هذا مصري ..

يا بني الدنيا ..

فما أشقى المصير !!



السعادة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 23/1/1933.

ترجو السعادة يا قلبي ولو وُجِدَتْ
ولا استحالت حياة الناس أجمعها
فما السعادة في الدنيا سوى حُلْمٍ
ناجت به الناس أو هامٌ مُعْرِبِدَةٌ
فَهَبْ كُلَّ يُنَادِيهِ وَبِنَشْدِهِ
في الكون لم يشتعل حُزْنٌ ولا أَمٌّ
وَزُلْزِلَتْ هَاتِه الأكوانُ والنُّظْمُ
نَاءٍ تُصَحِّي له أَيامها الأُمَّمُ
لَمَّا تَغَشَّتْهُمُ الأحلامُ والظُّلْمُ
كأنها الناس ما ناموا ولا حَلُمُوا⁽¹⁾

* * *

خُذ الحياةَ كما جاءتك مبتسماً
وارقص على الوردِ والأشواكِ مُتَّسِداً
واعمل كما تأمرُ الدنيا بلا مَضْضٍ
فَمَنْ تَأَلَّمَ لم تُرَحِّمْ مَضاضتُهُ
هذي سعادةُ دُنْيَانَا، فكن رجلاً
وإن أردت قضاء العيش في دَعَاةٍ
فاترك إلى الناس دُنْيَاهُمْ وضجَّتْهُمْ
واجعل حياتك دَوْحاً مُزْهِراً نُضِراً
واجعل لياليك أحلاماً مُغْرَدَةً
في كَفْها، الغارُ أو في كَفْها العدم
غَنَّتْ لك الطيرُ، أو غَنَّتْ لك الرُّجْمُ
والجِمْ شعورك فيها، إنها صَنَمٌ
وَمَنْ تَجَلَّدَ لم تَهْزَأ به القَمَمُ
إن شئتَها - أبدأ الآبادِ - يبتسم!
شعرية لا يُغشى صفوها ندمٌ
وما بنوا النظام العيش أو رَسَمُوا
في عزلة الغابِ يَنمو ثم يَنعَدِمُ
إن الحياةَ وما تُدوي به حُلْمُ!



(1) حلم: كان ذا حلم، أي ذا عقل.

من أغاني الحياة

287

قصائد عام 1933

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 6/2/1933، وقد نظمها عندما كان يستشفى بـ
«عين دراهم» فوق الطبيعة العذراء الساحرة، والغابات الملتفة الهائلة، والجبال الشاهقة
المجللة بالسنديان.

أقبل الصبحُ يغنّي للحياة الناعسة
والريى تحلّم في ظلّ الغصون المائسة
والصبا تُسرقص أوراق الزهور اليبسة
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسة

* * *

أقبل الصبحُ جميلاً يملاً الأفق بهاه
فتمطّى الزهرُ والطيرُ وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحيّ، وغنّي للحياة!
فأفيقي يا خرافي وهلمي يا شياها

* * *

واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيور
واملئني الوادي ثغاءً ومراحاً وحبور
واسمعي همس السواقي وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يُغشيه الضباب المستنير
واقظني من كلال الأرض ومرعاهما الجديد
واسمعي شيايتي تشدو بمعسول النشيد
نغمٌ يصعد من قلبي كأنفاس الورود
ثمّ يسمو طائراً كالبلبل الشادي السعيد

* * *

وإذا جننا إلى الغابِ وغطّانا الشجر
فاقظني ما شئت من عشبٍ وزهرٍ وثمر

أرضعته الشمسُ بالضوءِ وغداه القمرُ
وارتوى من قطراتِ الطلِّ في وقتِ السحرِ

* * *

وامرحي ما شئتِ في الوديانِ أو فوقَ التلالِ
واربضي في ظلِّها ما شئتِ إن خفتِ الكلالِ⁽¹⁾
وامضغي الأعشابَ والأفكارَ في صمتِ الظلالِ
واسمعي الريحَ تُغني في شـماريحِ الجبالِ

* * *

إن في الغابِ أزاهيراً وأعشاباً عذباتِ
يُنشدُ النحلُ حوالينها أهزيجاً طرابِ
لم تدنسْ عطرها الطاهرَ أنفاسُ الذنابِ
لا ولا طافَ بها الثعلبُ في بعضِ الصحابِ
وشذاً حلواً، وسحراً وسلاماً وظلالِ
ونسياً ساحرَ الخطوةِ موفورَ الدلالِ
وغصوناً يبرقُ النورُ عليها والجبالِ
واخضراراً أبدياً ليسَ تمحوه الليالِ

* * *

لن تمليَ يا خرافي في حمى الغابِ الظليلِ
فزمان الغابِ طفلاً لآعبٍ عذبٍ جميلِ
وزمانُ الناسِ شيخٌ عابسُ الوجهِ ثقيلِ
يتمشى في ملالٍ فوقَ هاتيكِ السهولِ

* * *

لك في الغاباتِ مرعاكِ ومسعاكِ الجميلِ

(1) ورد البيت في الديوان: واربضي في ظلها الوارف إن خفت الكلال.

ولي الإنشاد والعزف إلى وقت الأصيل
فإذا طالت ظلال الكلا الغنصر الضئيل
فهلمني نرجع المسعى إلى الحسيّ النبيل



ينها الحامة بين العواصف

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 11/2/1933.

أنت كالزهرة الجميلة في الغابِ
والرياحين تحسب الحسك الشريد
فأفهمي الناس: إنما الناس خلق
والسعيد السعيد من عاش كالليل
ودعهم يجيئون في ظلمة الإثم
كالملاك البريء، كالوردة البيضاء
كأغاني الطيور، كالشفق الساحر
كثلوج الجبال، يغمرها النور

* * *

أنت تحت السماء روح جميل
وبنو الأرض كالقروء، وما أض
أنت من ريشة الإله، فلا تُل
أنت لم تُخلق لي يقربك النا
صاغه الله من عبر الورود
بيع عطر الورود بين القروء
قي بفرن السما جهل العبيد
س ولكن لتعبدني من بعيد !!



للنارخ

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 16/2/1933.

البؤس لابن الشعب يأكل قلبه والمجد، والإثراء للأغراب

والشعب معصوب الجفون ، مقسّم
والحق مقطوع اللسان مكبّل
كالشاة ، بين الذئب والقصاب
والظلم يمرح مُذهّب الجلباب
في دولة الأنصاب والألقاب
هذا قليلٌ من حياة مُرّة



صوت من السماء

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 8 / 3 / 1933 ، ويّن الشاعر رأيه فيها بأن الفجر لا يولد في الطبيعة إلا من الظلام.

في الليل ناديت الكواكب ساخطاً
«الحقلُ يملكه جبابرة الدجى
والنهر، للغول المقدسة التي
«وعرائس الغاب الجميل ، هزيلةُ
«ما هذه الدنيا الكريمة؟ ويلها!
«الكونُ مُضغ ، يا كواكبُ ، خاشعُ

متأسّج الآلام والآراب:
والروض يسكنه بنو الأرباب»
لا ترتوي . والغاب للحطّاب»
ظمأى لكل جنّي ، وكل شراب»
حقّت عليها لعنة الأحقّاب !
طال انتظاري ، فانطقي بجواب !

* * *

فسمعتُ صوتاً ساحراً ، متموجاً
وحفيفَ أجنحةٍ ترفرف في الفضاء
«الفجرُ يولدُ باسمًا ، مُتهللاً

فوق المروج الفيح ، والأعشاب
وصدى يرنّ على سكون الغاب:»
في الكون ، بين دُجّةٍ وضباب»



ذكرى صباح

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 9 / 3 / 1933 .

قدّس الله ذكره من صباح
كان فيه النسيم ، يرقص سكراناً
ساحر ، في ظلال غاب جميل
على الورد ، والنبات البليل
بديع ، على مروج السهول
وضباب الجبال ، ينساب في رفقٍ

والسهل، والربا، والتلول
والعطر، والضيء الجميل
وعُشْب، وسنديان، ظليل
ويرنو إلى الضباب الكسول
والضوء، والنسيم، والعليل

* * *

فواهاً لحلمه العسول !
في نشوة الخيال الجليل
وحنان، ولذة، وذهول
بأرجاء قلبي المتسول
يحان، والنور، والنسيم البليل
في فتنة الدلال الملول
ري، وأحلام قلبي الضليل
وسحر مقدس، مجهول
حرّاً، في مثل هذي الكبول

* * *

د، وطيات ليلك المسدول
وفؤاد، مُصَفِّد، مغلول
في شحوب، وخيبة، وخمول
كم في ظلامه من قتيل
بالنسيم السعيد كل تميل
في عُزْبِكَ، الجميل، النبيل
لك تاجاً، من الضياء الجميل
بك بأوراق ورده المطلول

* * *

وأغاني الرعاة، تحفّق في الأغوار
ورحاب الفضاء، تعبق بالأحان
والملاك الجميل، مابين ريجان
يتغنّى مع العصافير، في الغاب
وشعور الملاك ترقص بالأزهار

حُلمٌ ساحرٌ، به حلم الغاب
مثل رؤيا تلوح للشاعر الفنان
قد تملّيتُ سحره في أناة
ثم ناديتُ، حينما طفح السّحر
يا شعورٌ تيمد في الغاب بالر
كبليني بهاته الحُصلِ المُرَخاة
كيلي يا سلاسل الحبّ أفكا
كبليني بكل ما فيك من عطر
كبليني، فإنما يُصبح الفنان

ليت شعري ! كم بين أمواجك السو
من غرام، مُذهّب التاج، ميت
وزهور من الأمانيّ تَذوي
أنت لا تعلمين ..، والليل لا يعلم
أنت أزوجحة النسيم فميلي
والبشي للورود والظّل، والأضواء
ودعي الشمس والسما تُسوّي
ودعي مُزهر الغصون يُعشّ

للشعاع الجميل أنتِ ، وللأنسا
ودعي للشقي أشواقه الظمأى
يا عروسَ الجبال ، يا وردة الآ
ليتني كنتُ زهرةً ، تتشنى
أو فراشاً ، أحومُ حولك مسحوراً
أو غصوناً ، أحنو عليك بأوراقِي
أو نسيماً ، أضمُّ صدركِ في رفقِ ،
آه ! كم يُسعدُ الجمالُ ، ويُشقي

م ، والزهرِ ، فالعبي ، وأطيلي
وأوهامَ ذهنِهِ المعلول
مالِ ، يافتنةً الوجودِ الجليل
بين طياتِ شِعركِ المصقول !
غريقاً ، في نشوتي ، وذهولي !
حُنُوَ المذلِّهِ ، المتبول !
إلى صدرِي ، الخفوقِ ، النحيل
من قلوبِ شِعريّةِ ، وعقول ...



الرواية الغريبة

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 17 / 3 / 1933 .

ضحكنا على الماضي البعيد وفي غدٍ
وتلك هي الدنيا رواية ساحرٍ
يمثلها الأحياءُ في مسرح الأسي
ليشهد من خلف الضبابِ فصولها
وكلُّ يؤذي دوره ... وهو ضاحكٌ

ستجعلنا الأيامُ أضحوكة الآتي
عظيم ، غريبِ الفن مبدعِ آياتِ
ووسط ضبابِ الهمِّ تمثيلِ أمواتِ
ويضحك منها من يمثلُ ما يأتي
على الغير مضحكٌ على دوره العاتي !



الصباح الجديد

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 9 / 4 / 1933 ، وتعتبر واحدة من الأمل والتفاؤل
في مفازة الحزن الكبير، بث خلال أبياتها فرحه وعبر عن إيمانه بالحياة وجدواها.

اسكنني يا جـراخ
مات عهدُ النـواخ

واسكنني يا شـجون
وزمـانُ الجنـون

وأطـلَّ الصـبـاحُ مـن ورائـ القـمـرونُ

* * *

في فـجـاجِ الهـوى وندمـوتُ الصـدمـوعُ

لـريـحِ العـدمِ واندخـلتُ الحـيـاةُ

مـعـزفـةً لـلـنـغمِ أـتـغـنـى عـلـيـهـ

في رـحـابِ الزمـانِ

* * *

وأذـبـت الأـسـى ودرحـوت الفـؤادُ

في جمـالِ الوجـودِ والـضـياءِ والظـلالِ

واحـدةً لـلـشـيدِ والهـوى والشـبابِ

والشـذى والـورودِ وأسـكتي يا شـجونُ

والمنـى والحـنانِ ومات عهـدُ النـواحِ

وأسـكتي يا شـجونُ وأطـلَّ الصـبـاحُ

وزمـانِ الجنـونِ

* * *

مـعـبـدٌ لـلـجـمـالِ في فـؤادِ الرـحـيبِ

بـالرؤى والحـيـاةِ شـيدته الحـيـاةُ

وأضـوتُ البـخـورِ فتـلـوتُ الصـلاةُ

وأضـوتُ البـخـورِ وحرقـتُ البـخـورِ

* * *

إن سـحـرَ الحـيـاةِ خالـدٌ لا يـزولُ

فـعـلامَ الشـكـاةِ مـن ظـلامِ يـحـولُ

ثم يـأتـي الصـبـاحُ وتمـرُّ الفـصـولُ

سوف يأتي ربيعٌ إن تقضى ربيعٌ

* * *

اسكنني يا جراح واسكنني يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطلّل الصباح ممن وراء القرون

* * *

ممن وراء الظلام وهدير المياه
قد دعاني الصباح وربيع الحياه
ياله من دعاء هز قلبي صداه
لم يعذلني بقراء فوق هذي البقاغ
«ألوداع الوداع يا جبال الهموم»
«يا ضباب الأسى يا فجاج الجحيم»
«قد جرى زورقي في الخضم العظم»
«ونشرت القلاع فالوداع الوداع !!»



الحاني السكري

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 15/9/1933.

قد سكرنا بحبنا واكتفينا يا مدير الكؤوس فاصرف كؤوسك
واسكب الخمر للعصافير والنحو حل وخلّ الثرى يضمّ عروسك

* * *

مالنا والكؤوس نطلب منها نشوة والغرام سحرّ وسكر؟!
خلنا منك فالربيع لنا سا ق وهذا الفضاء كأس وخمر!

* * *

ساجي وكالنجلِ فوق غَضِّ الزهور
وأحلام قلبها المسحور!

* * *

من سعيدين في غرورِ الطفولة
ي وبين المخاوف المجهولة

* * *

ونغشي مع النسيم المغني
ن ونُصغي لقلبها المتغني

* * *

ض من الزهر والرؤى والخيال
ويغشي في نـشوة ودلال

* * *

ر في عالم بعيد ... بعيد
سُورَ الحب للشباب السعيد!

* * *

وا الحياة كيف أرادوا
وتركنا القشور، وهي جماد

* * *

طفح الكأس فاذهبوا يا سقاء
حسبنا ما منحتنا يا حياة

* * *

حسبنا كأسنا التي ترشف
أ وفي قلبنا ربيعاً مفوف ... !

* * *

نحنُ نحيا كالطير في الأفق الـ
لا نرى غير فتنة العالم الحي

نحن نلهو تحت الظلام كطفل
وعلى الصخرة الجميلة في الواد

نحنُ نغدو بين المروج ونمسي
ونساجي روح الطبيعة في الكو

نحنُ مثل الربيع نمشي على أر
فوقها يرقص الغرام ويلهو

نحنُ نحيا في جنة من جنان السح
نحن في عُشنا المورّد، نتلو

قد تركنا الوجود للناس فليقض
وذهبتنا بلبه، وهو روح

قد سكرنا بحبنا واكتفينا
نحن نحيا فلا نريد مزيداً

حسبنا زهونا الذي نتنشى
أن في ثغرنا رحيقاً سماوي

أَيُّهَا الدَّهْرُ أَيُّهَا الزَّمَنُ الجَا
أَيُّهَا الكَوْنُ أَيُّهَا الفَلَكُ الدَّوَّ
ري إلى غير وجهةٍ وقرارِ
أرُّ، بالفجر، والسدجى والنهارِ
* * *

أَيُّهَا المَوْتُ أَيُّهَا القَدَرُ الأعْ
ودعونا هنا تغنِّي لنا الأحـ
مى! قفوا حيث أنتم، أو فسيروا
سلامٌ والحسبُ والوجودُ الكبيرُ
* * *

وإذا ما أبيتُم فاحملونا
وزهورُ الحياةِ تعبئُ بالعطـ
ولهيب الغرام في شفتينا
رٍ وبالسحرِ والصبا في يدينا



إرادة الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 16 / 9 / 1933.

إذا الشعبُ يوماً أرادَ الحياةَ
ولا بدَّ لليلِ أن ينجلي
ومن لم يعانقْه شوق الحياةِ
فويل لمن لم تشقه الحياة
كذلك قالت لي الكائنات
فلا بدَّ أن يستجيبَ القَدَرُ !!
ولا بدَّ للقيدِ أن ينكسرَ !!
تبخَّر في جوِّها وانثرت
من صفة العدم المتصر
وحذثني روحها المستتر
* * *

ودمدت الريح بين الفجاج
«إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ
ولم أتخوَّفْ وعودِ الشِّعابِ
ومن لا يُحِبُّ صعودَ الجبالِ
فعبجت بقلبي دمَاءَ الشِّبابِ
وفوقَ الجبالِ وتحتَ الشجرِ:
لبستُ المنى وخلعتُ الحذرُ!
ولا كَبَّهَ اللهبُ المستعرُ⁽¹⁾
يعشُ أبدَ الدهرِ بين الحفرِ!
وضجت بصدري رياحُ أخرُ

(1) أتخوف: جاءت في الديوان: أتجنب.

وأطرقتُ أصغبي لقصف الرعود
وقالتي لي الأرض لما تساءلت
«أبارك في الناس أهل الطموح
وألعن من لا يماشي الزمان
هو الكون حي يُحبُّ الحياةَ
فلا الأفقُ يحضنُ ميتَ الطيورِ
ولولا أمومةُ قلبي الرؤوم
فويل لمن تَشَقُّهُ الحيا

* * *

وفي ليلة من ليالي الخريف
سكرتُ بها من ضياءِ النجومِ
سألت السدجى هل تعيد الحياة
فلم تستكلم شفاه الظلام
وقال لي الغاب في رقبة
«يجيءُ الشتاءُ شتاء الضباب
فينطفئ السحر، سحرُ الغصونِ
وسحر السماء الشجي الوديع
وتهوي الغصون وأوراقُها
وتلهو بها الريحُ في كلِّ وادٍ
ويفنى الجميعُ كحلسمٍ بديع
وتبقى البذورُ التي حملتُ
وذكرى فصولٍ، ورؤيا حياةٍ
معانقةٌ وهي تحت الضبابِ
لطيِّفِ الحياة السذي لا يَمَلُّ
وحاملةٌ بأغاني الطيورِ

مثقلةً بالأسى والـضجرِ
وغنيت للحزن حتى سَكِرَ!
لمن أذبلته ربيع العمر؟
ولم تترتم عذارى السَحَرِ
محببةً مثل خفق الوترِ:
شتاء الثلوج شتاء المطرِ
وسحرُ الزهور، وسحر الثمرِ
وسحر المروج الشهي العطرِ
وأزهار عهد حبيب نَضِرِ
ويدفنها السيل أنى عَبَرِ
تألق في مهجبةٍ وانـدثرِ
ذخيرةَ عمرٍ جميلٍ غبرِ
وأشباح دنيا تلاشت زُمَرِ
وتحت الثلوج وتحت المدَرِ
وقلب الربيع الشذي الخضرِ
وعُطرِ الزهورِ، وطعمِ الثَمَرِ

وتذوي صروفٌ ، وتحيا أحرز
 موثحةً برداء السحر
 وسحرُ المساء ، وضوء القمر
 ونحلُّ يغني ، وغيمٌ يمُر؟
 وأين الحياة التي أنتظر
 ظمئتُ إلى الظلِّ تحت الشجر
 يُغني ويرقصُ فوق الزهر
 وهمس النسيم وحن المطر
 وأنسى أرى العالم المنتظر؟!
 وفي أفق اليقظات الكبر!
 ح حتى نسا شوقها وانتصر!
 وأبصرت الكون عذب الصور!
 وأحلامه وصباه العطر
 تُعيدُ الشباب الذي قد غبر
 وخلدتُ من نسلك المدخر
 شباب الحياة وخصب العمر
 يباركهُ النورُ أتى ظهر!
 إليك الثرى الحالم المزهَر!
 إليك الوجود الرحيب النضر
 بحلو الثمار ، وغصن الزهر
 وناجي النجوم ، وناجي القمر
 وفننة هذا الوجود الأغر

* * *

يشبُّ الخيال ويذكي الفكر
 يُصرِّفه ساحر مقتدر

ويمشي الزمان ، فنتمو صروف
 وتصبح أحلامها يقظة
 تُسائلُ : أين ضباب الصباح
 وأسرابُ ذاك الفراش الأنيق
 وأين الأشعة والكائنات
 ظمئتُ إلى النورِ فوق الغصونِ
 ظمئتُ إلى النبعِ بين المروجِ
 ظمئتُ إلى نغمات الطيور
 ظمئتُ إلى الكون .. أين الوجود
 هو الكون خلف سبات الجمود
 وما هو إلا كخفق الجنا
 فصدعت الأرض من فوقها
 وجاء الرياح بأنغامه
 وقبلها قبالاً في الشفاه
 وقال لها قد منحت الحياة
 وباركك النور فاستقبلي
 ومن تعبد النور أحلامه
 إليك الفضاء إليك الضياء
 إليك الجمال الذي لا يبيد
 فميدي كما شئت فوق الحقول
 وناجي النسيم وناجي الغيوم
 وناجي الحياة وأشواقها

وشفّ الدجى عن جمال عميق
 ومُد على الكون سحر غريب

وضباع البخور، بخور الزهر
بأجنحة من ضياء القمر
س في هيكل حالم قد سُحِر
لهيب الحياة وروح الظفر
فلا بد أن يستجيب القدر !!

وضاءت شموع النجوم الوضاء
ورفرف روح غريب الجمال
ورنَّ نشيدُ الحياة المقدَّ
وأعلنَ في الكون أن الطموح
إذا طمَحَت للحياة النفوس



نحت الفنون

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 21 / 9 / 1933 .

والسنديان والزيتون
من جمال الطبيعة الميمون
وفي جيدك البديع الثمين !
وفي ثغرك الجميل الحزين !
فأصغي لصوتك المحزون
ضائعا في حلاوة التلحين !
ناعم، حالم، شجي حنون
في حنان، ورقة، وحنين
علوي، منغم، موزون
«للضياء» البنفسجي الحزين
كخيالات حالم مفتون
لسحر الأسي، وسحر السكون
ويفنى، مثل المنى في سكون
بمزماره الصغير الأمين
حياة الهوى وروح الحنين
والزهر والشذى واللحون

هاهنا في خمائل الغاب، تحت الزان
أنت أشهى من الحياة وأبهى
ما أرق الشباب في جسمك الغض
وأدق الجمال في طرفك الساهي
وألذ الحياة حين تُغنين
وأرى روحك الجميلة عطرا
قد تغنيت منذ حين بصوت
تغما كالحياة عذبا عميقا
فلماذا الكون قطعة من نشيد
فلمن كنت تُنشدين؟ فقالت:
للضباب المورّد المتلاشي
للمساء المطل، للشفق الساجي
للعبير الذي يرفرف في الأفق
للأغاني التي يردها الراعي
للربيع الذي يؤجج في الدنيا
ويوشّي الوجود بالسحر والأحلام

على السهلِ، والربى، والحزونِ
لهذا الثرى، لتلك الغصونِ
بعطرِ الأقحاحِ والليمونِ
لأشواقِ قلبي المشجونِ
بضوءِ المنى، وظلِّ الشجونِ
ليأس، للأسى، للمنونِ

* * *

من يغنيه؟ من يجيبُ شجونى؟⁽¹⁾
قُبلاً عبقريةً التلحينِ
وأنارتْ له ظلامَ السنينِ
على لحنها العميقِ الرصينِ

* * *

قولي، تكلمي، خبريني
طالعتني في ضوءِ هذي العيونِ؟
يُغنونَ في حنوِّ حنونِ
بزهرِ التفاحِ والياسمينِ
أطافتْ به عذارى الفنونِ
كأحلامِ شاعرٍ مجنونِ!
مسكِرٍ؟ أيُّ نشوةٍ وجنونِ؟
في شفاهِ، بديعةِ التكوينِ
ونورِ الهوى، وظلِّ الشجونِ
بردهِ في مسانئنا الميمونِ؟
على ثغرها، قويُّ الفتونِ

للحياةِ التي تغني حوالِيَّ
للينابيعِ، للعصافيرِ، للظللِ،
للنسيمِ الذي يضمخُ أحلامي
للجمالِ الذي يفيضُ على الدنيا
للزمانِ الذي يوشحُ أيامي
للشبابِ السكرانِ، للأملِ المعبودِ

فتنهَّدتْ، ثمَّ قلتُ: «وقلبي»
قالتِ: «الحبُّ» ثمَّ غنَّتْ لقلبي
قُبلاً، علمتْ فؤادي الأغاني
قُبلاً، تُرقصُ السعادةِ والحبِّ

وأقننا، فقلتُ كالحالمِ المسحورِ:
أي دنيا مسحورة؟ أيُّ رؤيا
زمرُّ من ملائِكِ الملائِ الأعلى
وصبايا رواقصُ... يتراشقنَ
في فضاءِ، مورِدِ، حالمِ، ساءِ
وجحيمِ توج تحتَ فراديسِ
أيُّ خميرِ مؤجِّجِ، وهيبِ
أي خميرِ رشفتِ؟ بل أيُّ نارِ؟
ورَدتها الحياةُ في لهبِ السحرِ،
أيُّ إثمِ مقدسٍ قد لبسنا
فبدا طيفُ بسمَةِ ساحرِ، عذبِ

(1) كلمة يجيب، في الديوان: يبيد.

وَتُغْرِي بِالْحَبِّ بِلِ الْجُنُونِ :
فَعِنْدَ الظَّلامِ عِلْمُ اليَقِينِ

* * *

فَأصغى حتى حفيفُ الغصونِ
من السحرِ، والرؤى، والسكونِ
مشيداً على فجاجِ السنينِ
صامتاً في مسيله المحزونِ
بعيداً عن ظلِّه المأمونِ
على الصخرِ، والثرى، والغصونِ
من بخورِ الربيعِ، جسمَ الفتونِ
أوقدتها للحبِّ رُوحَ القرونِ
وتشدو في عمقِ ذاك السكونِ
فتوسلت ... ضارعاً .. بجفوني :
بلهيبِ الحياةِ بلِّ قبليني !
في ثغركِ الشهيِّ الحزينِ
قد صاغها إلهُ الفنونِ
وقلبي، وفتنتي، وجنوني
لجمالِ الدجى بوحى العيونِ
وحياةُ في فؤادي المفتونِ !⁽¹⁾
يمشي عل السدى والحزون
تغني لحننا الميمون
بعيدُ المدى، قويُّ الفتون
والحبِّ .. فابسمي، والثميني

وأجابت ... وكلها فتنة تُغوي
أبدأ أنتَ حالمٌ .. فاسألِ الليلَ

وسكتنا، وغرَّدَ الحبُّ في الغابِ
وبنى الليلُ والربيعُ حوائينا
معبداً للجمالِ والحبِّ، شِعْرياً
تحتَه يُزخرُ الزمانُ ويجري
وتمرُّ الآلامُ، والحزنُ، والموتُ
معبداً ساحراً، مباخره الزهرُ
كلُّ زهرٍ يَضوعُ منه أريجُ
ونجومِ السماءِ فيه شموعُ
ومضت نسمة توسوسُ للغابِ
وطغى السحرُ والغرامُ بقلبي
طهَّري يا شقيقةَ الروحِ ثغري
إنَّ نارَ الحياةِ، والكواثرِ المنشودِ
فهو كأسٌ سحريةٌ لرحيقِ الخلدِ
قبليني، وأسكري ثغري الصادي
علني أستطيعُ أن أتغنِّي
أه ! ما أجملَ الظلامَ ! وأقوى
انظري الليلَ فهو حُلَّةُ الأحلامِ
واسمعي الغابِ، فهو قيثارة الكونِ
إن سحر الضبابِ والليلِ والغابِ
وجمال الظلامِ يعبق بالأحلامِ

(1) في الديوان زيادات وتعديلات كثيرة.

آه ما أعذب الغرام! وأحلى رنة اللثم في خشوع السكون

* * *

... وسكرانا هناك ... في عالم الأحلام
وتواري الوجود عنا بما فيه ..
وتغيبنا في عالم مفتون ..
ونسينا الحياة، والموت، والسكون
تحت السماء، تحت الغصون ..
وما فيه من مُنى ومُنون



إلى الشعب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 15/10/1933.

أين يا شعبُ قلبك الخافق الحساس؟ أين الطموح، والأحلام؟
أين يا شعبُ، روحك الشاعر الفنان؟ أين، الخيال والإلهام؟
أين يا شعب، فنك، الساحر الخلاق؟ أين الرسوم والأنغام؟
إنَّ يَمَّ الحياة يدوي حوائك أين فأين المغامر، المقدم
أين عزم الحياة؟ لا شيء إلا الموت، والصمت، والأسى، والظلام
عمرٌ ميّتٌ، وقلبٌ خواءٌ ودُمٌّ، لا تثميره الآلام
وحياةٌ، تنام في ظلمة الوادي وتنمو من فوقها الأوهام
أئي عيش هذا، وأئي حياة؟! (رَبِّ عَيْشٍ أَخْفَ مِنْهُ الْجِئَامُ) (1)

* * *

قد مشت حولك الفصول وغتتك فلم تبتهج، ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف والأنواء حتّى أوشتك أن تتحطم
وأطافت بك الوحوش وناشتك فلم تضطرب، ولم تتألم
يا إلهي! أما تحس؟ أما تشدو؟ أما تشتكي؟ أما تتكلّم؟

(1) عجز هذا البيت للمتنبي، وصدرة: ذل من يغبط الذليل بعيش.

وَأَنْقَبَاصَ عُمْرِكَ الْمُنْتَهَدَمِّ
فِيمَشِي، بِلْ كَائِنٌ، لَيْسَ يُفْهَمُ
جَامِدٍ، لَا يَرَى الْعَوَالِمَ، مُظْلِمِ
شَقِيٍّ؟ أَوْ مَارِدٌ، يَسْتَهْكَمُ؟

* * *

فِيلْسُوفٌ، مُحْطَّطٌ فِي إِهَابِهِ
وَعَزْمُ الْحَيَاةِ فِي أَعْصَابِهِ
فِي «قُبُورِ الزَّمَانِ» خَلْفَ هَضَابِهِ
فِي «قَبْرِ أَمْسِهِ» غَيْرَ آبِهِ ...
فِيهِ أَيَّامُ عُمْرِهِ الْمُتَشَابِهِ
وَمَا كَانَ مِنْ قَدِيمِ رِغَابِهِ
بِكَ فِي صَمْتِ قَلْبِهِ، وَخِرَابِهِ
فَدُنْيَا الْعَجُوزِ ذِكْرِي شَبَابِهِ ...

* * *

جَمِيلًا، كَالزَّهْرِ غَضًّا صَبَابًا
فِيخِي قَلْبَ الْجَمَادِ غِنَابًا
الورد، والعشب، مُنْشِدًا، تِيَاهَا
جَمَالَ الْوَجُودِ فِي مَرَاهَا
إِنَّ الْحَيَاةَ يُغْوِي بِهَاهَا
يُغْرِي بِجَهَا وَهَوَاهَا
بَعِيدًا عَنِ سِحْرِهَا وَصَدَاهَا
وَخَلَّ الْحَيَاةَ تَحْطُو خَطَاهَا

* * *

تُغْنِي بَيْنَ الْمَرْوَجِ الْجَمِيلَةِ
بِصَوْتِ الْمَحَبَّةِ، الْمَعْسُولَةِ

مَلَّ نَهْرُ الزَّمَانِ أَيَّامَكَ الْمَوْتَى
أَنْتَ لَا مَيِّتَ فَيْبَلِي، وَلَا حَيٍّ
أَبْدًا يَرْمُقُ الْفِرَاعَ بِطَرْفِ
أَيِّ سِحْرِ دِهَاكَ، هَلْ أَنْتَ مَسْحُورٌ

أَهْ! بَلْ أَنْتَ فِي الشُّعُوبِ عَجُوزٌ،
مَاتَ شَوْقُ الشَّبَابِ فِي قَلْبِهِ الذَّائِي،
فَمَضَى يَنْشُدُ السَّلَامَ ... بَعِيدًا ...
وَهَنَّاكَ، اصْطَفَى الْبَقَاءَ مَعَ الْأَمْوَاتِ،
وَارْتَضَى الْقَبْرَ مَسْكِنًا، تَتَلَاشَى
وَتَنَاسَى الْحَيَاةَ وَالزَّمَانَ الدَّائِي
فَالزَّمِ الْقَبْرَ ... فَهَوِيَّتْ، شَبِيهٌ
وَاعْبُدِ «الْأَمْسَ» وَادْكِرْ صُورَ الْمَاضِي

وَإِذَا مَرَّتْ الْحَيَاةُ حَوَالَيْكَ
تَتَغْنَى الْحَيَاةَ بِالشُّوقِ وَالْعَزْمِ
وَالرَّبِيعُ الْجَمِيلُ يَرْقُصُ فَوْقَ
وَمَشَى النَّاسُ خَلْفَهَا، يَتَمَلَّوْنَ
فَاخْذَرْ السَّحْرَ! أَيُّهَا النَّاسُ الْقَدِيسُ،
وَالرَّبِيعُ الْفَنَّانُ شَاعِرُهَا الْمَفْتُونُ
وَتَمَلَّ الْجَمَالَ فِي رِمَمِ الْمَوْتَى ...!
وَتَغَزَّلْ بِسِحْرِ أَيَّامِكَ الْأُولَى

وَإِذَا هَبَّتِ الطُّيُورُ مَعَ الْفَجْرِ،
وَتُحْيِي الْحَيَاةَ، وَالْعَالَمَ الْحَيَّ،

والفراش الجميل رَفَرَفَ في الروض ،
وأفاق الوجودُ للعملِ المُجْدِي
ومشى الناس في الشُّعاب ، وفي الغاب
ينشدون الجمالَ ، والنُّورَ ، والأفراحَ
فاغضض الطرفَ في الظلام ! وحاذِرْ
وصباحَ الحياةِ لا يُوقِظُ المَوْتَى

* * *

يناجي زهورَهُ المَطْلُولَةَ
وللسَّعي ، والمعانيِ الجليلَةَ
وفوق المسالكِ المجهولَةَ
والمجدَ ، والحياةَ النبيلَةَ
فَتَنَّةَ النُّورِ ! فَهِيَ رُؤْيَا مَهْوَلَةَ
ولا يرحمُ الجفونَ الكليلَةَ

كُلُّ شَيْءٍ يُعَاطِفُ العَالَمَ الحَيِّ ،
والذي لا يُجَابِبُ الكونَ بالإحساسِ
كُلُّ شَيْءٍ يُسَايِرُ الزَمَانَ المَاشِي
كُلُّ شَيْءٍ - إِلَّا كَ - حَيِّ ، عَطُوفٌ
فَلِمَاذَا تَعِيشُ فِي الكونِ يَا صَاحِحِ !
لَسْتَ يَا شَيْخَ الحَيَاةِ بِأَهْلٍ
أَنْتَ قَفَرٌ جَهَنَّمِي لَعِينٌ ،
لَا تَرِفُ الحَيَاةَ فِيهِ ، فَلَاطِيرٌ

* * *

أَنْتَ يَا كَاهِنَ الظَّلَامِ حَيَاةً
كَافِرٌ بِالحَيَاةِ والنُّورِ .. ، لَا يُصْغِي
أَنْتَ قَلْبٌ ، لَا شَوْقَ فِيهِ وَلَا عِزَمَ
أَنْتَ دُنْيَا ، يُظَلِّلُهَا أَفَقُ المَاضِي
مَاتَ فِيهَا الزَّمَانُ ، وَالكُونُ إِلَّا
وَالشَّقِيَّ الشَّقِيَّ فِي الأَرْضِ قَلْبٌ
أَنْتَ لَا شَيْءَ فِي الوجودِ ، فَعَادِرُهُ

تعبد الموت ، ! أنت روح شقي
إل الكون قلبه الحجري
وهذا داء الحياة الدوي
وليل الكآبة الأبدية
أمسها الغابر ، القديم ، القصي
يومه ميّت ، وماضيه حي
إلى الموت فهو عنك غني



الناس

نظم الشاعر الأبيات بتاريخ 8 / 12 / 1933 .

ما قدّس المثل الأعلى وجلّه
ولو مشى فيهم حياً لحطّمه
لا يعبد الناس إلاّ كلّ منعدم
حتى العباقره الأفذاذ حُبّه
في أعين الناس إلاّ أنه حلم
قومٌ، وقالوا بخبثٍ: إنّه صنمٌ
ممنوعٍ، ولمن حاباهم العدم
يلقى الشقاء وتلقى مجدها الرمم
حتى إذا ما توارى عنهم ندموا
يمشي الزمانُ وريحُ الشرّ تحتمدُ
الويلُ للناسِ من أهوائهم أبداً



منابع العظمة

نظم الشاعر هذين البيتين بتاريخ 11 / 12 / 1933، وهما في الحكمة.

إذا صغرت نفس الفتى كان شوقه
ومن كان جبار المطامع لم يزل
صغيراً، فلم يتعب، ولم يتجشّم
يلاقي من الدنيا ضراوة قشعَم



نشيد الجبار

أو: هكذا غنك بروميثيوس

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 15 / 12 / 1933، وفي القصيدة يعلن الشاعر
ثورته وعصيانه وفيها يظهر الشاعر متمرداً.

سأعيشُ رغمَ الداءِ والأعداءِ
أرنبو إلى الشمسِ المضيئة هائلاً
لا أرمق الظلّ الكئيبَ ولا أرى
وأسيرُ في دنيا المشاعرِ حالماً
كالنسرِ، فوقَ القمّةِ الشمّاءِ
بالسُحُبِ، والأمطارِ، والأنواءِ
ما في قرارِ الهوّةِ السوداءِ
غَرِداً، وتلكَ سعادة الشعراءِ
وأذيبُ روحَ الكونِ في إنشائي
أصغي لموسيقى الحياةِ ووحيتها

وأصيحُ للصوتِ الإلهي الذي

وأقولُ للقَدَرِ الذي لا ينشي

«لا يُطفئُ اللهبَ المَوْجَجَ في دمي

فأهدمُ فؤادي ما استطعت فإنه

لا يعرفُ الشكوى الذليلةَ والبكا

ويعيشُ جباراً يحدِّقُ دائماً

واملاً طريقي بالمخاوف والصدجى

وانشرْ عليه الرعبَ وانشرْ فوقهُ

سأظلُّ أمشي رغمَ ذلك عازفاً

أمشي بروحِ حالمٍ، متوهِّجٍ

النورُ في قلبي وبينَ جوانحي

إني أنا النايُّ الذي لا تنتهي

وأنا الخضمُّ الرطبُ، ليس تزيده

أما إذا خمدت حياتي وانقضى

وخباهيبُ الكونِ في قلبي الذي

فأنا السعيدُ بأنني متحوِّلٌ

لأذوبَ في فجرِ الجمالِ السرمد

وأقولُ للجمعِ الذين تجشّموا

ورأوا على الأشواكِ ظلي هامداً

وغدوا يشبُّون اللهبَ بكلِّ ما

ومضوا يمدُّون الخوانَ ليأكلوا

إنِّي أقولُ لهمْ ووجهي مشرق

يحيي بقلبي ميّتَ الأصدا

عن حربِ أمالي بكلِّ بلاءٍ :

موجُ الأسي، وعواصفُ الأرزاءِ

سيكونُ مثلَ الصخرةِ الصماءِ

وضراعةَ الأطفالِ والضعفاءِ

بالفجرِ .. بالفجرِ الجميلِ النائي

وزوابعِ الأشواكِ والخصباءِ

رُجمَ الردىِ وصواعقَ البأساءِ

قيثاراتي مترنِّماً بغنائتي

في ظلمةِ الآلامِ والأدواءِ

فعلامَ أخشى السيرَ في الظلماءِ ؟

أنغامُهُ ما دامَ في الأحياءِ

إلا حياةً سطوةَ الأنواءِ

عمري وأخرَسَتِ المنيّةُ نائي

قد عاشَ مثلَ الشعلةِ الحمراءِ

عن عالمِ الأثامِ والبغضاءِ

يِّ وأرتوي من منهلِ الأضواءِ

هدمي وودُّوا الويخِرُ بنائي

فتخيلوا أني قضيتُ ذمائي

وجدوا ... ليشوا فوقهُ أشلائي

لحمي ويرتشفوا عليه دمائي

وعلى شفاهي بسمّةُ استهزاء :

والنبارُ لا تأتي على أعضائي
ملقى لعصفِ الزعزعِ النكباءِ⁽¹⁾
يا معشرَ الأطفالِ تحتَ سماءي
بالهولِ قلبُ القبةِ الزرقاءِ
فوقَ العواصفِ في الفضاءِ النَّائي
خوفَ الرياحِ الهوجِ والأنواءِ
غثَّ الحديدِ وميَّت الآراءِ
وتجاهروا ما شئتمْ بعدائي
والشمسُ والشفقُ الجميلِ إزائي:
لم يحتفل بحجارةِ الفلتاءِ!!

«إن المعاولَ لا تهْدُ مناكبي
حتَّى ولو أمسيتُ جسماً ميتاً
فارموا إلى النارِ الحشائشَ والعبوا
وإذا تمردتِ العواصفُ وانتشى
ورأيتموني طائراً مترئماً
فارموا على ظلي الحجارةَ واحتفوا
وهناك في أمن البيوت تطارحوا
وترتموا ما شئتمْ بشتائمي
أما أنافأجيكم من فوقكم
«من جاش بالوحي المقدس قلبه



زبوة في الظلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24 / 12 / 1933 .

لو كانتِ الأيام في قبضتي
وقلتُ: «ياريحُ بها فاذهبي
بل في فجاجِ الموتِ في عالم

أذريتها للريحِ مثل الرمالِ
وبسددِها في سحيقِ الجبالِ
لا يرقصُ النورُ به والظلالُ»

* * *

لو كان هذا الكونُ في قبضتي
ما هذه الدنيا وهذا الورى
النارُ أولى بعييدِ الأسى

ألقيتهُ في النارِ : نارِ الجحيمِ
وذلك الأفقُ وتلك النجومِ
ومسرحِ الموتِ وعُشُّ الهمومِ

* * *

يا أيها الماضي الذي قد قضى
وضممه الموتُ وليلُ الأبدِ

(1) هذا البيت غير موجود في الديوان.

يا حاضراً الناس الذي لم يزل يا أيها الآتي الذي لم يلد
سـخافةً دنياكم هذه تائهة في ظلمةٍ لا تُحذ



قصاصه عام 1934

وعددها تسع قصائد:

- الإيمان بالحياة، أو الاعتراف.
- إلى طغاة العالم.
- الغاب.
- الدنيا الميتة.
- قال قلبي للإله.
- قلب الشاعر.
- حرم الأمومة.
- شكوى ضائعة.
- فلسفة الشعبان المقدس.

الإيمان بالحياة

١٥: الاعتراف

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 17/2/1934، نشرت في مجلة أبولو بعنوان (الإيمان بالحياة)، لكن عنوانها في الديوان (الاعتراف).

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي
أني سأظماً للحياة، واحتسي
وأعودُ للندى بقلبي خافقٍ
ولكل ما في الكون من صور المنى
حتى تحركت السنون، وأقبلت
فإذا أنا ما زلت طفلاً، مولعاً
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها
إن ابن آدم في قرارة نفسه
- ومشاعري عمياء بالأحزان -
من نهرها المتوهج النشوان
للحبِّ، والأفراح، والألحان
وغرائب الأهواء والأشجان
فتن الحياة بسحرها الفتان
يتعقب الأضواء والألوان
ضربٌ من البهتان والهذيان
عبدُ الحياة الصادقُ الإيمان



قلب الشاعر

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 16/3/1934.

كل ما هبَّ وما دبَّ وما
من طيورٍ وزهورٍ وشذى
وبحارٍ وكهوفٍ وذرى
وضيائٍ وظلالٍ ودجى
وثلوجٍ وضبابٍ عابرٍ
وتعاليمةٍ وديمينٍ ورؤى
كلها تحيا بقلبي حرةً
قامَ أو حامَ على هذا الوجود⁽¹⁾
وينابيعٍ وأغصانٍ تميذُ
وبراكينٍ ووديانٍ وبيدُ
وفصولٍ وغيومٍ ورعودُ
وأعاصيرٍ وأمطارٍ تجودُ
وأحاسيسٍ وصمتٍ ونشيدُ
غضةً السحرِ كأطفالٍ الخلودُ

(1) في الديوان نام بدلاً من قام

يرقصُ الموتُ وأطيافُ الوجودِ
ها هنا تخفقُ أحلامُ الوردِ
ها هنا تُعزفُ ألحانُ الخلودِ
والأسى؛ في موكبِ فخمِ النشيدِ
ها هنا الليلُ الذي ليسَ يبيدُ!
خالِدِ الثورةَ مجهولِ الحدودِ
صورُ الدنيا وتبدو من جديد!

ها هنا في قلبي الرحبِ العميقِ
ها هنا تعصفُ أهوالُ الدجى
ها هنا تهتفُ أصداؤُ الفنونِ
ها هنا تمشي الأماني والهوى
ها هنا الفجرُ الذي لا يتتهي
ها هنا أَلْفُ خِصَمِّ ثائرِ
ها هنا في كسلٍ أن تَمحي



الى طفلة العالم

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 8/4/1934، ويتوقع فيها الشاعر أن العاصفة
سوف تجهز على الظالمين ليزغ فجر الحياة الجديد:

ألا أيها الظالم المستبد
سخرت بآفات شعب ضعيف
وسرت نُشوهُ بسحرِ الوجود
حبيب الظلام، عدو الحياة
وكفك مخضوبة من دماء
وتبذر شوك الأسى في رُباهُ

* * *

رؤيـدك! لا يخذعك الربيعُ
ففي الأفقِ الرحبِ هوَلُ الظلامِ
حذار! فتحت الرماد اللهبُ
وصحوُ الفضاء، وضوء الصباح
وقصفُ الرعود، وعصف الرياح
ومن يبذر الشوك يجن الجراح

* * *

تأمل! هنالك أتى حصدت
ورويـت بالدم قلبَ الترابِ
سيجرفك السيلُ، سيلُ الدماءِ
رموسَ الورى، وزهورَ الأملِ
وأشربته الدمعَ، حتى ثمل
ويأكلُك العاصفُ المشتعل



نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 23 / 7 / 1934 .

بيتٌ ، بَنَتْه لِي الحِياةُ من الشَّذى ،
 بيتٌ ، من السحر الجميل ، مُشِيدٌ
 في الغابِ سِحْرٌ ، رائِعٌ مُتجدِّدٌ
 وشذَى كأجنحة الملائك ، غامِضٌ
 وجداولٌ ، تشدو بمعسول الغنا
 ومخارفٌ نَسَجَ الزمانُ بساطها
 وحنًا عليها الدَّوْحُ ، في جَبْروته
 في الغاب ، في تلك المخارف ، والرِّباء
 كم من مشاعرٍ ، حلوة ، مجهولة
 غَنَّتْ ، كأسراب الطيور ، ورفرفت
 ولكم أَصَحَّتْ إلى أناشيد الأسي
 وإلى الرياح النائحات كأنها
 وإلى الشبابِ ، مُغَنِّيًّا ، مُتَرَنِّمًا
 وسمعتُ للطير ، المغرِّد في الفضاء
 وإلى أناشيد الرعاة ، مُرْفَعةً
 وإلى الصدى ، الممرح ، يهتف راقصًا
 حتى غَدَا قلبي كنايٍ ، مُتَرَعٍ
 فشدوتُ باللحن الغريب مُجَحَّحًا
 في الغاب ، دنيا للخيال ، وللرؤى ،
 لله يومض مضيئٌ أوَّلَ مَرَّةٍ
 ودخلته وحدي ، وحولي موكبٌ
 ومشيتُ تحت ظلاله مُتَهَيِّبًا

والظلل ، والأضواء ، والأنغام
 للحبِّ ، والأحلام ، والإلهام
 باقٍ على الأيام والأعوام
 ساهٍ يُرفرف في سكونٍ سام
 وتسيرُ حاملةً ، بغير نظام
 من يابس الأوراق والأكمام
 بالظلل ، والأغصان والأنسام
 وعلى التَّلَاعِ الحُضْرِ ، والآجام
 سَكْرَى ، وَمِنْ فِكْرٍ ، ومن أوهام
 حولي ، وذابت كالدخان ، أمامي
 وتنهَّدِ الآلام والأسقام
 في الغاب تبكي مَيِّتَ الأيام
 حولي بألحان الغرام الظامي
 والسَّنديان ، الشامخ ، المتسامي
 في الغاب ، شادية كسرب يمام
 بين الفجاج الفسيح والآكام
 ثَمَلٍ من الألحان والأنغام
 بكآبة الأحلام والآلام
 والشعرِ ، والتفكيرِ ، والأحلام
 للغاب ، أرزُح تحت عبء سقامي
 هَزِجٌ ، من الأحلام الأوهام
 كالطفل ، في صَمْتٍ ، وفي استسلام

أرنبو إلى الأذواج ، في جبروتها
 قد مسَّها سحرُ الحياة ، فأورقت
 وأصيحُ للصّمتِ المفكر ، هاتِفاً
 فإذا أنا في نشوةٍ شعريّةِ
 ومشاعري في يقظةٍ مسحورةِ
 وُسْنِي كيقظة آدمَ لمَّا سرى
 وُسَجَّنَتْهُ موسيقى الوجودِ، وعانقتْ أحلامه ، في رقةٍ وسلام
 ورأى الفراديسَ ، الأنيقةَ ، تنشي
 ورأى الملائك ، كالأشعةَ في الفضاء
 وأحسَّ رُوحَ الكونِ تخفق حوله
 والكائناتِ ، تحوطه بحنانها
 حتى تملأ بالحياة كيأئنسه
 ولرُبِّ صُبجِ غائمِ ، مُتَحجِّبِ
 تنفَّسُ الدنيا ضباباً ، هائماً
 والريحُ تخفق في الفضاء ، وفي الثرى
 باكرتُ فيه الغاب موهون القوى
 وجلستُ تحتَ السنديانة ، واجماً
 فأرى المباني في الضباب ، كأنها
 أو عالمٌ ، ما زال يُوكدُ في فضاء
 وأرى الفجاجَ الدامساتِ ، خلالةً
 فكأنها سُعبُ الجحيمِ ، رهيبةً
 صورٌ ، من الفنِّ المروّعِ ، أعجزت
 ولكم مساءً ، عالمٌ متوشِّحِ

فإخالها عمَدَ السماء ، أمامي
 وتمايلت في جنّةِ الأحلامِ
 في مساعي بغرائب الأنعامِ
 فيأصّةً بالوحي والإلهامِ
 ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
 في جسمه رُوحَ الحياة النامي
 وعانقتْ أحلامه ، في رقةٍ وسلام
 في مُشْرِفِ الأزهار والأكمامِ
 تنسابُ سابحةً ، بغير نظامِ
 في الظّلِّ ، والأضواء ، والأنسامِ
 وبجبّها ، الرحبِ ، العميقِ ، الطامي
 وسعى وراء مواكب الأيامِ
 في كِلّيةٍ من زغزغ وغمامِ
 مُتَدَفِّعاً في أفقهِ المُترامي
 وعلى الجبال السُّمِّ ، والآكامِ
 متخاذلَ الحطّوات والأقدامِ
 أرنبو إلى الأفق الكئيب ، أمامي
 فكُرٌ ، بأرض الشكِّ والإبهامِ
 الكونِ ، بين غياهبٍ وسدَامِ
 ومشاهدَ الوديان والآجامِ
 ملفوفةً في عُبْشيةٍ وظلامِ
 وحي القريضِ وريشة الرسامِ
 بالظلل ، والضوء الحزين السدامي

في نشوة الأحلام والإلهام
منشورة للأنسور والأنسام
والأرض بالأعشاب والأكمام
والأفق، والشفق الجميل، أمامي
فيرن قلبي بالصدى وعظامي
فوق الزمان الزاخر الدوام

* * *

حرم الطبيعة والجمال السامي
ولقيت في دنيا الخيال سلامي
سكرى من الأوهام والآثام!
وجماله قبساً، أضاء ظلامي
كنضارة الزهر الجميل النامي
وأجل من حزني ومن آلامي
نشوان بالقلب الكئيب الدامي:
يا كاهن الأحزان والآلام
والبس رداء الشعر والأحلام
مشوبة بحرارة الإلهام
كجمال هذا العالم البسام
وارقص مع الأضواء والأنسام
(1) «.....»

ونثرتها لعواصف الأيام
من صوت أحزاني، وبطش سقامي
كالنهر في فكري، وفي أحلامي

قد سرت في غابي، فكفر، هائم
شعري، وأفكاري، وكُلُّ مشاعري
والأفق يزخر بالأشعة والشدى
والغاب ساج، والحياة مصيخة
وعروس أحلامي تداعب عودها
روح أنا، مسحورة، في عالم

في الغاب، في الغاب الحبيب، وإنه
طهرت في نار الجمال مشاعري
ونسيت دنيا الناس، فهي سخافة
وقبست من عطف الوجود وحبه
فأريت ألوان الحياة نضيرة
ووجدت سحر الكون أسمى عنصراً
فأهبت - مسحوراً المشاعر، حالماً
«المعبد الحي المقدس هاهنا!
«فاخلع مسوح الحزن تحت ظلاله
«وارفع صلاتك للجمال، عميقة
«واصدح بألحان الحياة، جميلة
«واخفق مع العطر المرفرف في الفضاء
«ومع الينابيع الطليقة والصدى،
وذرت أفكاري الحزينة للذجي
ومضيت أشدو للأشعة ساحراً
وهتفت: «يا روح الجمال تدفقي

«وتغلغلي كالنور، في روحي التي ذُبَلْتُ من الأحزان والآلام»
 «أنتِ الشعورُ الحيُّ يزخر دافقاً كالنار، في روح الوجود النامي»
 «ويصوغ أحلام الطبيعة، فاجعلي عُمري نشيداً، ساجِرَ الأنغام»
 «وشذّي يَصُوغُ مع الأشعة والرؤى في معبد الحق الجليل السامي»



حرج الأمومة

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 3 / 8 / 1934.

الأم تلثم طفلها، وتضمه
 تتأله الأفكار وهي جواره
 حرم الحياة يظهرها وحنانها
 هل فوقه حرم أجل وأقدس؟
 بوركت يا حرم الأمومة والصبا
 كم فيك تكتمل الحياة وتقْدُسُ
 حرم سماوي الجمال مقدس
 وتعود طاهرة هناك الأنفُسُ



شكوى ضائعة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 5 / 8 / 1934، وهي من روائع الشابي فيها يهجر
 القدر الذي يقرنه بالوحش الخفي.

يا ليل! ما تصنع النفس التي سكنت
 ترضى وتسكت؟ هذا غير محتمل!
 وذا جنون لعُمري، كُله جَزَعُ
 فإنما الموت ضرب من حبائله
 هذا هو اللغز، عَمَاهُ وَعَقَدُهُ
 قد كَبَّلَ القدرُ الضاري فرائسه
 وخاطأ أعينهم، كي لا تشاهده
 وحاظهم بفتون من حبائله
 هذا الوجود، ومن أعدائها القدر؟
 إذا، فهل ترفض الدنيا، وتنتحر؟
 بالك، ورأيي مريض، كُله حَوَر!
 لا يُفَلتُ الخلق ما عاشوا، فما النظر؟
 على الخليقة، وحش، فاتك حذر
 فما استطاعوا له دفعا، ولا حَزَرُوا
 عين، فتعلم ما يأتي وما يذر
 فما لهم أبداً من بطشه وزر

ولا الحياةُ . تَسَاوَى النَّاسُ وَالْحَجَرُ !
 أَنْ يَحْذَرُوهُ ، وَهَلْ يُجِدُهُم الْحَذَرُ
 مِنَ الْخَطُوبِ ، وَكَوْنِ كُلِّ خَطِرٍ ؟
 هَوْلَ الظَّلَامِ ، وَلَا عِزْمٌ وَلَا بَصْرٌ ؟
 فَاسْتَسْلَمُوا لِسُكُونِ الرَّعْبِ ، وَانْتَظَرُوا ..
 مِنَ السُّورَى زُمَرٌ ، فِي إِثْرِهَا زَمَرُ
 وَالْبَحْرِ ، وَالْبَرْ ، وَالْأَفْلَاكُ ، وَالْعُصْرُ
 سَرًّا ، فَغَنَعُوا لَهَا قَهْرًا ، وَنَأْتَمُرُ
 كَالْمَوْتِ ، لَكِنْ إِلَيْهَا الْوِرْدُ وَالصَّدْرُ

* * *

تلك النجوم ، ومات الجنُّ والبشرُ
 - كالفيلسوف - إلى الدنيا ، ويفتكر ..
 بالكائنات . تَضَاكَ أَيُّهَا الْقَدْرُ !
 طَوَائِفُ الْخَلْقِ وَالْأَشْكَالِ وَالصُّورِ
 تَرْنُو إِلَى الْكَوْنِ ، يُنْبَى ، ثُمَّ يَنْدَثِرُ

لَا الْمَوْتَ يُنْقِذُهُمْ مِنْ هَوْلِ صَوْلَتِهِ
 حَارَ الْمَسَاكِينُ ، وَارْتَاعُوا ، وَأَعْجَزَهُمْ
 وَهُمْ يَعِيشُونَ فِي دُنْيَا مَشِيدَةٍ
 وَكَيْفَ يَحْذَرُ أَعْمَى ، مُذَلِّجٌ ، تَعَبٌ ،
 قَدْ أَيقِنُوا أَنَّهُ لَا شَيْءَ يُنْقِذُهُمْ
 وَلَوْ رَأَوْهُ لَسَارَتْ كَيْ تَحَارِبُهُ
 وَثَارَتْ الْجِنُّ ، وَالْأَمْلاكُ نَاقِمَةٌ
 لَكِنَّهُ قُوَّةٌ تُمْلِي إِرَادَتَهَا
 حَقِيقَةٌ ، مُرَّةٌ ، يَا لَيْلِ ، مُبْغَضَةٌ

تَنَهَّدَ اللَّيْلُ ، حَتَّى قَلْتُ : « قَدْ نُثِرَتْ
 وَعَادَ لِلصَّمْتِ .. ، يُصْغِي فِي كَابْتِهِ
 وَفَهَّقَةَ الْقَدْرِ الْجَبَّارُ ، سُخْرِيَّةٌ
 تَمْشِي إِلَى الْعَدَمِ الْمَحْتَمِومِ ، بَاكِيَّةٌ
 وَأَنْتَ فَوْقَ الْأَسَى وَالْمَوْتِ ، مَبْتَسِمٌ



الدنيا المينة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 10/8/1934 ، وفيها هجاء للناس الفاقدي
 الإنسانية والكرامة ، كما فيها حكمة .

لكنّها تَحِيَابُ بِلَا أَلْبَابِ
 يَدُوِي حَوَالِي جَنْدَلٍ وَتَرَابِ
 وَتَرَاشَقُوا بِالشُّوكِ وَالْأَحْصَابِ
 جَهْلًا وَعَاشُوا عَيْشَةَ الْأَغْرَابِ
 وَمَطَامِعُ السَّلَابِ وَالغَلَابِ

إِنِّي أَرَى .. ، فَأَرَى جَمْعًا جَمَّةً
 يَدُوِي حَوَالِيهَا الزَّمَانُ ، كَأَنَّهَا
 وَإِذَا اسْتَجَابُوا لِلزَّمَانِ تَنَاكَرُوا
 وَقَضَوْا عَلَى رُوحِ الْأَخْوَةِ بَيْنَهُمْ
 فَرِحَتْ بِهِمْ غَوْلُ التَّعَاسَةِ وَالْفَنَاءِ

وصغائرُ الأحقاد والآراب
مَيِّتٍ، كأشباحٍ، وراء ضباب
وتحرّكوا كتحرّك الأنصاب
إلا كمحترقٍ من الأخشاب
يسمو سُمو الطائر الجوّاب
تنمو مشاعرهم مع الأعشاب
ينمو ويذبل في ظلام الغاب
نور السماء ..، فروحها كتراب ..!
هدراً على الأقدام والأعتاب
قد شيّدته غباوة الأحقاب
في فهم ألفاظٍ، ودرس كتاب
كالودود في حَم الرماد الخابي
دنياه دنيا مأكّل وشراب

* * *

لُعَبٌ، يُحرّكها المطامعُ، واللهي
وأرى نفوساً، من دُخان، جامدٍ
مَوْتَى، نَسُوا شوقَ الحياة وعزمها
وخبائهم هَبُّ الوجود، فما بقوا
لا قلبَ يفتحهم الحياة، ولا حجى
بل في التراب المَيِّتِ في حزن الثرى
وتموت خاملةً، كزهري بائس
أبدأ تُحدّق في التراب ..، ولا ترى
الشاعر الموهوب يُهريق فننه
ويعيش في كونٍ، عقيم، مَيِّتٍ
والعالمُ النَّحرير يُنفقُ عمره
يحيا على رَمَمِ القديم المجتوى
والشعب بينهما قطيعُ ضائع

الويل للحنّاس في دنياهم

ماذا يلاقي من أسى وعذاب



فلسفة الشعبان المقدس

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 20/9/1934، وتمثل القصيدة فلسفة الشعبان المقدس وهي فلسفة القوة المثقفة في كل مكان. وكما تحدث الشعبان في القطعة التالية إلى الشحورور بلغة الفلسفة المتصوفة، حينها حاول أن يزين له الهلاك الذي أوقعه فيه، فسماه «تضحية» وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس ...

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينها تحاول أن تسوغ طريقته في ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها: «سياسة الإدماج» وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا معدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل

حقوقها في هذا العالم ، وبلوغ الكمال الإنساني المنشود، ولكن الفناء حقيقة شنيعة، مبغضة، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما في التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام.

كان الريحُ الحيُّ روحاً، حالماً
يمشي على الدنيا، بفكرة شاعرٍ
والأفقُ يملاه الحنانُ، كأنه
والكون من طُهرِ الحياة كأنها
والشاعر الشحورُ يرقص، منشداً
شعرَ السعادة والسلام، ونفسه
ورآه ثعبانُ الجبال، فغمه
وانقضَّ، مُضْطَعِناً، كأنه
بُغِتَ الشقيُّ، فصاح في هول الفضا
وتَدَفَّقَ المسكينُ يصرخ نائراً:
«لا شيء، إلا أنني متغزلٌ
«ألقى من الدنيا حناناً طاهراً
«أبعُدُ هذا في الوجود جريمة؟!
«لا [أين؟]، فالشرعُ المقدسُ هاهنا
«وسعادةُ الضعفاءِ جُزْمٌ...، ماله
«ولتشهد الدنيا التي غَيَّبَتْهَا
«إن السلامَ حقيقةً، مكذوبةٌ
«لا عدلٌ، إلا إن تعادلت القوي
فتبَسَّمَ الثعبانُ بِسمةِ هازيٍ
«يا أيها الغرُّ المثرثر، إنني
«والغرُّ يعذره الحكيمُ إذا طغى

غَضَّ الشباب، معطرَ الجلباب
ويطوفها، في موكبِ خلاب
قلبُ الوجود المنتج الوهاب
هُوَ معبُدٌ، والغابُ كالمحراب
للشمس، فوقَ الوردِ والأعشاب
سَكْرَى بِسِخْرِ العالَمِ الخلاب
ما فيه من مَرَجٍ، وفَيْضِ شباب
سوطَ القضاء، ولعنةُ الأربابِ
متلفَّتاً للصائل المُتَّابِ
«ماذا جنيتُ أنا فحق عقابي!»
بالكائنات، مغرَّدٌ في غايي
وأبْثُها نجوى المحبِّ الصابي
أين العدالةُ يارفاقِ شبابي؟
رأى القويِّ وفكرةُ الغلابِ!
عند القويِّ سوى أشدَّ عقابِ!
حلمَ الشباب، وروعة الإعجاب
والعدلُ فلسفةُ اللهيب الخابي
وتَصَادَمَ الإرهابُ بالإرهابِ
وأجاب في سَمْتِ، وفرطِ كذابِ:
أرْثِي لثورة جهلك التلابِ
جهلُ الصِّبَا في قلبه الوثابِ

شردتْ بُلْبُكْ ، واستمع لخطابي»
 ظِلِّي ، وخافوا العتّي وعقابي»
 فَرِحِين ، شأنَ العابد الأواب»
 يوماً تكونُ ضحيّة الأرباب»
 قُدُسيّة ، خلصتْ من الأوشاب»
 فتحلّ في لحمي وفي أعصابي»
 في ناظريّ ، وحيدة في نايي»
 وتصيرَ بعضُ ألوهتي وشبابي ..؟»
 في روحي الباقي على الأحقاب ..»
 أسمى من العيش القصير النايي»
 والموتُ يخنقه : «إليك جواي :»
 والسرّأيّ ، رأيّ القاهر الغلاب»
 وارحمْ جلالك من سماع خطابي ..»

* * *

وكذلك تتخذ المظالمُ منطقتاً عذباً لتخفي سوءة الأراب



قال قلبي لاله

نشرت في مجلة العالم الأدبي التونسية 1933 وهي في الديوان بلا تاريخ، والقصيدة تعبير عن كفاح الشاعر وثورته وتمرده، وقد وقع الشابي تجربته هذه على إيقاع الصور التجسدية.

فرقت بين الصخور بجهد
 وأزهرت للعواصف ، وحدي
 فضاء الأسى بأنفاس وردي

في جبال الهموم ، أثبتت أغصاني
 وتغشّاني الضباب .. فأورقت
 وتمابلت في الظلام ، وعطرت

وبمجد الحياة، والشوقِ غَنِيْتُ .. ،
 وَرَمْتُ لِلوَهَادِ أَفْنَانِي الخُضْرَ ،
 وَمَضْتُ بِالشَّذَى فَقَلْتُ: «سَتَبْنِي
 وَتَغَزَّلْتُ بِالرَّبِيعِ ، وَبِالفَجْرِ
 فَلَمْ تَفْهَمِ الأَعاصِيرُ قَصْدِي
 وَظَلَلْتُ فِي السَّلْجِ تَحْفَرُ الحُدَى
 فِي مَرُوجِ السَّمَاءِ بِالعِطْرِ مَجْدِي»
 فَمَاذَا سَتَفْعَلُ الرِّيحُ بَعْدِي ؟



قائد غير محددة زمنياً

هذه القوائد لم أتمكن من معرفة تاريخ
نظمها ولكنها وجدت منشورة في
الجرائد ، ومثبتة في الديوان وفي غيره،
وعددتها ثنتا عشرة قصيدة.

زئير العاصفة

نشرت أول مرة عام 1927 ولكنها وردت في الديوان بلا تاريخ.

تسائلني : « مالي سكتٌ ، ولم أهب
«وسيل الرزايا جارفٌ ، متدفعٌ
بقومي ، وديجورُ المصائب مظلم»
غضوبٌ ، ووجه الدهر أربدٌ ، أقتم؟»

* * *

سكتٌ ، وقد كانت قناتي غصبةً
وقلتُ ، وقد أصغتُ إلى الريح مرّةً
وقلتُ وقد جاش القريضُ بخاطري
تُصيحُ إلى همس النسيم ، وتحلمُ
فجاش بها إعصاره المتهزّم
كما جاش صخبُ الأواذي ، أسحم :

* * *

«أرى المجد معصوبَ الجبين مجذلاً
«وقد كان وضاح الأسارير ، باسماً
على حَسَكِ الآلام ، يغمره الدم»
يهبُّ إلى الجلى ، ولا يتبرّم»

* * *

«فيا أيها الظلم المصعّرُ خدّه
«سيثار للعزّ المحطّم تاجه
«رجالُ يرون الدلّ عاراً وسبّةً
«وهل تعتلي إلا نفوسُ أيّبةً
رويدك ! إن الدهر يبنى ويهدم»
رجالُ إذا جاش الردى فهُم هُم»
ولا يرهبون الموت ، والموتُ مقدم»
تصدّع أغلال الهوان ، وتخطّم»



اياك

إيّاك والتّحديقِ مِن
وتطاول الأعناقِ نحو
فالحبّ في طغيانه
فلقد حسوتُ زعافه
خَلَلِ البراقعِ لِلْحَوَزِ
وَجَمالِ رَبّاتِ الحَقَمِ
كالسَّيْلِ إمّا ينهمرُ
وَحَبْرَتُ مِنْهُ المُسْتَرُ



كهرباء الغرام

كَهْرَبَاءُ الْغَرَامِ فِي الْأَعْيُنِ النَّجْلِ، وَتِيَّازُهُهَا بِسَلْكَ الْجَفُونِ
يرسل اللَّحْظَ لِلْقُلُوبِ كَنُورٍ فَإِذَا مَسَّهَا فَنَّارُ الْمَنُونِ
فَإِذَا مَا انْجَلَى نِقَابُ الْأَمَانِي صَارَ صَبًّا، مُدْلَهَا، ذَا فِتُونِ
يَقْرَعُ السَّنَّ حُرْقَةً وَابْتِهَالًا وَيَصِيرُ الْحَبُورُ لَيْلَ شَجُونِ



صيحة الحب

نَسْمَةٌ هَبَّتْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ ضَاقَ صَدْرِي، مِنْ جَرَاهَا، وَاسْتَعْرُ
كَيْفَ لِي بِالصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ انْدَثَرَ كَيْفَ لِي ...؟ وَالْحَبُّ لَا يَبْقِي عَلَى
كَيْفَ لِي ...؟ وَالْحَبُّ قَدْ زَادَ إِلَى

* * *

أَهْ! كَمْ تُلْجِدُ أَوْهَامَ الصَّبَا أَهْ! كَمْ تُبْكِي أَفَانِينَ الرَّبَى
أَهْ! كَمْ تَخْدَعُ الْحَاظَ الظُّبَا أَهْ! أَوَاهُ! وَهَلْ تَنْفَعْنِي
يَا فَتَاتِي! هَلْ تُلَبِّي دَعْوَةَ رَفْرَفْتِ وَالْحَبِّ، وَهَنَا، خَلْسَةَ
سَكَبَتْهَا الرُّوحُ، لَيْلًا، نَعْمَةَ بِحَيَاةِ الْحَبِّ، لَبِّي دَعْوَتِي
لَا تَخَافِي، فَالِدَجَى يَرْجُو التَّسِي يَاعَرُوسَ الْحَبِّ، هَيَّا وَاخْلَعِي
وَاذْكُرِي أَصْوَاتَ قَلْبِي، وَاسْمِعِي

فِي قُبُورِ الْحَبِّ، مِنْ قَلْبِ بَشِيرِ
كُلَّ صَبِّ بَابِتْسَامَاتِ الزَّهْرِ
كُلَّ صَبِّ، بِسَوَادٍ وَحَوْرٍ
إِنَّهَا «أَه» كَرَّتْ نَاتِ الصَّدَى
صَعَدْتُ مِنْ غُورِ أَعْمَاقِ الْفُؤَادِ؟
مِنْ عَيُونِ الدَّهْرِ، فِي لَيْلِ الْحِدَاذِ
فِي جَلَالِ الْكُونِ، فِي صَمْتِ الْعِبَادِ
وَابْعَثِي رُوحَكَ لِلرُّوحِ الْحَزِينِ
جَرَعَتْهُ الْحَبُّ فِي كَأْسِ السَّكُونِ
مَنْ جَفُونِي الدَّائِمَاتِ الْأَرْقَا
مَهْجَتِي الظَّمِيَاءِ أَنْغَامَ اللَّقَا

واحذري أن تسمعي صوت الشَّقَا
نَفَثَهُ الرُّوحُ فِي صَدْرِ الظَّلَامِ
عن خشوعي ، وابتسامي للِسَقَامِ
فِي خَشْوَعِ الكَوْنِ أَنَاتِ الشُّعُورِ
لِمَلَاكِ الحُطْبِ ، فِي صَدْرِ الأَثِيرِ
يَقْتَفِي الأَثَارِ فِي ظِلِّ الصَّدُورِ
فِي ضبابِ الفجر ، كالطير الأَصْمِ
بأكيأ بالدمع ، مِنْ جفن الأَلْمِ

أودعيني في عذابي ، واسرعي
يا فتاتي ذكُوري اللَّيْلَ بِمَا
واسألِي أملاكِ حُجْبِي فِي السَمَا
كَمْ سَمِعْتُ اللَّيْلَ يَمْشِي هَامِساً
وهدوءُ اللَّيْلِ يَسْعَى حَارِساً
وفؤادي إذ تُولَاهُ الأَسَى
كَمْ سَمِعْتُ اللَّيْلَ ، وَاللَّيْلَ اخْتَفَى
يَسْكَبُ الحُطْبُ بِأَلْحَانِ الوفا



وعود الفواني

مِنْ جَنَى ثَغْرِ جَمِيلِ أَشْنَبِ
يَخْلُبُ اللَّبَّ بِنَظْمِ الحَبَّابِ
وَإِذَا الوَعْدُ كَغَبْرِقِ حُلَّابِ
مَقْفَرٍ ، إِلا بِرَثِ الطَّنَّابِ

عَلَّلْتِنِي بارتشاف الضَّرْبِ
قَدْ تَحَلَّى طَلْعُهُ مِنْ ظُلْمِ
فَإِذَا القَوْلُ سَرَابٌ لَامِعِ
وَإِذَا المَرْبِيعُ قَاعٌ صَفْصَفِ



ليلة عند الحبيب

بِنَبَالِ صُوبَتِ عَن كَثَبِ
دُمَيْةٍ مِنْهَا جَمِيعُ العَجَبِ
مَشِيَةِ الخَيْلِ بِوَحْلِ السَّبَبِ
يَنْفِثُ السُّحْرَ بِجَفْنِ أَهْدَبِ
نَحْوِ قَلْبِي الهَائِمِ المِضْطَرِبِ
ضَاعَ مِنْ جَنَحَيْهِ نَشْرُ الزَوْنِبِ
سُرْبَاكْتُ زَرْقَاؤُهَا بِالسَّحْبِ

أَنَا مَأْسُورٌ لِذَاتِ الحُجْبِ
كَاعْبِ ، هَيْفَاءِ ، بَضِّ ، طِفْلَةِ
خَطَرْتِ تَمْشِي بِرَوْضِ زَاهِرِ
وَرَنْتِ نَحْوِي بِطَرْفِ فَاتِرِ
وَبِنَبَالِ صَوَّبَتْهَا ، جَمَّةِ
تُرْسَلُ اللَّيْلُ بِفِرْعِ فَاجِمِ
لَسْتُ أَنْسَى لَيْلَةَ حَالِكَةِ

وسكونٍ هائلٍ ذي رهيبٍ
 في دياجي جوف ذاك الغيب
 وزماناً سيره ذو حجبٍ
 حاذفاً نحر الفضا بالحصبِ
 وحدها تخفق بين الحجبِ
 وولجت الخدر والليل صبي
 عن جمال ساحرٍ محتجبِ
 راحة الدهر، الضنين القلبِ
 ضمنا في كفه، يسخرُ بي
 ذنبُ الصبح، كذنبِ العقرب
 من جرى طلعة ذاك السذبِ
 كلاء الرحمان، في المنقلب
 في جحيم مؤلم، ملتهبِ

ليست ثوب ظلام دامس
 ليلة قد خضتها، منفرداً
 ساربي مهري فيها عنقاً
 عاديأبي، متهماً، أو منجداً
 فعشوت النار في صدر الحمى
 فدخلت الحي، والستر الدجى
 ورفعت الستر، فافتت الدجى
 فقضينا ليلة، جادت بها
 تحت ظل الحب، والليل الذي
 هكذا... حتى إذا روّعنا
 قبلتني، ولهب الأمل المـ
 مثل طل، فوق ورد، ويلتي!
 ثم قالت: يا حبيبي! سر على
 فتودعنا، وكل قلبه



لينت شعري

مزقت ثوب سكون الليل أنات كلـ
 بين طيات سجاف الغاسق، السداجي البهيم
 حرّكت منّي شعوراً كان من قبل رمـ
 فتحسست مكان الصوت، في ذاك الأدبـ
 فإذا بالأرض ملقى هيكـ
 عفرته التراب والعين على الخد سـ
 فتأملنت مليساً وجهه تحست الغيوم
 فإذا الملقى بسوادي وطني جسم العـ

أَيُّهَا الْمَحْزُونُ يَا شَاعِرَ الدَّهْرِ الْكَثِيبِ
 هَيَّا يَا لَيْلُ لِنَسْعَى نَحْوَ هَاتِيكَ الْفَلَاةِ
 إِنَّمَا أَنْشُدُكَ الدَّهْرَ نَوَاحٍ ، وَنَحِيبِ
 حَيْثُ تَقْضِي بِسُكُونٍ ، زَاهِرَاتٍ نَاضِرَاتٍ
 شَاعِرًا أَيَّاسَهُ حُزْنُ الْحَيَاةِ السَّاهِمِهِ
 وَعَلَى التُّرْبِ ، الَّذِي أَخْضَلَ بِأَنْدَاءِ الْغَمِّامِ
 خَطٌّ: «دَعْنِي فِي سَبَاتِي وَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ»



الحب البلبيل

أَيُّهَا الْبَلْبِيلُ يَا شَاعِرَ أَحْلَامِ الرِّيِّعِ
 غَنَّني إِنَّ عَلَيَّ صَوْتَكَ أَنْدَاءَ السُّدْمُوغِ
 غَنَّني فَهُوَ يَرِينِي أَمَلُ الْقَلْبِ الصَّرِيغِ
 تَائِسَةُ الْفِكْرِ يَنْجَا حَيْرَةَ الْفِكْرِ الشَّرِيدِ
 بِخَشْوَةٍ وَسُكُونٍ وَحَنِينٍ
 يَسْتَكَلِّمُ

انْفُضِ الطَّلَّ ففِي الطَّلِّ حَيَاةٌ حَائِرَةٌ
 شَرَدْتَهُمَا عَنْ فِؤَادِ اللَّيْلِ كَفَّ جَائِرَةٌ
 وَتَغَرَّرَ ذِنْ لِلْوَرْدَةِ عَيْنِهَا فَفَاتِرَةٌ
 أَغْمَضَتْهَا رَاحَةُ اللَّيْلِ فَقَدْ هَبَّ الصَّبَاحُ
 إِنَّمَا أَنْتَ حَيَاةٌ سَاحِرَةٌ
 تَسْتَرْتُمُ

رَتَّلِ التَّغْرِيدَ شَعْرِيًّا عَلَيَّ سَمْعَ الزُّهُورِ
 وَاتْرِكِ الرَّقَّةَ تَهْفُو حَوْلَ أَوْرَادِ الْغَدِيدِ
 فَعَرَّسِ النَّهْرَ قَدْ هَبَّتْ يَنَاقِيهَا الْخَرِيذُ
 وَتَصَبَّتْ نَسْمَةُ الْفَجْرِ الشُّعَاعِ الْمُسْتَطِيرِ
 مِثْلَ هَفَّافِ الْغَيْمِ وَمِثْلَ السَّابِحِ
 فِي ضَبَابِهَا

إنَّ الحَمانَ الظُّلَّامَ أُنْبِرَةَ المَكْتَبِـــه
 تـواوـى بـسـكـون خـلـف تـلك الأـشـجـيـه
 سـيـمَ السـورِ دُ أنـيـن اللـوعـة المـتـجـبـه
 فـانـشـد اللـحـنَ رـخـيماً يـطـرِبُ الكـونَ رـنـيـمـه
 وادفـن الحـسـرة في اللـحـدِ الرـحـيـبِ
 ورؤاها

فـيـكُ يا بـلـبـلُ ما في الشـعـر مـن وحي تـعـوبُ
 فـيـكُ ما في الفـجـر مـن رـقـة لآلـاء طـرـوب
 فـيـكُ ما في الكـون مـن فـنٍ و مـن سـحـر خـلـوبُ
 فـيـكُ ما في الزـهـرة مـن شـعـر الـدـمـوع
 فـيـكُ ما في الـدـمـعـة المـنـحـدـره
 مـن مـعـاني

انفُثَ الشـعـرَ فـفـي شـعـر ك رـوح خـالـده
 كـلِّـها هـبَّتْ عـلى تـلك الزـهـور الـراقـده
 أيـقـظت في صـدـرها نـبـضَ الحـيـاة الـهاجـده
 فـاسـتـفاقت تـتغنى بـأغـانٍ سـاجـيـه
 و عـلى أـجـفـانـهـا سـحـر نـضـيرُ
 وأمان

فـيـكُ يا طـيـرُ تـوجَّـسْتُ أـغارـيـدَ الحـيـاه
 وتـسـمَّـعْتُ لِصـوـتِ صـلٍّ عـن قـلـبي صـداه
 فغـدا يـنـشـده ، لـكـنَّه خـسـاب و تـأه
 فـتـهـاوى مُضـرَمَ الغـلـة ، مـشـبـوباً صـداه
 لأـغارـيـدَ الحـيـاة الـضـائـعة
 ولُغاه

إنَّ في صـدركَ أوتـار الـسـمـاء الـسـاجـعـه

وبأعماقك أحلام الحياة الرائعة
 وبأفاقك فجر أمان حياة راتعه
 في رياض الظهور في تلك المغاني الخالده
 وبأجفانك أضواء عذبات
 مِنْ سَمَاهَا

أنتَ لحن ساحر قد جتم الدهر صداه
 فغدا بهتف صداحاً بأنغام هـواه
 رامقاً في نضرة الأزهار أطياف مناه
 ساكناً من قلبه الطافح بالوحي لحونه
 في فؤاد الورد المسمومة
 لرخييمه

مِنْ نَشِيدِ الْقَلْبِ فِي ظِلِّ الْحَيَاةِ الشَّاعِرِ
 مِنْ دَمِوعِ الْحَبِّ مِنْ سِحْرِ الْأَمَانِ النَّاضِرِ
 مِنْ لَطْفِ اللَّوْعَةِ فِي تِلْكَ الْأَغَانِي الْحَائِرَةِ
 فِي عِيُونَ الْخُرْدِ الْعَيْنِ ضِيَاءِ ضَا حَا
 صَاغَكَ الدَّهْرُ مَلَاكِيًا سَا حَا
 برنيمه

أنتَ قلبُ الشَّاعِرِ الْمُتَرَعِّعِ بِالْحَبِّ النَّمِيرِ
 سَاءَهُ مَوْطِنُهُ الضَّنْكَ وَمَا وَاهِ الْحَقِيرِ
 فَهَفَا وَالشُّوقُ يُذْنِبُهُ إِلَى النُّورِ النَّضِيرِ
 ثُمَّ أَمْسَى بَيْنَ أَفْنَانِ الْغَيْبِ الْغَائِبِ
 شَاعِرًا يَنْشَطِرُ الْوَحْيَ الْجَمِيلِ
 مِنْ حَيَاتِهِ

صَوْتُكَ الْمَشْبُوبُ مِنْ نَارِ الْحَيَاةِ الْخَالِدِ
 جَاءَ شَأْ بِالنَّعْمَةِ الْمَسْكُورِ الطَّرُوبِ الشَّارِدِ

يبعثُ الأَمَالَ بِالنَّفْسِ اليَؤُوسِ الخَامِدِ
 مِثْلَمَا تَبْعَثُ البِسْمَةَ مِنْ جَفْنِ الحَيَاةِ
 حِينَمَا يَسْتَيْقِظُ الفَجْرُ الجَمِيلُ
 مِنْ سَبَابَةِ



دموع الاله

حسرات تُهيجها الذكريات
 وشجون تثير في القلب آلا
 مَنْ لقلبٍ إِذَا تَنَهَّدَ حُزْنَآ
 مَنْ لِنَفْسٍ إِذَا اسْتَحَرَّ آسَاهَا
 كُلَّمَا مَضَى الزَمَانُ بِرُزْءٍ
 مَا أَمَضَ الحَيَاةَ إِذْ سَاوَرَتْهَا
 أَمَلٌ ضَائِعٌ وَقَلْبٌ عَنِيدٌ
 مَا نَدَبْتُ الحَيَاةَ إِلاَّ وَسَمْعِي
 كُلَّمَا طَافَتِ الحَيَاةَ حَوَا
 مَا كَرِهْتُ الحَيَاةَ إِلاَّ لِأَنَّ النَّاسَ
 وَهِيَ جَبَّارَةٌ تَدُوسُ بَيْنَهَا
 غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُهَا وَهِيَ تَبْكِي
 أَلْمَنِي شَجُونَهَا فَتَعَدَّبْتُ
 وَشَجَّنِي دُمُوعُهَا فَتَأَلَّمْتُ
 عَشْتُ فِي حَوْمَةِ الدَّهْورِ بِآرَا
 وَغَدَاً إِذْ قَضِيَتْ غَارَتِ شَجُونِي
 فَنَسِيْتُ الشَّقَاءَ وَالدَّمْعَ وَالْيَأُ
 وَقَضَى فِي سَكِينَتِي طَائِرُ الحِزْرِ
 وَدَمُوعٌ تُفَيِّضُهَا الشَّهَقَاتُ
 مَا تَغْنِّي بِصَوْتِهَا الأَنَاتِ
 صَدَّ عَنْهُ الشَّجُونُ وَالغَصَاتُ ؟
 جَمَدَتْ فِي عُلُومِهَا العِبْرَاتُ ؟
 عَدَّبَتْهَا بِصَوْتِهَا الذِّكْرِيَاتِ
 بَيْنَ هَوَاتٍ يَأْسُهَا الحَسْرَاتِ
 مَرَقَّتْهُ الخَطُوبُ وَالصَّعَقَاتِ
 مَلَأُوهُ مِنْ نَشِيحِهَا شَهَقَاتُ
 لِي هَوَاتٌ مِنْ جَفُونِهَا العِبْرَاتِ
 فِي رَاحَةِ الرِّدَى حَصَوَاتِ
 وَتَغْنِّي وَهُمُ لَدَيْهَا رُفَاتِ
 فَأَفَاقَتِ بِمَهْجَتِي الزَّفْرَاتِ
 وَطَارَتْ بِغَبْطَتِي الهَفَّوَاتِ
 وَغَاضَتِ بِمَهْجَتِي البِسْمَاتِ
 نَسِي وَمَا تَسُرُّ الحَيَاةَ
 وَطَوَانِي لَدَى القُبُورِ السُّبَاتِ
 سَ وَنَامَتِ بِمَهْجَتِي الحِرْكَاتِ
 نَ وَأَغْفَتِ بِصَدْرِهِ النَّدَبَاتِ

هكذا يُلجِمُ المنونُ فؤادي وتَهَبُّ الحقائقُ الخالدات



الأديب

إن الأديب كزهرة نفاحة
بل بلبل ما بين أنسام المنى
تُشجيه ذكرى مجد شعب باذخ
فينوح منتحباً على ما لم يعد
ويقوده الوهم الجميل للجنة الأحلام منها ينتقي وينضد
فيصوغ من درر الخيال قلائداً
وإلى ملذات الغرام ووهمه
فيستل للظير المغرّد سرّه
إن هزّ بالكفّ اليراعة أسلبت
أو جاس أطراف النجوم بلمحة
ويطوف ما بين الزهور كأنّه
وبمرشف الأزهار يسقي الراح من
إن رام تقييل الثغور بداله
أو رام نجوى فالبلابل جمّة
أو شاقه سحر العيون فإنّ في

تعنو إليها الصادحات وتسجد
تلقاه صدّاح الصدى يتغرّد
ملاً الفضاء تلهباً لا يخمد
إلا اذكاراً مؤلماً يتجدّد
منها السعادة في الورى تتخلّد
تصبو أمانيه فلا يتردّد
ولذلك النهر الذي لا يهجد
دمعاً هو السحر الحلال الأيد
رجعت وفيها خاطر يتوقّد
ملك حو اليه الكواعب تحشد
أيدي النسيم فيتنشي ويعربد
ثغر الأقاح مبلبلاً يتودّد
بين الرياض مدى الزمان تغرّد
تلك السهول جئاذراً لا تُكمد



أنسيب يهب

قصيد لأبي القاسم الشابي ، رداً عن تهنئة شعرية تلقاها بمناسبة (زفاهه) (1931)
من أحد أبناء عمومته (الشيخ عامر بن محمد الصالح الشابي).

أنسيم يهبّ في الأسحار بين تغريد بلبل وهزار
 أم أناشيد معبد رتلتها كالنسيات غانيات الجواري
 أم أريج الزهور أم نعمة الأطيّار أم غنة النهير الجاري
 أم تهايك صاغها فكرك السامي فكانت خريدة الأشعار
 يا سليل العلا، وترب المعالي وسمير العلوم، رب الفخار
 أنت من تسجدُ البلاغة والمجد على بابيه بلا استكبار
 تريبه العلوم أو جهها الغرّ وتجنّيه ما بها من ثمار
 إن يكن أسبغ الزمان على فوديك من شبيهه جلال الوقار
 فيجنّيك لا تزال من الهمة والمجد جذوة من نار
 بسط الله في الحياة إليكم عمراً طيباً بغير تبار
 وأراك الله (!) ما شئت في أنجالك الغرّ من علا وفخار
 فهم صحبتي وإخوان نفسي في ظلامي وفي بياض نهاري
 هاته بنت وقتها فتقبّلها فما في قبولها من عار
 ولتعش في الحياة مغتبط النفس قوي النهي يد الأدهار⁽¹⁾
 والسلام عليك من ابن أخيك بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي



المصادر والمراجع

1. أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، الشركة القومية للتوزيع، تونس 1961.
2. أبو القاسم محمد كرو، كفاح الشابي، دمشق، ط4، 1989.
3. أبو القاسم محمد كرو، دراسات عن الشابي، الدار العربية، ليبيا 1984.
4. أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره، دار مكتبة الحياة، بيروت.
5. أحمد قبش، تاريخ العرب الحديث، دار الجيل بيروت.
6. د. أميل أ. كبا، مداخلة وتحقيق، ديوان أبي القاسم الشابي، مجلد 2، دار الجيل، ط1، 1997.
7. إيليا الحاوي، أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، دار الكتاب اللبناني، 1972.
8. حلمي محمد عبد الهادي، مع الشابي في ديوانه، دار الفكر، ط1، 1987.
9. رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، المؤسسة العربية بيروت، 1975.
10. ريتا علي، أبو القاسم الشابي، المؤسسة العربية، ط1، 1983.
11. عبداللطيف شرارة، الشابي دراسة تحليلية، دار بيروت، 1973.
12. د. عز الدين إسماعيل، دراسة وتقديم، ديوان أبو القاسم الشابي، دار العودة، بيروت 1972.
13. د. عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1980.
14. مدحت سعد الجبار، الصورة الشعرية عند الشابي، الدار العربية ليبيا، 1984.
15. محمد الأمين الشابي، أغاني الحياة، ديوان أبو القاسم الشابي، دار مصر للطباعة، 1955.
16. محمد عبدالغني المصري، دراسات أدبية في الشعر العربي الحديث، دار الفرقان، 1984.
17. د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة.
18. نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت ط4، 1974.
19. د. يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة، القاهرة، 1979.
20. يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب، المغرب والأندلس، دار الأهلية، الأردن 2007.

5 مقدمة

القسم الأول: حياة الشاعر

11 حياة الشاعر
12 مؤثرات في حياته
14 مرض الشابي
19 بيئة الشاعر
24 أثر الأدب المهجري في شعر الشابي
26 الخيال الشعري عند العرب
58 شخصية الشابي
64 فلسفته وشاعريته
79 الشابي وأقرانه من الشعراء
80 بين الشابي وجبران
84 بين الشابي والتجاني
89 الرمز في شعر الشابي
95 خصائصه الفنية
99 التراكمب
101 الأوزان والقوافي في موشحات الشابي
106 نماذج من قصائد الشابي للشرح والتحليل
106 الصباح الجديد
106 الشرح والتحليل
107 التعليق
108 إرادة الحياة
109 الشرح
113 الأفكار في القصيدة
114 نشيد الجبار
114 شرح الأبيات
116 فنون الشابي الشعرية
116 الشابي والشعب
119 المرأة في شعر الشابي

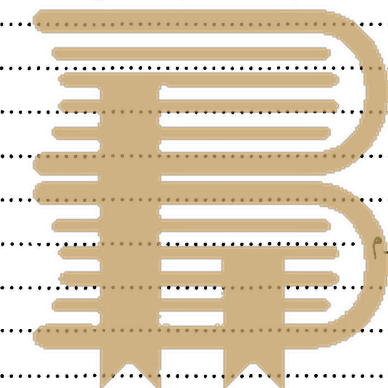
- دراسات حول الشابي 124
- الشابي وتجربة «الفجر البعيد» للأستاذ الشاذلي القليبي 124
- ميلاد الشابي للأستاذ أبو القاسم محمد كرو 125
- كيف ندرس الشابي للدكتور محمد فريد غازي 125
- الشعب في شعر الشابي للأستاذ محمد العروسي المطوي 126
- الشابي وجبران للأستاذ خليفة محمد التليسي 127
- محاولة جعل إطار لترجمة الشابي للأستاذ عامر غديرة 128
- أبو القاسم الشابي للأستاذ محمد بدرة 128
- في ذكرى ميلاد الشابي للأستاذ الهادي العبيدي 129
- الشابي وهذه الحياة للدكتور عبدالله شريط 130
- نفس الشابي للأستاذ عبدالحالق البشروش 130
- حياة أبي القاسم الشابي بقلم الأستاذ إبراهيم أبو رقعة 131
- أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته للأستاذ البشير الفورقي 132
- ما يجب نحو الشابي: بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرو 133
- أبو القاسم الشابي بقلم الأستاذ محمد مزالي 134
- الغربة في أدب الشابي بقلم الأستاذ أحمد خالد 135
- الشابي ناقداً ومنظراً بقلم الأستاذ خليفة محمد التليسي 136
- الشابي يقظة إحساس قومية بقلم الأستاذ أبو زيان السعدي 137
- من مصادر الشابي ومراجعته، إعداد الأستاذ أبو القاسم محمد كرو 138
- الشابي: روح ناثرة، بقلم الدكتور محمد مندور 139
- التقرير والإيحاء في شعر الشابي، بقلم الدكتور مصطفى بدوي 140
- أبو القاسم الشابي: نظرة في شعره عامة، بقلم الأستاذ حسن محمد محمود 141
- فن الشابي، بقلم الأستاذ نظمي خليل 142
- بين الشابي التجاني، للدكتور عبدالمجيد عابدين 143
- الخيال الشعري عند العرب لأبي القاسم الشابي للدكتور شوقي أبو شقرا 143
- أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي، للباحثة سلمى الخضراء الجيوسي 144
- لحظة الإبداع عند الشابي، بقلم الدكتور إحسان عباس 145
- الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي، للأستاذ إيليا الحاوي .. 146
- آثار الشابي 147

القسم الثاني: قصائد الشابي وروايعه

- قصائد عام 1923 151
- الغزال الفاتن 153

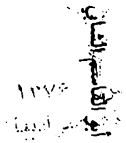
341	155	قصائد عام 1924
قصائد	157	أيها الحب
158	158	خله للموت
159	159	قصائد عام 1925
161	161	النجوى
162	162	تونس الجميلة
163	163	شعري
164	164	الصيحة
165	165	في الظلام
166	166	جمال الحياة
167	167	من حديث الشيوخ
167	167	نظرة في الحياة
169	169	الحياة
171	171	قصائد عام 1926
173	173	أنشودة الرعد
174	174	غرفة من يم
175	175	مأتم الحب
176	176	الكأبة المجهولة
178	178	شكوى اليتيم
179	179	الزنبقة الذاوية
181	181	قصائد عام 1927
183	183	يا شعر
189	189	إلى الطاغية
190	190	السامة (الملل الأليم)
190	190	أغنية الأحزان
193	193	الدموع
194	194	أيها الليل
197	197	المجد
197	197	الحب
198	198	جدول الحب بين الأمس واليوم
202	202	سر مع الدهر
202	202	الذكرى
205	205	قصائد عام 1928
207	207	الطفولة

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net



- 207 قالت الأيام
- 208 المساء الحزين
- 210 بقايا الخريف
- 212 أغنية الشاعر
- 212 في فجاج الآلام
- 215 مناجاة عصفور
- 217 يا رفيقي
- 219 إلى الموت
- 220 إلى عازف أعمى
- 221 صوت تائه
- 222 قبضة من ضباب
- 222 في ظلال الغاب (نشيد الأسي)
- 225 قلت للشعر (مناجاة)
- 227 قصائد عام 1929
- 229 يا ابن أمي
- 229 أغاني التائه
- 230 إلى قلبي التائه
- 232 أكثرت يا قلبي فماذا تروم؟
- 234 يا موت
- 236 إلى الله
- 239 قصائد عام 1930
- 241 النبي المجهول
- 244 الأبد الصغير
- 245 صفحة من كتاب الدموع
- 249 إلى عذارى أفروديت
- 248 يا حماة الدين
- 249 شجون
- 250 الأشواق التائهة
- 253 قصائد عام 1931
- 255 أحلام شاعر (أمل الشاعر)
- 255 قيود الأحلام
- 256 حيرة (?)
- 257 رثاء فجر

343	258	أبا أبكيك للحب
343	259	أبناء الشيطان
343	260	صلوات في هيكل الحب
343	263	أراك
343	264	فكرة الفنان
343	266	سر النهوض
343	266	قلب الأم
343	271	قصائد عام 1932
343	273	حديث المقبرة
343	277	في ظل وادي الموت
343	278	الساحرة
343	281	قصائد عام 1933
343	283	الجنة الضائعة
343	286	السعادة
343	287	من أغاني الحياة
343	289	أيتها الحاملة بين العواصف
343	289	للتاريخ
343	290	صوت من السماء
343	290	ذكرى صباح
343	292	الرواية الغريبة
343	292	الصباح الجديد
343	294	ألحاني السكري
343	296	إرادة الحياة
343	299	تحت الغصون
343	302	إلى الشعب
343	305	الناس
343	305	متاعب العظمة
343	305	نشيد الجبار (هكذا غنى بروميشوس)
343	307	زوبعة في الظلام
343	309	قصائد عام 1934
343	311	الإيمان بالحياة (الاعتراف)
343	311	قلب الشاعر
343	312	إلى طغاة العالم

- 313 الغاب
- 316 حرم الأمومة
- 316 شكوى ضائعة
- 317 الدنيا الميتة
- 318 فلسفة الثعبان المقدس
- 320 قال قلبي للإله
- 323 قصائد غير محددة زمنياً
- 325 زئير العاصفة
- 325 إياك
- 326 كهرباء الغرام
- 326 صيحة الحب
- 327 وعود الغواني
- 327 ليلة عند الحبيب
- 328 ليت شعري
- 329 في سكون الليل
- 330 إلى البلبل
- 333 دموع الألم
- 334 الأديب
- 334 أنسيم يهب
- 337 المصادر والمراجع
- 339 الفهرس

أبو القاسم الشابي

حياته وشعره

شاعر الحب والحياة، شاعر الحب والثورة، شاعر الحياة والموت، شاعر التجديد في عصره، شاعر الطبيعة، وكاتب الخيال الشعري عند العرب.

وُلد عام 1909 ورحل مريضاً بالقلب عام 1934، أتم حفظ القرآن الكريم كاملاً في التاسعة من عمره، وتعلم أصول العربية في الحادية عشرة، ودخل كلية الزيتونة في بداية الثانية عشرة فنال شهادة «التطويح» ونظم باكورة قصائده وهو ابن الرابعة عشرة.

قرأ أمهات الكتب العربية، وبعض الترجمات الأجنبية يافعاً، فتغنى مع الأطيوار، ناجى النجوم، وطرب لحرير الماء، وحنأ على الورود والأزهار ورافق حفيف الأغصان، وراقب نسيم الغاب، فأخرج أروع النظم، وأجمل القصائد في وصف الطبيعة وسحر الوجود وأحب الحياة، وخص الوطن بشعره وقال: «إرادة الحياة»، فكان لحناً فريداً وأغنية عاصفة تائرة تردها الأجيال.

قاد حركة طلاب الزيتونة التي كانت تهدف إلى إصلاح المناهج التعليمية، وله الفضل في تأسيس جمعية الشبان المسلمين في تونس، وساهم في تأسيس النادي الأدبي في العاصمة ونادي الطلاب بتوزر.

وقد تميز رغم قصر حياته بما تركه من شعر خالد ونثر متلائم، داعياً في أعماله إلى الإصلاح والتجاوز نحو فجر الحرية والكرامة والاستقلال للبشرية.



ISBN 978-6589-07-997-8



9 786589 079972

المطبعة الأهلية الهاشمية - عمان / وسط البلد
بجانب مطعم القدس / ص.ب. ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ♦ منشوراتها في العام ٢٠٠٩ م
♦ الغلاف: علي الحسيني

الطبعة
للشعر والتوزيع